بوكاشيو

ودنيا بابا آدم

obeikandl.com

بوكاشيو ودنيا بابا آدم

(ثنائية عبارة السلام)

رواية

محمد بهاء الدين فودة

الطبعة الأولي .... يونيو ٢٠١٣

الغلاف : أسامة علام

المراجعة اللغوية : محمد عبد الغفار

اخراج داخلي : إبداع للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٠٥٦٥

الترقيم الدولي : 978-977-6412-30-9

الحـلم للنشر والتوزيع

٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج

محمول : 01141824562

dar_el7elm@hotmail.com

obeikandl.com

محمد بهاء الدين فودة

بوكاشيو ودنيا بابا آدم

رواية

الحلم للنشر والتوزيع

obeikandl.com

دنيا بابا آدم

(بين النعناع والعرعر)

obeikandl.com

- ١ -

كانت أسرة جميلة؛ خمس نسمات فيها صبي أثير لدى الجميع لأنه الأصغر، وكانت ريح حياتهم تهب هانئة رخية في وطنهم الثاني.. ريح البشرى.. ولذلك كان من الإنصاف لأسباب كثيرة إسقاط وصفها بريح الغربة لما كانوا يرفلون فيه من بحبوحة الحياة والمزارات الدينية المقدسة. كانوا يقطنون قرية قريبة من مدينة عامرة هي العاصمة الثانية للمنطقة نمت فيها الخِلفة أو البذور، حسب وصف الأهلين هناك، وحيث المطر كان يهطل صيفًا كان بيتهم.

كان الأب يحب المطر.. يحب رائحة تراب الأرض إبان هطوله.. فكان ينشط لصنع الشاي بالمطبخ الذي كان يطل على حوش صغير عالي الأسوار كي لا يراهم الجيران في البيوت المجاورة التي لم تكن نوافذها تسمح بالإطلال منها عليهم وهم يطهون أو يفترشون الأرض في الحوش ويأكلون.

وكان كثيراً ما يفتح باب الحوش وهو في ذات الوقت الباب الخارجي الخلفي للبيت ويمد يده ليقطف بعض أعواد النعناع لزوم الشاي، فقد كان النعناع هبة من الأرض الطاهرة التي كانوا يحيون عليها، ينتشر كثيفًا خلف الباب مباشرة.. فإذا عالج أحدهم فتح الباب ولم تكن أبخره مزيج الشاي به تتصاعد في المطبخ أو من الأكواب وهم يرشفون، فإنه كان على العهد دائمًا يقتحم أنوفهم ويزحم روح المكان برائحته الزكية،

كما لو كان يذكرهم به لقطفه وصنع الشاي.

كان يومه يبدأ مع أذان الفجر.. بعد أن يقضي الصلاة جماعة في مسجد القرية مع نفر من أهلها وجيرانه، حيث كان يطيب له تبادل تحيات الصباح أو الأحاديث القصيرة الخاطفة معهم عن حالة الطقس أو حالة العمل في سوق الخضار تلك الأيام، ولأنه يحوز سيارة «بيك أب» مزدوجة الكابينة، فقد تعددت أعماله بين جمع نتاج الأرض القليل من بعض المزارع الصغيرة المنتشرة هنا وهناك حول القرية وبيعه لحساب المزارعين الذين كانوا يثقون به ثقة تامة، والقيام ببعض أعمال النقل الأخرى.. وقد اضطر لأن يكون بعيدًا عن رقابة «كفيله» الذي كان لا يكتشف أنه يعاني كثرة في كفالة العمال الذين استقدمهم للعمل في مؤسسته إلا كلما أتى أول الشهر.. موعد تسليم الرواتب.. فكان يتخفف من بعضهم ويعطيهم حرية الحركة بخطابات رسمية معتمدة من الجوازات، ولهذا هو لم (ولن) يتكدر وكفيله يصرفه من أمامه مسلحًا بهذا الخطاب، فقد كان يعشق الحرية ويسوءه جدًا أن يكون وجوده موكولا بأمر إنسان مثله استقدمه لعينه، وفي نهاية المطاف يدعوه لمغادرة البلاد التي أحبها وأفنى فيها أجمل أيام عمره.

كان وحيدًا في البداية، وقد ساقته أقداره إلى تلك القرية بعد أن تعرف إلى أحد المزارعين من بني وطنه في مقهاهم المعروف بالمدينة.. وإذ وجده متوترًا وحائرًا بشأن إمساك عمل، عرض عليه مصاحبته له ورزقهما على الله.. فقبل شاكرًا ورافقه إلى القرية وقدمه إلى أهلها على أنه أحد أقربائه جاء لمساعدته في حصاد محصول الفاصوليا الذي توافق نضجه في هذا الوقت.. وفعلا انهمك في العمل الذي كلفه أياه؛ في جمع الثمار وتعبئتها في أكياس بلاستيكية وتوفر صاحبه على نقلها إلى سوق المدينة لبيعها.

وأقام معه في مسكنه الخاص الذي كان لمالك المزرعة، فهو مسكنه القديم الذي ورثه عن أبيه، وبعد أن تيسرت أحواله من وظيفة حكومية التحق بها ابتنى بيتًا جديدًا في المدينة واكترى، أو بالأحرى استخدم هذا المزارع الطيب الذي استضافه وقدم له أعظم خدمة في الغربة، بل في حياته كلها.. حيث سرعان ما عثر على عمل مستقل في أحد جوانب تلك القرية المنعزلة لدى عجوز في السبعين كان يقطن مع زوجته.

كانا وحيدين وفي أمس الحاجة إلى معونة شاب يكون في منزلة الابن لهما لا لأنهما بلا أبناء، ولكن لأن هؤلاء كغيرهم من أبناء جيلهم انشغلوا بشئون حياتهم بعيدًا عنهما.

وكان عندهما من الثروة ما يكفل لهما رغد العيش، لكنهما كانا في حاجة إلى من يملأ شيخوختهما، وإلى من يقود بصفة خاصة السيارة (البيك أب) التي ابتاعها الأولاد لهما دون أن يفكروا في كيفية قيادة أبيهم الطاعن في السن لها وكأنها لعبة.

كانت سيارة بيضاء جديدة لقلة استعمالها، وفرح بها صاحبنا كثيرًا لأنه كان سيقضي بها، وهو مستريح، حوائج هذين العجوزين الطيبين التي لم تكن تزيد على زيارة طبيب أو السوق للشراء والتبضع، وأطول مشوار كان يؤديه لهما لم يكن يزيد على العشرة كيلومترات، حيث تبعد المدينة عن القرية؛ سبعة منها كانت على الطريق الرئيسي السريع الموصل بعد مئات الكيلومترات إلى عاصمة المملكة.. وثلاثة على طريق فرعي مرصوف إلى مشارف القرية التي كان يمتهن أهلها الزراعة، ثم لما تغيرت أحوال الدولة امتهنوا أعمالا أخرى أسهل وأضمن في الحكومة أو الجيش وتركوا الزراعة لعمال يستقدمونهم، وانتقل البعض منهم إلى بيوت بيضاء جديدة هي أقرب إلى القصور في تأسيسها ونظام بنائها داخل القرية، أو وهو الأغلب على بعد ما منها، فوق ربوة أو هضبة خاصة مطلة من علٍ

obeikandl.com

على السفح الذي تقع فيه بيوتهم القديمة ومزارعهم، أما البعض الآخر فقد آثر أن يكون بيته الجديد موافقًا لعمله الجديد بالمدينة دون أن يقطع صلته «بالديرة»، وهو الاسم الذي يطلقونه على مسقط رأسهم وموطنهم الأصلي.

وحيث لم يكن مجموع العمل في المزارع كبيراً ويرتقي إلى مرتبة النشاط السكاني فلا لوم على هؤلاء الذين هجروا قراهم ومزارعهم إلى المدينة، لأن المزارع كانت مجرد نتف صغيرة من الأرض الزراعية الخصبة تتناثر هنا وهناك في وهدة الوادي وحول الآبار التي تقع قريبًا من مجرى السيل.. وفي ما عدا ذلك فصخور وهضاب وجبال تقطنها القرود.

والعمل الذي كان أكثر شيوعًا في القرية بين أهلها، لا سيما كبار السن منهم، كان تربية الأغنام ويستأثر به في الغالب العمال والهنود والبنغال، وفي القليل الباكستانيون والأفغان.. وأقل القليل من الإريتريين أو الصوماليين لندرة وجودهم وصعوبة نزوحهم إلى المملكة.

أما الأعمال الفنية، سواء في الصناعة أو البناء أو الصيانة للآلات والأدوات، منزلية كانت أو منتجة، فكان يقوم بها إجمالا العمال الأتراك والباكستانيين والمصريين والسودانيين والفلبينيين الذين كانوا (لا سيما المصريين) عصب العمالة الوافدة في مجالات أخرى كالمحاسبة والتجارة والتعليم والطب والهندسة إلى آخره من فنون العمل في المدن.. ولا أنسى العامل اليمني، فقد كاد لشدة تمرسه في العمل وقدمه، وعلى الأخص في مجال التجارة - مهنة الآباء والأجداد - أن يكون من آل البلاد في تلك المنطقة من المملكة التي ذكرنا أن المطر يهطل بها صيفًا.

ونستطرد فنقول إن هناك مناطق كانت الأمطار تسقط فيها شتاءً، وهذا يعطي انطباعًا قويًا عن مدى اتساع المملكة وتفاوت مناخها بين ما يميز مختلف البيئات.

وهكذا شاء الله أن يرزقه بسيارة وأن يقيم في غرفة منفردًا من غرف بيت العم سعيد مغني، وهو اسم العجوز الذي ألحق بالعمل في خدمته دون أجر نقدي، فقد كان أجره يتكون من الإقامة الكاملة وحق استخدام السيارة في قضاء مشاوير خاصة يتقاضى عنها أجرًا.. وهي في معظمها كانت مشاوير عمل لخدمة المزارعين المصريين الذين كانوا يصطحبونه بالسيارة إلى المتاجر لشراء الأسمدة أو التقاوي أو المبيدات أو لبيع الطماطم أو الكوسة أو البازلاء والفاصوليا بأنفسهم أو بتفويضه في المهام على الوجه الذي سردناه آنفًا.

على أنه لم يكن عمله الوحيد - كما قلنا - فقد كان يجيد فنون رعاية وعلاج الحيوانات من الأمراض الشائعة البسيطة، اكتسبها من خلال عمله مساعدًا لأحد الأطباء البيطريين في مصر فترة طويلة.. ولندرة أو، على الأصح، لعدم وجود طبيب بيطري في القرية فإنه كان يقوم بحقن الأغنام بالمضادات الحيوية الأساسية من مشتقات البنسلين التي يحفظها ويحفظ الأحوال التي تعطى فيها عن ظهر قلب، في مقابل أجر هو في مجمله كبير لأنه يتعدد بعدد المواشي والأغنام التي كان يقوم بحقنها.. فكل إبرة «بريال» خلاف ثمن المضاد الحيوي.

وذاع صيته وكسب الكثير من المال.. وخشي العم سعيد أن يكون هذا سببًا كافيًا لمغادرته إياه بعدما فتحت عليه أبواب الرزق، كما فعل أبناؤه الذين كانوا لا يزورونه لرؤيته والاطمئنان عليه وعلى أمهم إلا لمامًا، فأغراه في البداية بأن وهبه السيارة «بيعًا وشراءً» دون أن يدفع لها ثمنًا، ولما تزايدت مكاسبه وكثر طلابه فاجأه صبيحة أحد الأيام وهما في طريقهما للمدينة بالسيارة لعرضه على أحد أطباء العظام، فقد كان يعاني ألمًا في المفاصل قائلا وهو يرقبه في أثناء قيادته من طرف خفي، وبصوت هادئ مؤثر:

- اسمع يا بني.. أنت أصبحت في منزلة أبنائي.. لم لا تستقدم زوجتك وابنتيك من مصر وتعيشون معنا جميعًا؟ أنا مستعد أن أعطيكم البيت كله ولا آخذ أنا والعجوز إلا غرفة واحدة.. وغرفة أخرى للطعام أو لاستقبال أحد الأولاد إن حضر أحدهم لرؤية أمه ورؤيتي.

وقد كان، وسارع صاحبنا باستقدام زوجته دنيا وابنتيه شمس وقمر وألحقهما بمدرسة القرية الابتدائية بمعاونة كبيرة من ذوي الشأن الذين استعان بهم العم سعيد وباقي أهل القرية، لأن حاجتهم إليه اشتدت بالعمل الذي ارتجله نحو علاج أغنامهم.. والذي تحتم معه أن يعملوا غاية جهدهم لنقل كفالته إلى أحد رجالاتهم، وهو بالطبع كان العم سعيد، ليضمنوا بقاءه وإقامته معهم نهائيًا.

ورغم ما تظاهر به من عدم الاهتمام أو الاحتفال كما تقتضي دواعي الحنكة وحسن التدبير، فإنه كان يغني في أعماقه فرحًا بهذا الخير الوفير الذي كان يحتسبه.

وفي ما بعد أتم الله نعمته عليه بإنجاب الولد فأسماه هلال، فكبرت أغنيته وانطلقت الزغاريد من أعماق صدره إلى عنان السماء.. وسجد لله كثيراً حمدًا وشكرًا.

وصادفت زوجته دنيا هي الأخرى لونًا آخر من ألوان النجاح، لم يكن يتوقعه، مع نساء القرية، ولأنها كانت على إلمام بفنون تجميل المرأة عن حب وهواية.. ولم تكن تعلم أنها بارعة إلى حد دعوة نسوة القرية لها لتجميلهن في المناسبات والأفراح وبغير مناسبة أيضًا على سبيل تزجية الوقت والتخفف من أعباء الحياة والمرح، ساعدها في ذلك كثيراً خفة ظلها ولسانها الحلو؛ تسرد حكايات مسلية لا يدري هو ولا تدري هي من أين واتتها تلك القريحة على سردها في طلاقة وحضور ذهن كأنها ما خلقت إلا لتجميل العيون والخدود والشعر الشفاه وتشنيف الأسماع

بالأحاديث الحلوة والموعظة الحسنة.
رباه.. ما كل هذا الخير العميم الذي أمطرته به من السماء ذهبًا وفضة؟!
حتى زوجته هي الأخرى احترفت تجميل النساء وذاع صيتها إلى أبعد من حدود القرية.. إلى القرى المجاورة والمدينة.. حيث تمتد عرى وأوشاج بين النساء هنا وهناك سواء في القرابة أو الصداقة، وحيث الكلام بينهن يسري سريان النار في الهشيم.

***

تتداخل خطوط التماس بين الأجيال وهي تتوازى أو تتعامد أو تتوالى.. ويطالعنا ذلك بجلاء وقوة في البشر والحجر على حد سواء، ففي القرية كما في كل القرى تتمايز ثلاثة طرز من البيوت.. الطراز «العسيري» القديم الذي تأخذ أبنية البيوت فيه شكل أبراج الحمام بخطوطها التي تبدأ عريضة عند القاع وتضيق تدريجيًا كلما ارتفعنا، ونحن على أية حال لا نرتفع أكثر من دور واحد أو دورين، وبنوافذها التي تحدد عدد الطوابق، وهي إما على شكل مستطيل، وإما في الغالب مخروطية أو مستديرة، كما هي فتحات أبراج الحمام حقًا.
ولا يدري أيه فكرة انبثقت في ذهنه وهو يتأمل ويدقق النظر، يغمره شعور أخَّاذ يملؤه دفئًا بأنه ثمة رابطة ما تربطه بهذا المكان، رابطة تعود به القهقرى للوراء وتذكره بأيام طفولته، حيث كانت قريته من إحدى القرى المصرية التي تحمل اسم الحمام أيام أن كان يبيت يحلم «بالعيش الخاص»، عيش أهل المدينة، والفول المدمس يبيعه رجل أبيض الوجه كاللبن أو قل كالجبن «القريش»، من قدر ثبتها بحرص فوق عربة خشبية صغيرة ذات بطن أجوف عميق يدفعها أمامه وهو يجأر صائحًا ومناديًا بصوت جهير ومنغم:

- لؤلؤ ومرجان يا فول.. هيا اشتروا مني الفول على طول.. وإن خلص الفول أنا غير مسئول.

ولم يكن ثمة سبب آخر لنعت الخبز بالخاص غير انتمائه للمدينة التي لم تكن هي الأخرى تبعد بأكثر من كيلومترين اثنين عن قريتهم.. وكما لو أن صوتًا استيقظ في أعماقه يذكره بـ«العرقسوس»، وما أدراك ما شراب منقوع «العرقسوس» المثلج؟ «شفا وخمير» على حد نداء بائعه، لا سيما في الساعة الأخيرة من يوم رمضان؛ شهر الصيام.. وكما هو شهر القيام فهو شهر الشراب والطعام.

وتداعت الأفكار من رأسه وتناثرت على أكتافه وهو يقف متأملا ما وصفه ببرج الحمام.. أو ما هو أشبه فإذا ما دلف المرء داخلا إليه فسيجد سلمًا صنع من نفس مادة بناء الجدران سرعان ما تسلمه بعد بضع درجات منه إلى غرفة واحدة كبيرة على شكل مصطبة.. آه.. بالضبط إنه يتذكر كما هي «مصطبة الفرن» في القاعة الشتوية التي كان يبيت فيها مع جدته (ست)؛ هكذا كان اسمها بالعامية، وبغير العامية «سيدة».. التي كانت تضاهي ببدنها القوي الدافئ متانة ودفء بدن المصطبة على شكل الفرن التي كانت تشع الحرارة طوال الليل من بطنها الذي أشعلته تلك الأم الكبيرة بوقود الحطب.. وبما تم تجفيفه من أقراص روث البقر والجاموس في حظيرة المواشي الملحقة بالبيت.. هذا الوقود الذي يسمونه اليوم البيوجاز أو الوقود الحيوي.. إذًا فهي أقراص البيوجاز تلك التي كانت توقدها جدته (ست) مع مغيب قرص آخر يشع الدف هو قرص الشمس.

وعلى ذكر الدفء يأتي هنا دفء المشاعر التي يكنها له آل تلك القرية النائية في الغربة، والتي كثيرًا ما كانت تلتهمه بسريانها في جسده بالغة أقصى بقعة فيه.. حيث الأعماق المجهولة التي تدفع وتحفز المرء فيدعي

obeikandl.com

القول بأنه ليس في الغربة بمسالكها الباردة الوعرة.. بل في الوطن حيث الأهل والإخوة والأتراب والذكريات العزيزة.

هذا الدفء الذي كان متوافرًا وبكثرة وثراء في أعطاف وحنايا الجبل القديم الذي كان يقطن تلك البيوت العسيرية التي صنعت من ملاط الطين بالضبط كما كان الملاط طينًا في قريته الأولى، الذي يقل بالتدريج وتزاحمه البرودة في جيل الوسط.. وحيث من النادر أن تستشعره في الجيل الجديد الذي كانت معارفه قليلة وسطحية عن تاريخ بلده وتاريخ البلاد الشقيقة المجاورة التي تعايشت آلاف السنين تتعانق أذرعها الممتدة من البر إلى البحر.. بحر الرمال أو هذا البحر الغول المتلاطم الأمواج ورغم أنفه.. ذاك الذي لم يكن له من وجود في غابر الزمان، فقد كانت الأرض واحدة.. وهي إلى الآن كذلك.. ولا يدري لم انقسمت شعبين وحياتين منفصلتين بعد ظهور هذا الفالق في الأرض الذي قصم ظهرها نصفين.. ربما لأنه قبل أن تنفلق الأرض لم يكن بشر هناك حيث شاءت مشيئة الله - سبحانه - أن يأتي بنو آدم وحواء في ما بعد وأن يتعارفوا تعارف الإخوة كما تعارف أبواهم في «عرفة»، وهذا طبعًا تسلسل وترتيب طبيعي لأنه قبل تكوين الأسرة يتكون المكان الذي سيحيا فيه ويضم أعضاء الأسرة الواحدة كافة.

طرز ثلاثة هي أيضًا في البيوت.. حيث طراز الوسط بيوت من طابق واحد وهي وسط أيضًا بين الانغلاق التام والانفتاح على استحياء، أهم ما فيها بعد «المجلس» غرفة تدعى «المجلط أو المقلط» وهي خاصة بتناول الطعام، والحوش الذي تعلو أسواره وترتفع عن بقية السور المحيط بالبيت، والسور أحد أهم المعالم الخارجية في كل البيوت حيث قلما يخلو بيت منه.. والغريب أن نرى النوافذ والشبابيك تطل على الناظر إليها مع بعض المواربة أو الحرج الذي كان سمة البيوت القديمة،

وكذلك البيوت الأحدث.. تلك «الفلل والقصور» لا البيوت في نوعية ونظام معمارها الذي يتخذ من الحديد والأعمدة الخرسانية والنوافذ والشرفات مظهرًا حديثًا ومَعْلَمًا.

على أننا يجب ألا نذهب بأذهاننا بعيدًا، فالنوافذ مدفونة ومدججة بشبك الحديد الذي يعوق الرءوس عن الإطلال، وكذلك الشرفات يعلوها زجاج حاجز يمنع الوجوه من أن تبدو إلا خلفها، هذا إذا لم تكن مغبشة أو ملونة.. فما زالت آثار البداوة تجري هنا في الدماء، فيحب المرء أن تكون له حياته الخاصة المنفردة مهما توثقت وشائج الصداقة والتعارف ومهما أقيمت ولائم «الكبسة والحنيذ»، تلك التي كثيرًا ما كان يدعى لها ولا يكاد يمر أسبوع يخلو من دعوة هنا أو هناك.. وهم على أية حال لا يقيمونها دون سبب أو مناسبة، بل يتفننون في اختلاق الأسباب والمناسبات، فإذا لم يجدوا وعيت حيلتهم ولم تتفتق أذهانهم عن فكرة وجيهة تصلح أساسًا للوليمة جعلوا التآخي والتحاب وإعلاء شأن صلة الرحم خير وأمتن أساس.

وما زال الحوش الفسيح له مكانه الأثير في تلك البيوت الحديثة.. لا سيما «حوش السيارة» الذي قد يتحكم في إغلاق بابه أو فتحه منظم تشغيل (ريموت كنترول)، فالمتعة كل المتعة أن يفتح الباب عندما تدنو السيارة من البيت وقبل أن يقف بها صاحبها، وهو غالبًا من الجيل الحديث الذي يعشق المعلوماتية ولغة العصر وأدواته بصورة طغت على ما سواها فلم يعرف غير أن بلاده هذه حباها الله سبحانه بالغنى والأمان والصحة في الأوطان، كما هي في الأبدان، وميزها بذلك عن كل الأمصار والبلدان لأنهم يعرفونه حق المعرفة ولا تشوب إيمانهم به شائبة من تماثيل وأصنام، ولا عقيدتهم ملوثة بأضرحة الأولياء داخل المساجد وأحيانًا أضرحة الأغنياء مهما كان أولياء الله لا خوف عليهم ولا

obeikandl.com

هم يحزنون فإنهم ليسوا في مرتبة الصحابة.. صحابة رسول الله محمد وصاحبيه، أبي بكر وعمر، الذي إن نظر الرائي إلى الحضرة التي تحوي قبور الثلاثة لا يعرف من منهم يقع قبره إلى اليمين ومن إلى اليسار ومن في الوسط.. وإن ينسى لا ينسى يومًا كان في زيارة لأثر معركة «أحد» في تلك الناحية القصية من المدينة المنورة، تلك المعركة التي استشهد فيها سيدنا حمزة عم رسول الله، وسأل وهو يقف أمام مسجد يمتد من بقطعة الأرض الخالية التي دفن فيها مع بقية الشهداء أحد آل الحي بقوله:

- أهذا مسجد سيدنا حمزة؟

وهو على الظن الشائع في موطنه بأن المساجد هنا تنعت بأسماء أهم رجالات الحي.. فإذا بالرجل وقد انقلبت سحنته يحدق فيه وكأنه ارتكب لتوه إثمًا فاحشًا بسؤاله.. وأجابه وهو يزجره وينهره:

- هذا ليس مسجد سيدنا حمزة.. هذا مسجد جميع أهل الحي.

وللغرابة توهم أن أهل الحي هؤلاء إمعانًا في تعميق هذا المفهوم الذي جرى على لسان الرجل أهملوا مجرد تجديد طلاء حوائط المسجد من الخارج والداخل.. وأعرضوا عن تبديل فرشه بالسجاد والبُسط الثمينة الفاخرة التي تحفل بها جميع المساجد في كل الأنحاء، فوقف يتأمل مشدوهًا حين دخل يبغي الصلاة وذكرى كلمات الرجل تطن في رأسه وتقرعه، مما جعله يبسمل ويحوقل بانفعال ويسأل نفسه:

- يا الله.. أكل هذا لأنني سألت هذا السؤال عن اسم المسجد؟!

وجاءته الإجابة سريعة وحاسمة من أعماقه هذه المرة، فليس في المدينة المنورة ولا في جميع أرجاء المملكة مسجد واحد يحمل اسم علم من أعلام البشر.. لأنها جميعًا بيوت الله التي لا تدعو مع الله أحدًا، يستوي في ذلك مسجد آل الحي والمسجد النبوي.

- ٢ -

انبلج الصبح وغردت العصافير على فروع شجرة النبق الوارفة في البيت المجاور وهتف صوت في آخر الشارع:

- دوام الحال من المحال.. تلك هي القاعدة.

ونشط المزارعون إلى الحقول في بكرة الصباح - كما هي عادتهم - ليجدوا المزروعات الغضة الخضراء قد احترقت بفعل الصقيع.

كان أحد عجائز القرية قد رفع عكازه عند ظهر اليوم السابق وتمتم وهو يشير إلى السماء:

- هذا ضار جدًا بالزرع.

وتابع الناظرون عكازه بأعينهم إلى حيث أشار فلم يروا في صفحة السماء إلا بياضًا.. صحيح هو ليس بالبياض الناصع المصقول المأمول في ظهيرة النهار.. لكنه كان ابيضاضًا فيه «نغمشة» خفيفة لا تلحظها إلا العين المدربة الثاقبة النظر.. هذه النغمشة هي أجنة الصقيع التي سقطت من بطن أمها في الثلث الأخير من الليل.. حيث فات العجوز الطيب أن يقومه داعيًا الله أن يجنب الأرض الخصبة النادرة وما عليها من نبات وحيوان، تلك الخسارة الكبرى التي أودت بجميع مدخرات المزارعين التي أنفقوها في زراعة الطماطم والكوسة التي أوشكت ثمارها على عقد النضج وما بقي من جهد إلا القليل ويأتي أوان الجني.. وجاءه

المزارع المصري الذي دعاه لمصاحبته في يوم سبت خال من أي شيء يقيم أوده مهمومًا يكاد يبكي مما لحق بغرس يده من التلف، فأدرك أن أوان السبت الذي قدمه أو العرفان بالجميل قد آن، وأن عليه أن يملأ خلاء جيبه «بأحد» رد يكفيه ليقيم أوده ومن ثم لكي ينهض على رجليه من كبوته ويزرع مرة ثانية طماطم وكوسة وأملا.

وقد كان، ووجد نفسه يدس في جيب رجب البحراوي، وهذا كان اسمه المشهور به، مبلغًا من المال كان قد اقتصده لمواجهة طوارئ أعطال السيارة، ولذلك لم يكن يفارق جيبه أبدًا، فما كان من رجب إلا أن رد يده وقبض عليها بأنامله بقوة، كما لو كان قد ضبطها متلبسة «بنشله»، ثم دفعها عنه وهو يغمغم بألم:

- أنا أعتز بمعرفتك وأحترمك.. ماذا فعلت؟! لا تجعلني أغير رأيي فيك.. يا إلهي.. إحسان؟!

فأعاد صاحبنا يده كرة أخرى إلى جيبه وردد في حزم وحسم:

- يا أخي عيب أن تسميه إحسانًا.. إنه دَين حل وقت سداده.

- ولكنني لم أُعِرك نقودًا.

لفظها بتأنيب حقيقي، فقاطعه قائلا في استنكاف:

- لقد أعطيتني ما هو أغلى من النقود.. المأوى الحقيقي والحماية والأمل.. و..

قاطعه الآخر بدوره متمتمًا:

- هذا كثير.

فاستتلى كأنه لم يقاطعه حاسمًا أيضًا:

- هذا دَين أسدده.. لا، بل هذا بعض الدين.

قال الثاني وهو يصر على محاورته:

- لكنك كنت تعمل معي في الحقل لقاء إقامتك.. أي أنك كنت تدفع

وحين وجدت عملا منفصلا يومها لم تكن مدينًا لي بشيء.
- قلت لك إن دَينك لم يكن يُقدّر بالنقود.
- حسنًا.. ليكن.. سأعتبرها سلفة، فأنت لم تكن مدينًا لي بنقود.
قالها وعيناه تبرقان حماسة، ثم صافحه وغادر مبتعدًا وهو لا يدري كيف يخفي عنه ما وراء هذا البريق من دموع الامتنان.
وفي الأيام التالية لاحظ صاحبنا وهو يمر عليه بالسيارة جيئة وذهابًا في طريق أعماله، حيث كان حقله يقع بجانب الطريق العمومي، أنه أزال جميع العروش الخضراء التي اصفرت وجفت من أثر الصقيع تمامًا، وأنه أعاد حرث الأرض وتقليبها وتمهيدها وتخطيطها، بل وزراعتها من جديد، وعرف ذلك من استراق النظر على استحياء إلى العمليات التي توالت على الأرض والتي كان آخرها الري، متحاشيًا إيقاف السيارة على جانب من الطريق لتبادل الحديث معه وسؤاله لئلا يخالط نبض قلبه الظن بأنه يتابعه بعدما صار مدنيًا له، رباه ما أقذع المشاعر التي تثيرها النقود في الأنفس الضعيفة، يتابع من «بوركت يده»، إنه إلا سيد نفسه، وسيد كل صاحب يد تكاسلت عن العمل، وكان أول من تمتد يده لقطف ثمرة إنتاج الأرض الطيبة التي رواها الزارع المباركة يده بعرقه ودمه.. نعم.. نعم ولتكف أيها الوسواس الخناس عن الفحيح في الآذان.. وهكذا كان يكتفي برفع يده خارج زجاج السيارة ملوحًا ومحييًا.
وما كادت تمر أيام حتى وقع ما بدّل أحواله وأحوال أسرته أيضًا.
سلسلة من الحادثات المتعاقبة جرته وإياهم من سيئ إلى أسوأ.. وقد بدأت بزوجته التي كان عملها يتم بالتنقل بين البيوت هنا وهناك.. كما سبق القول في قريتهم والقرى المجاورة.. بل والمدينة.
ولأن دخول البيوت في أي مجتمع ليس من الأمور السهلة، حتى في المجتمعات المفتوحة التي تخلت كثيراً عن حذرها وتحفظها.. فما بالك

بمجتمع تنتظم حياته بمواقيت صلاة الجماعة؟! فالاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر يعقبه أن يبدأ العمل في المدارس وفي جميع دواوين الحكومة في السابعة صباحًا.. ويخرج الآباء من مقار أعمالهم التي تغلق لصلاة الظهر، وبعد أن تقضى مباشرة يكون اليوم الدراسي قد انتهى بالمدارس الابتدائية والمتوسطة، فينشطون لاصطحاب بناتهم وأبنائهم من المدارس للبيوت، ثم يأوبون إلى أعمالهم لاستكمال ما تبقى من يوم العمل.. مع ملاحظة أن العودة هذه يتحكم فيها بُعد المسافة بين المدارس والبيوت.. فكلما تقاربت كان التناسب طرديًا، وكلما تباعدت كان التناسب عكسيًا! حقيقة أن مواعيد الصلاة والدراسة تنظم حياة هذا الشعب وتدور في فلكها دوران الكواكب المتآلفة حول النجوم الزاهرة.

قال يحدث نفسه:

- وإذا كان الحال كذلك فلن يكون مسموحًا على المدى القريب فتح محال تزيين النساء في الشوارع كما هي محال الرجال.. يجب أن يلتفت دعاة المساواة بين الرجل والمرأة لذلك.. فهي لا تقل عن حق قيادة السيارات.. وكل منهما يتم في الشارع.. يا سلام لو أنني أصحو من نومي يومًا فأسمع وأرى هذا القرار وقد صدر.. إذًا لما كنت مضطرًا لنقل زوجتي بنفسي إلى المنزل الذي طلبت صاحبته إياها لقضاء شأن من شئون التزيين، ولكفى ذلك زوجتي التعرض لـ.. آه لشد ما كان هذا حريًا بأن يثير غيرتي وظنوني لو لم أكن الرجل العاقل الواثق بزوجته كل الثقة.

وعند هذه النقطة الشديدة الحساسية من حديثه لنفسه استطرد لنفسه متسائلا:

- أكان يمكنني الدخول للتيقن؟

وتوالت على محياه أشد أمارات الحيرة والعذاب، وأجاب نفسه:

- بالطبع.. وآهٍ أخرى.. فلمَ لا يُسمح بفتح محال التزيين في الشوارع

للمرأة كما للرجل؟! أمن العدل أن أقف أمام البيوت التي تدخلها زوجتي الجميلة والتي تغيب فيها طويلا دون أن أجرؤ على الاقتراب من أسوارها وأبوابها؟

وفعلا تحقق ذات يوم ما كان يفكر فيه ويخافه؛ كان بيتًا في المدينة.. أودع زوجته فيه ثم تحرك ينشد قضاء حاجة من حاجات عمله في ابتياع مستلزمات الإنتاج للمزارع.. على أن يعود لاستعادتها في موعد سبق تحديده له بمعرفة ربة المنزل عن طريق التليفون في اليوم السابق.. فإذا بزوجته تخرج من البيت بمجرد دخوله مذعورة تكاد تنكفئ على وجهها مخافة ألا تلحق به قبل أن ينصرف.. وقد فر منها اللون والأنفاس وكأنها واجهت لتوها في الداخل حيوانًا مفترسًا.. سألها وهو يتلقاها بين ذراعيه ليحول بينها وبين السقوط وصوته يتهدج جزعًا من الرعب الذي سرى إليه منها:

- ماذا حدث؟ ماذا.. ماذا؟

- رجل.. رجل.

والغريب أنه في عين اللحظة برز رجل في ركابها يحاول اللحاق بها.. وما إن لمحه يجاوز الباب ويكاد تمس قدماه أديم الشارع حتى انتزع نفسه منها وتلقى الرجل بين ذراعيه، لا بل تلقفه كما لو كان طائرًا يبغي ذبحه.. ورفعه عاليًا قدر استطاعته وتوقف هنيهة ينظر إلى وجهه ويملأ هذا الوجه بما شاء من رذاذ الغضب من فيه وعينيه اللتين ترصدتا به كالمدافع الرشاشة.. ثم أطاح به في الهواء.. طائرًا فعلا.. وكان من نتيجة ذلك أن ارتطم جسد الرجل القميء بباب المنزل بعنف ارتج له حلق الباب وصلصلت مفاصله.. وكان حلق الرجل أكثر ارتجاجًا ومفاصله أشد صلصلة، فزعق مستنجدًا واندفع إليه غريمه يبغيه بعد سقوطه هاويًا فأسرعت زوجته وأمسكته بجميع أنامل يديها من الخلف وهتفت به

متوسلة:

- بالله لا تفعل.. كفاك.. كفاك.. هذا بيته وهذه بلدته سيكذبونك ويصدقونه إذا ما لاذ بالشرطة، وهو بالطبع فاعل.

صرخ يبغي التملص منها:

- اتركيني.. هذه ليست بلدته.

لم تفهم معنى لما تفوه به ونظرت إليه في رجاء وإلى الشارع بتوجس وحمدت الله على أنه كان خاليًا في هذا الوقت من الصباح الذي استقر فيه الناس بمقاعد أعمالهم.. وأدرك هو مدى ما في موقفه من خطر، فجرها داخل السيارة وفي لحظة مضى بها مبتعدًا وهما يدعوان الله ألا يكون لما حدث شاهد.. ومضى وقت طويل قبل أن يتفوه أحدهما بكلمة لأنهما كانا يستجمعان لهاث أنفاسهما وشعت ما تناثر من أغطية رأسيهما وما بداخل هذين الرأسين من أفكار غير نيرة.

وكان هذا الحادث الغريب الذي توافق أن وقع له وقتما فكر فيه (تأكيدًا للمثل العامي القائل بأن «من يخاف من عفريت يطلع له»)، هو البرهان الدامغ على أنه لم يكن على حق إلى حد ما في مناصرة الرأي المنادي بحرية المرأة في الشارع أسوة بالرجل.. وآخر عهد لزوجته بهذا العمل (بل بالعمل عمومًا)؛ إذ أقسم يمينًا غليظًا بألا تعود إليه «ولو شحذنا»، ولم تفت في عزمه الاتصالات التي انهالت عليهم كالمطر في الأيام التالية تطلبها.. يا إلهي تطلبها لماذا؟ وكان لقرع الباب أو جرس الهاتف تأثير على أعصابه يشبه تأثير التهديد بالرجم بالحجارة.. وهو يتصور أن وراء الباب أو التليفون رجل قميء الوجه مثل هذا الذي رآه وهو يلاحقها كالثور ليمسكها من دبر.. فأحكم رتاج الباب وأمسك «عدة التليفون» وجذبها من سلكها ورمى بها أرضًا.. وصوت بكاء زوجته الطاهرة.. الحصينة بدينها ونشأتها وحب أسرتها وحبه.. يخترق سمعه

وينفذ كسكين حاد صوبه رامٍ يحذق قاعدة التنشين، في أعماقه.
وما أخرجه من الحبس الذي فرضه على نفسه وآل بيته إلا في ثالث يوم بالضبط عندما فوجئ أن الذي يقرع الباب هذه المرة ليس إلا شرطيًا أوفده «أمير القرية الأم» يدعوه إليه لأمر لم يفصح عنه الشرطي.. وكان قد أوشك أن يصرفه دون أن يفتح الباب بأية ذريعة؛ كما اعتاد أن يفعل في اليومين الماضيين.. لولا أن الرجل أفصح عن شخصيته قائلا بغلظة:
- الشرطة.
ففتح له دون أن ينبس بكلمة ورافقه وهو في عجب من أمر استدعاء الأمير له.. مستبعدًا أن يكون الرجل الذي أوشك أن يفتك به قد تقدم بشكوى.. لأن هذه الأحوال من عمل الشرطة لا الإمارة.. ولم تطل به الحيرة كثيراً.. لأنه سرعان ما وجد نفسه بعد أن استفاق تمامًا من غيبوبة أفكاره وجهًا لوجه أمام الأمير الذي - لدهشته - رحب به بأدب جم معروف عن كل الأمراء.. وأفصح له بأنه ما دعاه إلا ليعلمه بنفسه أن عليه الكف عن امتهان العمل في معالجة المواشي والغنم، فقد تخرج طبيب سعودي في الجامعة وتم تعيينه في بلدية المدينة، وأنه ومن الآن - على حد قول الأمير- هو المسئول عن البيطرة بجميع أنشطتها وأعمالها. وعبثًا حاول إفهامه أن في الأرض متسع له وللطبيب المتخصص لأداء هذا العمل بلا جدوى، بل إن كلمة متخصص هذه كانت ضالة الأمير المنشودة، فهدده بأنه غير مؤهل علميًا لممارسة ذلك العمل.. وإن هي إلا خبرة اكتسبها، والخبرة لا تصلح وحدها للنهوض بعمل علمي متخصص.. وضغط على مخارج الكلمات، وهو يشرح المعنى القانوني للتخصص، وعلى نواجذه كلما نطق الكلمة مفردة.. ليفهم مدى الجدية وراء تنفيذ هذا الأمر الذي لا خيار له فيه، وقدم له إقرار العلم به فوقعه صاغرًا وخرج وقد أظلمت الدنيا في عينيه يتلمس طريقه إلى

obeikandl.com

حيث تقف السيارة بصعوبة، وما كاد يجلس على مقعدها حتى انطلق بها كالسهم كمن يروم أن يدهس أحد المارة وغريمًا له (كالرجل القميء) يقهقه تهكمًا وهو يطارده.

وإذا كان المثل الشعبي يقول إن «خبطتين في الدماغ توجع».. فإن صاحبنا نال خبطة ثالثة حينما بلغ البيت ووجد المزارع علي الصعيدي ينتظره لدى الباب لإخباره على ما يبدو بأمر مهم، الذي هرول إليه بمجرد نزوله من السيارة وابتدره قائلا:

- هل سمعت آخر الأخبار؟ يقولون إنه صدر قرار يمنع الأجانب من ممارسة البيع والشراء في أسواق الخضار وقصر ذلك على ملاك المزارع من الوطنيين و..

وكاد يصرخ في وجهه:

- لسنا أجانب.

لكنه بدلا من ذلك وضع يده على فمه ليمنعه من الكلام المؤلم غير متحمل نبرات صوته كأنه يهيل على أم رأسه التراب بهذا الخبر المشئوم الذي تجاوز قدرته على التحمل شكلا وموضوعًا.. وقر عزمه - إن استطرد عامدًا - أن يرفع يده ويصفعه ليلقنه درسًا في أدب الإعلام المتعاطف.. غير أنه فجأة شعر بالعطف عليه، فهو مسكين مثله يمسه قرح مماثل.. ودس يديه في جيبيه ليقسر نفسه على قبول التحلي بضبط تلك النفس والتظاهر بعدم الاكتراث بالإحسان إلى من يتعمد إيذاء شعوره.. ويبدو أنه أخفق في مزج كل هذه المشاعر المتناقضة بصورة تريح نفس محدثه (المتشفي) الذي قرأ في وجهه تعبيراً لم يقوَ على احتماله، فيما يبدو، فأسرع ينهي وجوده من أمامه متباعدًا عنه وهو يحدجه بنظرة ارتياب وتوجس كأنما يتفحصه ليتأكد من أنه في كامل قواه العقلية إلى أن توارى، وفي ذات اللحظة دلف آدم خليفة، وهذا اسمه، داخلا بيته في

حركة عصبية كأنه يلوذ به من خطر داهم، وتوجه من فوره إلى غرفة نومه وألقى بجسد أنهكته أعصاب تحطمت من جسامة ما تعرضت له في يوم واحد من سود الأخبار.. وشعر باحترار تفصدت كل خلاياه له عرقًا من فرط ما جهد لمغالبة انفعالاته التي انبثقت من أعماقه انبثاق البراكين من جوف الأرض أو من قاع البحر.. (والبحر على الأرجح لأنه غرق في مرق العرق).

وعندما أفاق، أو بمعنى أصح استفاق، رأى جميع أفراد أسرته وقد انكبوا على فراشه يتحسسونه بوضع أناملهم على جبينه أو بلفها حول معصمي يديه كما لو كانوا يقيسون حرارته أو نبضه، وتطفر من شفاه بعضهم في وله كلمة «بابا»، فهب جالسًا في ذلك الفراش واستدعاهم جميعًا إلى أحضانه، والصغير هلال طبعًا في المقدمة، وعالج لف ذراعيه حتى يكفيا إحاطتهم جميعًا بعطفه وحبه الأبوي وردد بنبرة تشي بحزن دفين:

- أنا بخير.. بخير.. اطمئنوا.. بابا بخير.

فلم تكف وبقيت أغلب أجزاء جسد دنيا خارج التغطية.. إذ بالكاد لامست أطراف أنامله جنبيها فهتفت تصطنع المرح لتسري عنه الوقر الذي يجثم على قلبه:

- نصيبي قل إلى حد يدعوني إلى التظاهر أو الاعتصام أو الإضراب عن الطعام يا سي بابا.

- بل أنتِ البركة كلها.

قالها وهو يرنو إليها بنظرة تفاهم وحب متين، فاستنار محياها وقالت كأنما قد تذكرت أمرًا مهمًا:

- آه.. على فكرة.. رجب البحراوي سأل عنك.

صاح مستثارًا وكأن وزير الزراعة ذاته هو من سأل عنه:

- رجب البحراوي.. أتعرفون يا أولاد.. رجب هذا أحد أبطال الإنتاج

الزراعي بالمملكة.. وأول من كنت أرشحه لتسلم درع البطولة.. لو أقامت جهة ما بالمملكة احتفالا مثيلا لما تقيمه مؤسسة التعاون بمصر.. ممثلة في جريدة «التعاون» لتكريم الذين أسهموا بجهودهم الخلاقة في زيادة الإنتاج كل عام.. أتعرفون؟ كثيرًا ما أمسكت القلم لأكتب إلى المسئولين في تلك الدار أن يتجاوزوا الحدود إلى كل أرجاء العالم باحتفالهم.. ويمدوا أياديهم إلى رجب وأمثاله على تلك الأرض الطاهرة الطيبة موطن رسولنا الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي كان أول من رفع قيمة تلك اليد إلى العنان بقوله الخالد: «بوركت اليد التي تزرع».

صفقت شمس بإعجاب لما تسمعه من والدها، بينما استرسل هو كأنها لم تقطع حديثه:

- والتي كثيرًا ما نقرؤها في لافتات كبيرة على الطرق في كل أنحاء البلاد هنا، ولا أقول يد رجب البحراوي فقط للعلاقة الخاصة التي تربطني به.. فإن أمثاله كثيرون ممن تركت أياديهم الكريمة بصمات على الأرضين اللتين انفلقتا كحبة فول واحدة في الأزمنة السحيقة إلى فلقتين.. كانت إحداهما مصر وكانت الأخرى السعودية.

- ماذا يقول بابا؟

- وربما يفسر لنا هذا سر عشق المصريين للفول.

- يا إلهنا.. ماذا يقول؟!

- وسر عشق البحر الذي يفلقهما.. لأجساد المصريين.. الذي لا يعلم غير الخالق سبحانه قراره المكين لمن أحبهم هذا البحر المرجاني الأحمر.. المبارك بأسماكه ووحوشه أيضًا.

- جميل.. جميل.. كلامك هذا.. وبعد يا بابا.

استطرد كأنه يصف ما يراه رأي العين:

- والذي تستحوذ لجته الزجاجية.. لا بل الماسية التي تشف ما تحتها

من المرائي إلى مسافات بعيدة عند القاع في بعض المواضع القريبة من شواطئه الحافلة بالعديد المتنوع الأشكال والألوان من الأسماك الجميلة التي ذاقت اللحم المصري الطيب.

- بابا فيم تحدق وماذا ترى؟ وما هذا الكلام؟

- والتي يكتفي من يراها بالنظر إليها فحسب من شدة إبداع الخالق.. دون أن تثور في نفسه غريزة الجوع ودون أن يسأل نفسه قطعًا عن سر عدم تحرك الرغبة البريئة في التذوق.

- بابا.. بابا.. ماذا تقول؟ كأنك ترى ما لا نراه.

استرسل وعيناه سادرتان في اللامنظور:

- والتي ما كانت لتخطئها هذه الأسماك الجميلة أبدًا.. لأنها تعلم سرها الدفين.. ولذلك فهي غالبًا ما تتوارى عن أعين الناظرين لا على استحياء كما يجب أن يتخيل البعض.. ولكن خوفًا من أن يكون بينهم أحد ناشطي الأخذ بالثأر.. يسرعون بالاختباء بين فروع وجذوع الشعاب المرجانية.

- رباه.

- التي تشبه غابة من أشجار وردية ولازوردية.. فيروزية وأرجوانية.

- صورة جميلة.. صورة بديعة.

- تلتف وتتشابك.

- يا إلهي.. آدم.. أفق.

- في نوات ترتفع قرب السطح وتنخفض عند القعر.. وفي داخل البحر صانعة دروبًا وطرقًا يعرفها القباطنة والملاحون جيدًا، والويل كل الويل لمن جهلها ولم يرسم خرائطها في رأسه كما في كراسته وضل سبيله بين شبكتها الساحرة.. الضافية مثلك يا دنيا.

- ماذا؟ مثلي؟

تضاحكت شمس وقمر لمنظر والدتهما وهي تتساءل بنوع من الاستهجان

هو أقرب إلى الاستحسان، على حين واصل زوجها:

- أو اصطدم بها.. كما اصطدمت أنا بعلي الصعيدي.. لأنه في الأولى سيكون كمن وقع في بيت جحا بيتك الذي توهتني فيه يا دنيا.

تعالت ضحكات البنتين وصفقت كل منهما بكفيها على كفي الأخرى.. واستنكرت أمهما هذه المرة بصدق سلوكهما، واستتلى الأب:

- وفي الثانية ستخترق سيوفهما جسد السفين وربما تكشط جزءًا منها.. أو تشطرها نصفين كقطعة الجبن بين حدي سكين سنها «سنّان» حاذق من هؤلاء الذين كانوا يجوبون القرى في الزمن الجميل ويعرفون جيدًا مدى محبة الله لمن يتقن عمله.. ولعل حوادث غرق العبَّارات التي تحمل عمال مصر الكادحين مثل العبارة «سالم إكسبريس» عام ١٩٩١ وغيرها، خير دليل على ذلك.

وصمت هنيهة يلتقط أنفاسه ويتأمل الأثر الذي تركه كلامه في أنفس آل بيته، ونفس دنيا على وجه الخصوص، التي أدار حديثه المطول عن البحر وشجونه رأسها ولم تدرِ لِمَ لَمْ يتناول في طياته وجبة أقل دسامة حتى لا تهاجمهم الكوابيس وتباريح الأحلام وهم نيام أو أيقاظ.. نعم هناك كوابيس النوم وكوابيس اليقظة أيضًا.. وهذه حقيقة يعرفها كل إنسان عاقل.. لأنه ما من حي إلا مر بها ورآها في الظلمة وهو على البر «شاطر» أو في وضح النهار على درب المجهول.. خائب.

فهل كانت حادثة إحراق الصقيع للنباتات الزاهرة في المزارع كابوسًا في اليقظة حط على أم رأس رجب البحراوي ورءوس أقرانه من المزارعين أمثال علي الصعيدي؟ ربما.. ولكن بتكافل أناس أمثال صاحبنا آدم مع هذا المزارع أو ذاك امحت تمامًا آثار الكابوس واستعاد الجميع صحوتهم.. بل صاروا أشد صحوة فأبدعوا سبل الوقاية من أن تتكرر النكسة، وصنع بعضهم.. وعلى غير اتفاق، كما لو أنها السليقة وغريزة

الدفاع عن الحياة.. أكياسًا بلاستيكية يغطي بها النباتات ليلا فيما يشبه «ناموسية النوم» كلما لاح في شاشة عرض السماء ظهرًا ما يقرؤه عجوز يمشي على عكازين.. أو ما تدربوا هم على قراءته كي لا تتعطل أو تفسد الأنشطة الليلية الهامة للنبات في تركيب غذائه، وتخليص المعمورة من الغازات بتضييق حيز الفراغ حولها وكتم أنفاسها بالأغطية «عمال على بطال».. وإنما يفعلون ذلك في ليالي سقوط «الندوة» فحسب.

قرأ آدم بسهولة ما وراء انشغال ذهن دنيا من قلق وهواجس.. فأسرع يبدد أثر ذلك من نفسها قائلا وهو يتبادل متخابثًا نظرات تفاهم مع ابنتيه:

- قد تحدثت طويلا عن البحر.. فهل تستطيع أخصائية الفنون الجميلة التحدث عن البر بأجمل مما تحدثت أنا؟ أشك في ذلك.

واستخلصت دنيا نفسها من مسارب التيه التي أوشكت أن تدخلها، وتنهدت تنهيدة خفيفة تمتمت بعدها متسائلة بابتسامة وانية:

- البر؟!

- أجل فلي صحاب على البر أكن لهم في قلبي كل الحب والاحترام.. لما لهم من أفضال وأيد مباركة لا يدانيها إلا فضل وبركة تلك الأرض الطيبة.. الطاهرة التي قبّلت أكف الأقدام التي دبت عليها.

- تقصد الزراع والمزارع؟

أجاب في حماسة:

- إياهم وإياها أقصد.

اتخذت دنيا مكانًا أقرب إلى النافذة وجلست تنظر من خلالها إلى السماء.. إلى سرب من طيور بيضاء أمعنت النظر وتاهت في بيداء التأمل وأخيرًا قالت:

- لا شك أن استزراع تلك النتف الصغيرة من الأراضي الخصبة الصالحة

للزراعة المنتشرة حول مخرات السيول وفي الوديان التي حفرت فيها العديد من الأنهار المؤقتة التي تروي ما على الأرض من نبات وحيوان ريًا مباشرًا إبان هطولها ولفترة وجيزة بعد الصيف.. حيث مع دخول فصل الشتاء تكون الخزانات والسراديب تحت الأرض قد امتلأت.. صانعة نهرًا آخر في الفصل شحيح المطر.. الذي يسقي ما فوقها بالآبار وهي بمثابة أفواهه العديدة الانتشار في كل مكان حول الوديان وقريبا منها في هذا القطاع الوعر.. العسير من أرض المملكة العصية الاستزراع على هؤلاء الذين اعتادوا رؤية نهر سخي كريم طوال العام يشق صدر أرض صالحة وخصيبة هي من خلفته وهبته.

- الله.. هذا جميل.. جميل يا ماما.

- جميل جدًا.

- هل سمعتم عن محبوبة طاهرة تتجدد عذريتها وخصوبتها كل عام؟!

صاح الجميع باستحسان:

- كلا.. لم نسمع.

استرسلت هي:

- إنها أرض الكنانة.. محبوبة نهر بكر مسقط رأسه الجنة.. تسترد خصوبتها وعافيتها في موعد اللقاء السنوي مع الفيضان الذي ينزله الله من جنته في قلبه ليوزع الحب الإلهي بالقسطاس على زوجات عشر لا يرتوين مهما شربن.

هز آدم رأسه علامة على أن المعنى وصل وبلغ من نفسه موقعًا حسنًا وهو يردد:

- جميل.. صورة جميلة وواقعية فعلا.

وهتفت شمس وقمر وهلال:

- فعلا.. فعلا.. فعلا.

وواصلت دنيا:

- ولا تقول لولا إلمامهم بفنون الزراعة الحديثة.. أقصد الحديث الآن عن الزراع.. ولولا استعمالهم لأدوات التقدم العلمي.. التي تتنوع من الآلات إلى التقاوي المنتقاة والمخصبات والري بالرش والري بالتنقيط.. والاعتماد على وسائل حديثة لعلاج الأمراض ومقاومة الحشرات.. بتنظيم بعض العمليات العضوية غير الكيماوية فإن فطرتهم وميراثهم الحضاري عن أجداد كانوا أول من عرف المجتمعات الزراعية المستقرة.. وأول من أنشأ دولة بمعناها الإداري والحكومي.. وخصها الله في كتابه العزيز بذكر فومها وعدسها وبصلها وقثائها.. ولذلك لم يجد أحد غضاضة في أن تكون الغالبية العظمى من المزارعين هنا في القرية.. أو هناك في الأرجاء كافة.. من أبناء أم الدنيا الأخت الشقيقة لأمهم.. والاعتراف بذلك موثق تاريخيًا وفي غير حاجة إلى دليل أو برهان.

- جميل فعلا.

- فعلا.. فعلا.. فعلا.

- إننا نرى أنهم عندما يبغون أن يجذبوا الأنظار لإعلان في التلفاز لمنتج زراعي.. يحرصون مثلا على أن يظهر في الإعلان الفلاح المصري بجلبابه الأزرق وطاقيته البنية وبيده علبة الفول.. خضراء كتب عليها زرع في كاليفورنيا.. وهذا يثبت أن تشجيع الفول ليس ظاهرة مصرية فحسب.

- ولكن للفول شهرة على مائدة الطعام المصرية فهو الملك غير المتوج على تلك المائدة و..

قاطعته دنيا واستتلت:

- نراه مطبوخًا متعدد الألوان والأصناف في جميع أوقات الوجبات.. وشهرته امتدت إلى العالم ليكون من معالم مصر، شأنه في ذلك شأن الأهرامات.

- وشأن المكرونة في إيطاليا.
- هو رمز من الرموز التي تدل على امتداد الجذر الوتدي للأصالة في أطباق الأرض.
- وأطباق الفول المدمس أيضًا يا دنياي الحبيبة.
ضحكت دنياه في سعادة غامرة وتمتمت وهي تغمز بعينيها العسليتين الشديدتي الصفاء كالذهب لابنتيها اللتين راحتا تراقبان ما يتم عليه حديث يتعالى مستواه بين أمها وأبيها في صمت أخاذ:
- ما أقصد إلا مجرد تعبير.. تعبير من الحقيقة لا من الخيال.. أضع به بعض العلامات على الطريق.
سأل آدم بصبر نافد مغضبًا لسبب لا يعلمه:
- علامات على أي طريق.. طريق الفول؟!
أجابته بابتسامة الحب التي أبى غضبه المفاجئ أن ينزلها من عرشها الذي توسد محياها:
- لا.. ولكنها علامات ننهل منها العبرة والفكرة.. مهما كانت هينة الشأن.. أو كما يقولون يا زوجي العزيز الدرس المستفاد.
هز زوجها العزيز رأسه علامة على الفهم والموافقة.. وقد فعل هذا الحديث في نفسه فعل السحر فنهض من الفراش وبارح المنزل راكبًا سيارته وأخذ يجوب بها طرقًا جانبية.. منعزلة تتكاثر فيها الأعشاب البرية ذات الأزهار الشعاعية الصفراء وتتناثر في بعض جوانبها أشجار السنط والعرعر التي ما إن ينتبه إليها متأملا حتى تقع عيناه على بعض الزواحف الهادئة الطبع والبيضاء الدم من القنافذ والحرباءات.. أو على العكس من ذلك الحيوانات الكثيرة الحركة مثل القردة.
آه.. لشد ما يشعر بالوحدة المريحة.. وتساوره مختلف صنوف المشاعر الودية من كل ما يطالعه أو يراه.

obeikandl.com

هتف به صوت أو توهم من وراء أشجار العرعر أو الصخور:
- ماذا جنيت من الغربة يا ولدي؟
كان صوتًا شبيها بصوت أمه، فجاوبه مرددًا في لا وعي:
- أنا لا أعتبر نفسي في غربة.. وأرى في أهل هذه البلاد أهلي.. بل إن بعض أسماء عائلاتهم أو بلدانهم تماثل تمامًا أسماء بعض العائلات والبلدان في وطني.
عاد الصوت يحاوره:
- إنها أوهامك.. أضغاث أحلامك وأفكارك التي تجمل لك وجه الغربة فتجعله أجمل من وجه أمك.. بينما تحت المساحيق والأصباغ التي تجيد زوجتك.. دنياك.. فنونها يتربص لك الوجه الشديد الاصفرار من المرارة ويدفعك إلى مسالك صعبة الاجتياز من الوعورة.
وماذا يفعل الإنسان؟ ماذا يفعل الإنسان الحر؟! إن أخذنا بذلك المقياس فإن الدنيا كلها غربة.. إننا نستشعر الغربة في الوطن إن ران عليه وتمكن منه وباء الفقر.. نعم الفقر في الوطن غربة وأبشع أنواع الغربة يأتي من الظلم وغياب العدالة.. وتبني أفكار من نوع «الفقر ليس نقيض الغنى».. فقد تكون فقيراً وتشعر أنك أغنى الناس باستغنائك عنهم.. وقد تكون غنيًا وتشعر أنك أفقر الناس بحاجتك إليهم.. وإلى المال الذي يروي نفوسًا مالحة لا ترتوي مهما شربت.. نعم نفوس مالحة.. مالحة.
ووجد نفسه يردد تلك الكلمة في لا وعي وينتفض واثبًا من دخيلة نفسه وقد تشتت تركيزه حتى كادت السيارة تصطدم بحافة الطريق لولا أنه أسرع بتعديل مسارها في اللحظة الأخيرة ثم أسلم نفسه ثانية لأفكاره، لكن دون غرق يسلبه إرادته، وتنبهه وواصل:
- ماذا يفعل أولادي وزوجتي لو وقع لي حادث أودى بحياتي؟ كيف يعيشون؟ بل كيف يعودون إلى البلد؟ رباه ما أشد حاجتهم إلي

فاحفظني لهم.
وتذكر صديقه رجب البحراوي فخيل إليه أنه يسمع صوته يهمس في أذنه قائلا:
- يا أخي تفاءل.. الكريم لا يضام.
ثم بمرح أضاف:
- مت أنت ولا يهمك.. الله موجود فلا تخف.. فقط مت.
وعبثًا حاول أن يضع هذه الكلمات في عقله حتى يفكر بوعي وواقعية لأن صوتًا آخر توهم أنه لعلي الصعيدي ما زال يطن ويرن في أذنيه صائحًا:
- السوق.. السوق لصاحب الأرض.. لا لمن يزرع.. صدر قرار.. صدر قرار.
فهدر بغضب:
- لعن الله السوق ولفظ السوق ومن ساق ويسوق وسائق ومسوق؟!
وكأنما كانت في غضبته تلك النهاية لآلامه فتوقف بالسيارة وهو يحوقل ويبسمل ويستعيذ بالله ليرى أين هو؟ ولما تأمل ما حوله بنظرة متفحصة.. أدرك أنه ما زال في بقاع يعرف دروبها ومسالكها.. وحمد الله كثيرًا على أن أفكاره التي استحوذت عليه لم تسقه إلى مكان غريب لا يعرفه.. وقفل راجعًا ليجد على باب بيته أحد معارفه من الأفغان لا يدري ماذا يعمل يطلب منه توصيله والبقاء معه لحين عودته من زيارة بعض ذوي قرباه في إحدى القرى القريبة وسينقده أجرًا مجزيًا فوق ما سيظفر به من الحفاوة التي سيقابلهما بها أقرباؤه حينما يقدمه لهم على أنه صديق.
استبشر خيرًا واستنار وجهه المسود الكظيم وهو يرفعه إلى السماء وأدام فيها النظر هنيهة يشكر الله على أنه وقد كتب على نفسه الرحمة والوعد الصادق بكفالة الرزق لكل مخلوقاته لم ينس عبده «الآدم».

نعم.. نعم.. ها هو باب جديد من أبواب الرزق يفتح له.. توصيلة هنا وتوصيلة هناك.. القرية تغص بالعمال الذين يحتاجون فوق قضاء حوائجهم المادية إلى التواصل مع أقاربهم وأصدقائهم وبني جلدتهم في المدن والقرى الأخرى، فضلا عن ابتياع أدوات ومستلزمات لزوم أعمالهم في الزراعة وخلافه، أو الحصول على بعض الأطعمة والمواد التي لا تتوافر في البقالتين الصغيرتين قبالة مدرسة البنات، التي يجري التركيز فيهما على توفير احتياجات الأطفال من الأدوات المدرسية والحلوى والمسليات والشوكولاتة والمشروبات الغازية والعصائر ورقائق البطاطس ومستحضراتها الهشة (كالفشفاش) أكثر من التركيز على احتياجات المنازل الضرورية. ثم إنه ما زال في الوسع الانتقال في صحبة الرعاة في البوادي والحضر لحقن المواشي والأغنام بالطعوم والمضادات الحيوية والمقويات.. وللآن لم يتفاءل أحد بأن الطبيب البيطري السعودي الذي تعين في البلدية لن يستعين به.. إنه على يقين بأنه لن يطول الحالات التي تطلبه في المناطق البعيدة والنائية.. وبخاصة أن بعضها لا دروب معبدة له في الجبال والفيافي.. بل بعضها لا يقع على طرق.. إنه وحده وحديث عهد بالعمل وفي أمس الحاجة لخبير مثله يجيد العمل بيده.. متفرغ ولا عمل رسميًا يربطه.. حدث نفسه بكل هذا وأضاف:

- ستدور العجلة ويعم الخير الجميع فهذا منطق الحياة والتزام من الخالق حيال مخلوقاته ولو كانوا من غير المؤمنين به.

وبغتة انقلبت سحنته إلى النقيض وتساءل في قلق:

- ولكن ماذا أعمل في الإقرار الذي تعهدت بموجبه أمام أمير القرية الأم بألا أعود لممارسة ذاك العمل.

سكت لحظة وفكر ثم واصل كأنما يطمئن نفسه:

- والله سيكون هذا شأن البيطري السعودي فهذه بلاده ومن حقه أن

يصرف أموره فيها.. وأعتقد أن أحدًا لن يعترض أن أكون مندوبًا له أو وكيلا رسميًا عنه.. ثم إن حجم العمل أكبر من أن يقوم به فرد واحد وحاجتهم إليه ما زلت قائمة وملحة.. وكما يقولون: الضرورات تبيح المحظورات.

جالت هذه الخواطر في ذهنه وحدث بها نفسه وهو في طريقه بالسيارة ينهب الأرض نهبًا والأفغاني الطيب جالس إلى جواره لا يحير حراكًا ولا يحادثه.

كان الطريق قد بدأ يتعرج ويدخل في سلسلة من المنعطفات والمرتفعات تعقبها منخفضات أو مضايق إلى حد لا يمكن معه تجاهل خطورة مثل هذا التفكير مع السرعة التي تندفع بها السيارة.. وفضل الحديث مع رفيقه ليضمن أن لا تستولي عليه أفكاره كرة أخرى فبادره متسائلا:

- أأنت سعيد في حياتك هنا؟ أعني هل أنت ناجح في عملك بعيدًا عن وطنك؟

- وطني أكلته الذئاب.

غمغم بها الأفغاني ذو العمامة الكبيرة واللحية الكثيفة، التي تميز غالبية الأفغان، ثم أردف:

- سامحني.. أعني أنه يعيش دائمًا في حروب على مر تاريخه.. ولا توجد حقبة واحدة ينعم فيها بالاستقرار والسلام.

سأله بلهفة وتركيز:

- لماذا؟

فأجابه ربما دون أن يفكر وكما لو كان يلقي بأمر بدهي ولهجة قاطعة:

- الأفيون.. الأفيون والحشيش.. انتقلت العدوى من الصين إلينا.. بل قل فرت العصابات التي جعلت من الصين كلها المزرعة الأولى له من شدة بطش السلطات الصينية ووجدت في بلادنا المرتع الخصب الآمن لها..

أنت تعلم أن لنا حدودًا مع الصين، لكنها للأسى والأسف غير مراقبة وبلا سلطات.. لتعدد السلطات وتناصرها وتشرذم المجتمع كله.. شعوبًا وقبائل.

ساد الصمت بينهما هنيهة.. وفكر أن يواسي صاحبنا لما رآه من علامات الحزن والأسى تكسو محياه بخطوط حادة وقاسية.. فقال مهونًا:

- بل قل إنها مأساة الحرب التي شنها الأمريكيون عليكم بدعوى محاربة الإرهاب.

- ليس علينا فقط.. بل على العالم الإسلام كله لمن ليس معهم.. إنهم يتملقون الشعوب بدعوى حقوق الإنسان ونشر الحرية والديمقراطية ومحاربة الفقر.. ويتصيدون المخالفات دون أن يقيموا اعتبارًا لحق الشعوب في السيادة على أراضيها، أو بالأحرى دون أن توكلهم هذه الشعوب في الاعتراض على الممارسات الخاطئة لحقوق الإنسان هذه.. ناهيك من الضغوط السياسية واستغلال التناقضات الإيمانية التافهة بين دول الجوار وتعميقها وجعلها تماثل الخلافات الشديدة التي تمس جوهر عقيدتهم الدينية بما جعل دينهم الواحد ينقسم أديانًا، وكذلك الضغوط الاقتصادية والتهديد بقطع المعونات الموجهة التي لا تعطى لوجه الله..

وسكت هنيهة يلتقط أنفاسه واسترسل:

- بل والتهديد أحيانًا بالضرب تحت الحزام.. سبحان الله.. قد خلق الله البشر جميعًا أحرارًا متساوين في الحقوق والواجبات كأسنان المشط كما نادى سيدنا محمد رسول المساواة والحرية، وبأنه لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى.. قبل أن يخلق الله الفلاسفة ودعاة الحرية في الثورات الشعبية التي غيرت نظم الحكم في بلادهم وأطاحت بجميع الأباطرة والممالك.. مثل الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية التي قيل إن تأثيرها امتد إلى كل شعوب العالم.

وسكت ثانية وزفر زفرة حرى واستطرد:

- إن أسنان المشط هذه أدق وأقوى تعبير عن حقوق الإنسان لمن يغضون الطرف عن هذه الحقوق إن تعارضت مع مصالحهم فيطبقونها فقط داخل بلادهم.. هؤلاء الذين لا هم لهم إلا الإساءة إلى الإسلام ورسوله.. والتسلط على شعوبه والاعتداء على حريتهم بفتح المعتقلات: جوانتانامو وخلافه، واختلاق الأباطيل والأكاذيب لمحاربتهم واحتلال أرضهم، والهدف واضح في بريق أعينهم المسلطة على الخيرات الطبيعية التي حبا الله بها سبحانه هذه الشعوب من دونهم.. كنوز الشرق.. على حد قول الأميرة فيرجينيا وهي تخاطب ملكًا آخر من ملوك أوروبا في هجمتهم الصليبية الشرسة بقيادة ريتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا، على أرض الأنبياء والديانات السماوية.. وزلة اللسان التي تداركها أحد رؤساء أمريكا في العصر الحالي وأكثرهم عداء للإسلام واعتداء على أراضيه وشعوبه.. أأنت معي؟

تمتم بصوت خفيض فجأة بعد أن كان جهوريًا كأنه يلقي خطبة في جمع من الناس، وتهدج هذا الصوت وهو يكرر:

- أأنت معي.. أتسمعني؟!

كما لو كان يسترضيه ليتقرب إليه ويؤمن معه بوجهة نظره.. هذا الأفغاني المثقف الذي غاص في بحار السياسة الدولية، وفي خلجان هذه البحار التي تكتنفها الظلمة، وكأن آدم أحد أساطين هذه السياسة، وليس ببساطة سائق سيارة.. مجرد سائق.. لكنه شريف يعمل بكد وجد وينحت الصخر في سبيل استخلاص لقمة العيش الحلال.. تلك التي تبدو أحيانًا في فم اليتيم «عجبة».. وعجبي.. لم تكن بك حاجة يا صاح لكل تلك الخطبة الطويلة القوية ليؤيدك ويدعمك إنسان بسيط مثله.

هتف آدم على حين غرة كمن وجد كنزًا، وكان يبحث عن رد يعلو به

إلى مستواه:

- الإسلام هو الحل.

فتهلل الأفغاني استبشارًا وهتف بحرارة:

- هذا بالضبط هو ما يقلقهم.. «ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.. وجادلهم بالتي هي أحسن».. «لو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك».

وران الصمت بينهما ثانية بضع لحظات قبل أن يغمغم آدم قائلا بنفس المستوى، وكأن الحديث ما زال متصلا:

- بالتأكيد لا حاجة بنا إلى هذه الجماعات التي تنشر الرعب والموت باسم الدين خارج أوطاننا، وإن كان ثمة ضرورة، وهي لا شك حتمية، لمقاومة عدو احتل أرضنا فلنقاوم أنفسنا أولا، نقاوم الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ.. نقاوم زراعة المخدرات ونمتنع عن ترويج ما هو أخطر منها من الثقافات التي تدعو في ظاهرها إلى الأخذ بوسائل المدنية والحضارة الحديثة، بينما هي في باطنها تدعو إلى اقتلاع الإسلام اقتلاعًا.. نقاوم روح الضغينة والبغضاء والصراع على السلطة.. نقاوم حب المال واكتناز الثروات وتكديسها في بنوك الأعداء ليحاربونا بها.. فنصبح لا هم لنا إلا منع إخوتنا من العيش في وئام ووضع المرارة.. مرارة الذلة والمسكنة في خبزهم.. إن معركتنا الحقيقية مع الجهل والأمية التي علينا أن ننتصر فيها انتصارًا لا رجعة فيه.. ثم تأتي معركة مقاومة أمراض مستعصية تستشري في أبدان شبابنا وتقطف زهرات حياتهم، لا سيما أبدان الأصحاء الأقوياء منهم مثل سرطان الكبد وفيروساته والفشل الكلوي وغير الكلوي.. نهتم أكثر بزكاة المال ولا نحل محلها نظم ضرائب جزافية فاشلة.. نظمًا مستوردة من بلاد أعدائنا.. نداوي مرضانا بالصدقات.. نتكاتف ونعتصم بحبل الله جميعًا.. لا نتفرق لنصبح قوة

عليا.

- توقف هنا.

- ماذا؟

- أعني السيارة.. توقف.. قد وصلنا الحوطة حمدًا لله.. حمدًا لله على السلامة.

obeikandl.com

- ٣ -

إذاً.. إذاً.. أخذ رجب البحراوي وأقرانه درسًا مستفادًا من حادث الصقيع ونزول الندوة، كما سبق لهم أن عرفوا كيف يأمنون جانب هوام الأرض كالثعابين والحشرات السامة، وأشهرها هنا العقرب الأسود لا الجمبري اللون.. حيث قل شيوعها إلى حد كبير فلم تعد تسمع صرخة أو استغاثة أحدهم وقد لدغ من واحدة هذه الزواحف والمفصليات، وكأن الزراعة قد نظفت وطهرت الأرض منها، وهذه فائدة عظمى للبيئة، فطوبى لليد التي تزرع.

وإذا كان آدم قد تضرر من القرار العلوي الذي حرمه إنابة المزارعين له في تسويق محصولاتهم في السوق، فإن المزارعين أنفسهم كانوا أشد تضررًا لأسباب عديدة تتعلق كلها بظروف ملاك الأراضي، اجتماعية كانت أو صحية أو حتى وظيفية.

ولصعوبة محاسبة الطرف الأقوى في الشراكة بين الزارع المقيم والمالك المواطن.. ومن هنا التقت إرادة الطرفين على بحث سبل الالتفاف على القرار أو النفاذ من إحدى ثغراته.. فماذا يمنع المزارع من مرافقة صاحب الأرض في سيارة نقل مبيعات حقله للسوق.. بحجة الحمل والحط أو ما شابه؟ ثم أين حرية الإنسان الشخصية في أن يوكل غيره لأداء عمل يخدمه، وبخاصة إذا كان مريضًا أو طاعنًا في السن؟

أليس الحجر على هذا الحق يعتبر تسلطًا؟ وأهم من ذلك مخالفة لحقوق

الإنسان، وصيدًا سهلا لمن عين نفسه حارسًا دوليًا على هذه الحقوق، على حد تعبير الأفغاني الذي - على فكرة - كان لقاءه بذوي قرباه وأقرانه من بني وطنه وديًا غاية الود وحميمًا ودافئًا.. وكان لآدم من هذا الود والدفء نصيب وافر جعله يستشعر مشاعر هي إلى المواطنة أقرب، مع هؤلاء الشبان الأفغان الذين غادروا وطنهم المعلن عن شرذمته وتقطيع أوصاله عالميًا، بسبب الحرب الدائرة فيه بين العدو حبيب حقوق الإنسان، وآله الذين يتحاربون في ما بينهم أكثر.

الأمر الذي ادعى معه هذا العدو أنه إنما جاء للإصلاح وإحلال الديمقراطية وقبول الآخر محل القتال والتناحر الذي امتد منهم إلى الخارج وأشعل النار والدمار في أوطان هؤلاء الأعداء المحتلين.

- إنه قناع خادع يخفي به الأعداء مآرب أخرى.. لا يخفى على أحد مغزاها ومرماها وزيتها في بحر قزوين والخليج العربي وزيتونها في البحر المتوسط وأسواقه المتوغلة في أفريقيا.

قالها أحد أتراب الأفغاني وهو يقلب على النار قدرًا وضع فيها لحمًا وخليطًا متجانسًا من الخضراوات كان أبرزها البازلاء وقرون الشطة الهندية الحمراء الحارقة، وسرعان ما نضج الخليط اللذيذ وشاركهم آدم الطعام والأحاديث كأي فرد منهم، شجعه على ذلك بساطتهم وروح الأخوة بينهم التي سرت منهم إليه فأدفأته وأرخت أعصابه واستشعر لأول مرة منذ وقت طويل صفاء ورقة في نفسه وفي نغمات صوته حين يتحدث، وكأنه لم يكن منذ قليل في صراع مع تلك النفس يحاول الفرار بالسيارة في طريق اللاغاية واللاعنوان.

آه.. ما أجمل الصحبة.

وما أجمل مجلس الأصدقاء وأبناء البلد الواحد في الغربة.

إنها العلاج الناجع وترياق الحياة من سموم الغربة هذه.

حقا إن خير بلسم للكروب ألا تستسلم للمصاعب بالهروب.
وعجب كيف لم تنتابه تلك المشاعر العالية في صحبته لبنى جلدته من المصريين؟!
لم يشعر معهم أحيانًا بالغربة؟
ألقى هذا السؤال دون حرج على أصدقائه الجدد الأفغان وأمعن في الصراحة مضيفًا:
- أسطوة النقود (إذا ما جعلها الإنسان هدفًا) هي ما تدفعه إلى الاهتمام بنفسه (وفقط) وتباعد ما بينه وبين العالمين من وشائج فتتمزق في قسوة لحمة الأخوة العامرة بالغذاء الروحي والدفء.
وسكت هنيهة ليقرأ تعبيرات الدهشة على الوجوه الطيبة فلم يبالِ وأردف:
- وكل شيء يهون إلا قيم الكرامة والحرية الشخصية التي أشبعناها جميعًا - كبارًا وصغارًا - ضربًا وتحطيمًا فأوشكت على النهاية.. وأوشك الوطن العزيز أن ينتهي معها، فما كرامة الوطن إلا مجموع كرامة المواطنين.
تزايدت على الوجوه أمارات الدهشة والذهول فلم يتوقف عن جلد ذاته، وواصل:
- ولن يفيدنا كثيرًا أن نتباهى بتاريخنا العظيم، ولا أن نتمسح بعظمة أجدادنا.. فشعوب العالم جميعًا عظيمة.
فغر الأصدقاء الأفغان أفواههم تحيرًا وكأنهم لم يتوقعوا أن يتحدث مصري مع غرباء عن وطنه ومواطنيه بهذه الطريقة، وقد عرف عن المصري غيرته الشديدة واعتزازه الذي لا حد له بمصريته ووطنه الدائم الزهو به والغناء له.. فماذا حدث لهذا الصديق الجديد الذي يبدو أنه فقد زمامه؟ وواصل:

- بالله عليكم لا تنظروا إلي تلك النظرة.. فأنا وطني.. ولا يقل حبي لوطني عن أي مصري آخر.. وسأثبت لكم.. خذوا مثلا علماء الحملة الفرنسية.. ليسوا هم فحسب من فرّق بيننا وبين أجدادنا هذه الفرقة التي تدعمها المقارنة الظالمة التي لا تزال حية إلى اليوم.. فهم على قدر عشقهم إلى حد التيه آثار المصريين القدماء ورّثوا لأبنائهم وأحفادهم في الغرب، أبناء اليوم، قوة حبهم للمصري القديم وضعف حبهم للمصري الحديث.. حبهم وإعجابهم الذي لم ننتفع ولم نعرف كيف ننتفع به في عصرنا الحالي لما بيننا وبين تاريخنا من فصام وانقطاع وجهل وسوء نية.

ندت عنهم جميعًا، وفي صوت واحد وكأنهم على اتفاق، آهة محملة بحرارة انفعال صادق وصاحوا:

- يا إلهنا الكريم – العياذ بالله – حسبنا الله ونعم الوكيل - رب اهدِ ولاة الأمور.

على حين استتلى هو:

- ولما بيننا من أثرة وأنانية ونرجسية.. تبدو مظاهر مثل عدم احترام الطوابير والتدافع على وسائل الركوب العامة فتقع بيننا جرائم هتك العرض والنشل دون أن نقصد.. وجرائم الرشوة والمحسوبية وعدم احترام النفس.. وعدم المبالاة بالنظرة الباردة في أعين السائحين والأجانب التي تلتقط الصور التي لا يحدها حصر.. نعم الكاميرات في الأعين أكثر من الكاميرات في الأيدي.. ثم هم يعودون إلى أوطانهم وهم في حيرة لا يدرون أي درس مستفاد وأية ذكرى جميلة يقصون عما رأوه في مصر.. غير أريحية المصريين وخفة الظل المصرية التي نتشدق بها ونضعها على أفواههم قسرًا ليعترفوا بها لنا.. ولا أحد غيرنا.

- ....

- ثم يا ليت الأمر يقف عند خفة اليد أو خفة الظل.. بل يتجاوزهما إلى

حد أن بعضنا فوق التفريط في كرامته الشخصية لا يتورع، إرضاء لغرور الشخصية الأجنبية التي يأمل أن يجني من ورائها مكسبًا مثل وظيفة أو عمولة أو حتى «بقشيشًا»، أن يكيل لنفسه اللكمات.. ويصب على بني وطنه اللعنات ولا يردعه عن نشر الغسيل الوسخ رادع من نخوة أو ضمير.

- كما تفعل أنت الآن.

نطق بها أحدهم فلم يهتم، واستأنف:

- والمؤسف أن هذا الفعل المشين يتم على مستوى الجماعات مثل الأفراد.. بل والأجهزة الرسمية مثل الإعلام السيئ المضاد للنفس والمصاب بعقدة إيذاء تلك النفس في التمثيليات التي نشرح فيها أنفسنا وعيوبنا «عمال على بطال».. والبرامج التي تصف معاناتنا في سبيل الحصول على لقمة العيش، وما ندفعه من جهد ومشقة لا يقوى البعض على تحملها فيرتشي بعض المواطنين أو تنحرف بعض النسوة، لا سيما المعيلات منهن.. وكله إلا هذا الذي يتفاخر بأنه يأكل على الغداء بيضة مسلوقة في إحدى التمثيليات فصارت كنية نادرة يلاحق بها الأطفال في الغربة كل مصري يرونه كما لو كان معتوهًا يسير في الطرقات على غير هدى.. «أبو بيضة». وحتى «يا علي عوض» وصلت إليهم هنا.. فالمصري لن ينجو من الهتاف عليه بها على سبيل اللعب به والمرح على حسابه.. آه.. حقًا ليكف عقلي الأرعن عن هذا التفكير.. ولأعب ما شئت من روح المشاعر الأخوية التي تعبق بروائحها الزكية أنفاسكم في الغربة يا أعزائي الأفغان الذين تتقاتلون في وطنكم ما شئتم.. لكنكم خارج هذا الوطن تتحابون وتتبادلون الخدمات والزيارات والوظائف والأموال.. ونحن على العكس من ذلك.. آه.. مرة أخرى أعود لجلد النفس إلى حد الإهانة.. ليصمت هذا الصوت في داخلي حتى لا أصر على محاورتكم بتلك الطريقة..

obeikandi.com

ولأستمع أكثر إلى ما يهدئ الأعصاب ويضرب المثل والعبرة من أصوات كل الإخوة الأعزاء الذين يعرفون قيمة الوطن والمواطنة في الغربة.
قال ذلك والتحف بالصمت وأرنبة أنفه تهتز في توفز وعصبية زائدة كأنه يعاني ضربًا من ضروب الخزي الذي يتهدد وجود من يصيبه بالمحق.
- ما لك يا أخي أراك صامتًا واجمًا فجأة بعد هذه الخطبة العصماء؟!
قالها رفيقه الذي صار لا يدري أيهما اصطحب الآخر إلى هذا اللقاء العامر، ومن منهما الذي كان يقود السيارة.. وهو يربت في لطف ومودة على كتفه، فأسرع يجيبه كي يبدد من نفسه تمامًا أي ريب في صدق ما تظاهر به من مودة وإخاء في بداية وإبان حديثه المطول الشديد القسوة:
- لا.. لا شيء، كل ما في الأمر أنني أنتظر رأيكم في ما قلت باهتمام شديد وجدية زائدة وأعقد مقارنة صامتة في أعماقي بيننا وبينكم، وكما تعلم الشيء الذي يزيد على حده..
أكمل رفيقه العبارة ضاحكًا وهو يناوله قطعة لحم كبيرة:
- ينقلب لضده.. وما دمت تعقد مقارنة فتأكد أن ثقافتنا واحدة.
فتناولها منه وهو يشكره ويتبادل مع الآخرين نظرات مفعمة بالرغبة العارمة في التفاهم وتأكيد نبل شعوره نحو بني وطنه والود الذي لا يهون إلا على أولاد الحرام.
وعلى حين غرة وكأنها مجرد مصادفة في تلك اللحظة هبط على سمعه من بيت مجاور صوت رخيم يشدو في طلاقة أنشودة:
- «وابتسامة شمسنا أجمل تحية للضيوف».
فكانت كالغيث هبط من السماء بردًا وسلامًا على قلبه الذي تحرق بما نطق به لسانه الأرعن.. وأجال النظر في ما حوله بلهفة وكأنه يسأل «لمن الصوت؟»، وتشابكت عيناه مع أعين أصحابه وكأنه يعترف لهم بأنه قد

تورط ووقع في زلة لسان يتوجب الاعتذار عنها.

ويبدو أن الشخص اللماح الذي وجه إليه ما يشبه التوبيخ منذ قليل قرأ علامة الاستفهام وأمارة الاعتذار فأسرع موضحًا:

- في جيرتنا يقطن مصري لا يكف عن الغناء لوطنه.

قالها وهو يركز نظراته عليه كأنه يقرّظه ويقرّعه كرة ثانية، فطأطأ آدم هامته وغمغم:

- بالله لا تنظر إلي تلك النظرة.. هذه ليست أخلاقي ولا أخلاق المصريين.. إنها أخلاق الزحام.. فنحن قد تحددت إقامتنا في الوادي على نصف معشار مساحة الأرض.. فمن واصل تحديد إقامتنا بعد جلاء الاستعمار الذي عانيناه طوال تاريخنا تاركًا لنا من أنفسنا أذنابًا يجلدننا بها من هو أشد منه قسوة؟ من زرع الألغام في أرضنا الخصبة على الساحل الشمالي الغربي وعلى الحدود؟ اسمعوا.. أنا بحاجة للدفاع عن نفسي أمام نفسي أولا وقبل أن يكون أمامكم.. عندي قصيدة تحوي قصة طريفة.. تعبر عن واقع الحال وتحضرني الآن، كتبها شاعر وأديب مغمور اسمه محمد بهاء الدين فودة.. بعنوان «ضحكة في الغربة»، أتلوها عليكم الآن فاسمعوا.

وتهيأ لإلقاء القصيدة واقفًا، وبانت على الحضور علامات الاستحسان والاهتمام بتركيز الأنظار وتشنيف الآذان.. هتف من قلبه:

هاجرت من قريتي نزهة حللت قرية منه العوض
طاردني صبيانها بكنية أمير الأراضي البور والمرض
اختل توازني بالمرة تملكني شيطان نهض
أقعيت ألتقط طوبة وأصرف ما تجمع لغرض

جاءت الطوبة بالمعطوبة مواطن شق عليه مسلكي
حدق في ما تناثر من الحوبة ونضى عن نفسه شكوتي
أصم أذنيه عن التوبة هالنوبة للشرطة ساقني
ناشدته بربيع قلبه وصلي وأصل عائلته وأصلي
وأننا من عين الحوطة فرقنا من ساد بإهدار وصلي
أخرسني بوصفي من ساسي لراسي أجنبي ثعلبي
أعزف على الربابة أنشودة ذوي القربى والبال الخلي
أدعي العلم بمذهب الروضة والأصفر الرنان مذهبي
الدجاجة الأصل أم البيضة إن كنت حقيقة ما أدعي
تبغاها بيضا أم سودا؟ سألت فهذا موكول بما يشتهي
فكر أن لكلامي غرضًا أبعد من حبائل مأزقي
وأن كافة الألوان معي يتخيرها في ظلمة خلوتي
سأل ما عندك أجبت أمل اسم جميل لمرام زئبقي
أشار مستزيدا قلت عسل سال لعابه لطيف حلوتي
هش الصغار كدجاج منفلت التربية والتعليم اللولبي
تيقنت من نجاح حيلتي بات المذكور سمكة في أنشوطتي
استولى عليه وهم هرمي اختزل وطنًا هرم في صنارتي
خياله مجرد نسج تمثيل غبي فالهرم مجرد شارع في بلدتي
أول حكومة بأنهر وطني أعلام خضراء لصفصاف كرامتي
بائعات كل لما نوى لا جميلات هوى أفق يا من توهم فهوى
ما خلته سرابًا في ضيعتي ألوان طيف ورجع صدى غربتي
أنا بتقواك قوي وعزتي أرفض من أهدرها من بني جلدتي

***

obeikandl.com

هبط الأفغاني من السيارة بعد أوبتهما من زيارة أحبائه في الميدان الواسع الذي تلتقي فيه وتتقاطع كل الطرق المؤدية من القرية الكبيرة الأم، التي في وسعنا أن نسميها عاصمة المركز إلى كل القرى والتوابع المحيطة حيث كانت القرية التي يقطن بها وأسرته إحداها.. كان الميدان عبارة عن جزء يتسع من الطريق الرئيسي المفضي في النهاية بعد مئات الكيلومترات إلى عاصمة المملكة، ويمتد اتساعه بعيدًا وحول حرم الطريق وعلى جانبيه تقع العديد من ورش صيانة السيارات والمحال التجارية والمطاعم، كان أبرزها مطعمان أحدهما تركي يقدم كل الأشربة والأطعمة المطبوخة على الطريقة التركية، وبخاصة الخضراوات، فضلا عن «أرز الكبسة» وشطيرة صغيرة على شكل متوازي مستطيلات محشوة لحمًا وشهرتها عامة «كالكبسة» في جميع البلاد، وبخاصة في شهر رمضان تدعى «سامبوسك»، وغير ذلك يقدم المطعم الكثير من ألوان الحلوى والشطائر والمخبوزات الشرقية والغربية على الطريقة التركية، سأل آدم أحد العمال الأتراك عن ذلك يومًا فأجابه قائلا:

- إننا في هذا المستوى العالي من المنافسة يجدر بنا ألا نصف كل شيء بأنه تركي.. كل شيء جميل.. ونتساءل هل هذا الجمال تركي الأصل أم تركي امتزج بالطريقة الغربية.. ومن الخطورة أن نحدد غايتنا كلها في السؤال: هل الطريقة التركية شرقية أم غربية في صنع هذا الطبق أو ذاك؟ لأننا على السطح سنجد مذاقًا، وإذا ما تعمقنا قليلا فسنجد مذاقًا آخر.. هذا إذا كانت النية حسنة.. أما إذا لم نحسن النيات فإننا لن نجد أي مذاق مهما تعمقنا، ولن يتفق اثنان على درجة الحلاوة وأيهما أحلى، السطح أم العمق.. لأن إجابة السؤال تتوقف على ماهية الواحد منهما.. أعني ماهية من يتذوق لا المتذوق منه.. وإلى أي فريق التشجيع ينتمي؟

- كل هذا في الطبق؟!

- أجل.. وإذا كان من هؤلاء الذين لا يهتمون بأن يكون لهم رأي فهل يعني هذا أنه فقد تمامًا حاسة التذوق؟! ولا أستطرد أكثر من هذا لأن السؤال الواحد سيفضي بنا إلى المزيد من الأسئلة.. كما لا يصح مطلقًا أن نلقي هذا السؤال الخالد «من هم ولماذا ينشدون غير ما هم عليه أصلا؟».. لأن الطريقة التركية في الطبخ وفي كل شيء أصيلة أصالة المنبت.. وهي الطريقة الوحيدة في تلك المنطقة من العالم التي لم يجرؤ محتل على غزوها على طريقته.. بل كانت هي التي اخترقت حدودهم وغزت ديارهم.

- يا سلام كل هذا في فن الطبخ؟!

- وفي كل شيء.. إن هؤلاء الغزاة ينكرون عليها اليوم طلب الدخول في وحدتهم مخافة أن تفتتهم وتبدد صفهم بما لها من أنفاس أصيلة ومعترف بها تاريخيًا.. على الأقل في فن الطهي طبعًا.. إنهم على يقين من أن ريحهم ستذهب من شدة تيار هذه الأنفاس التي تهب حادة قوية كالإعصار من صدر سليم وأبي العباس.. وهم ما اتحدوا إلا ليستمدوا من اتحادهم قوة على كتم تلك الأنفاس.

- رباه.. ماذا أقول؟ أكُل هذا التداعي للأفكار بسبب وصف طريقة الطبخ التركية؟!

قهقه العامل التركي ضاحكًا وهو يتأمل آدم ينسحب من جلسته مبتعدًا كمن يبغي الفرار بجلده من مواجهة لا يرغب فيها.

- هو مطعم والسلام.

قالها آدم لنفسه وهو يتأمل في أثناء انصرافه العمال الأتراك منظمين.. محترمين.. آكلين وشاربين يعرف مكانهم كل ذي حاجة لاستخدام أي منهم في شأن من شئونه الصناعية أو البنائية والأتراك هنا - كما يراهم آدم - أهل صناعة وبناء.. ومنذ القدم يكن لهم الشعب السعودي

حبًا جمًّا ويعلي قدرهم، ويتخذ من اسم «تركي» ما يطلقه على أبنائه، كما سبق واتخذه الأجداد لقبًا يميز أحد أكبر عوائلهم.. وربما العائلة الكبرى المنتشرة في جميع بقاع المملكة أصلها تركي حقًا.. بجوار الأسماء الكبرى لعائلات مثل العسيري والشهراني والألمعي والدوسري والشهري والأحمري وآل زهران وآل الشيخ وآل فودة.. إلى آخره من العائلات التي تندرج جميعها في رافدين كبيرين عظيمين هما آل قحطان الذين يعتبرون أنفسهم أصل العرب.. وآل عدنان، وهم امتداد أصل العرب ومن وفدوا من الشمال مبشرين بسيدنا إبراهيم عليه السلام.

أما المطعم الثاني فهو هندي ولا يقدم غير «الكبسة» والدجاج المشوي وطبق سلطة الخضراوات الطازجة والعدس أحيانًا، ومن ذلك يتجلى لنا أنه لا يقدم الأطباق الهندية التي نعرف أن لأوراق الأشجار والشطة الهندية الصغيرة الزاعقة «الحرّاقة» دورًا رئيسيًا فيها.. وليس له من الهند إلا عماله الذين يديرونه والذي تقف أمامه أو تجلس بداخله كل طوائف العمال الأخرى من مصريين وسودانيين ويمنيين وباكستانيين وإريتريين وأفغان.

وهذا الحصر لا يعني أنها كل الطوائف العاملة، فهناك عمال من الفلبين وأبناء آسيا كافة، وبخاصة بنجلاديش، بل وأفريقيا من كينيا والمغرب، غير أن أكثرهم لا يفيضون عن حجم الطلب، بل يأتون من بلادهم على قدر الطلب، فتراهم قائمين على أعمالهم في أماكنها ولا يقفون على النواصي مثل تلك التي تقع أمام المطعم الهندي في انتظار من يأتي لاستخدام أحدهم وقفة المتسولين.. فإذا ما حدث وجاء هذا الأحد فإنه كمن جاء بالحسنة وفرج الله، تراهم جميعًا يجرون في اتجاهه وهو ينزل رصينًا منتفخ الأوداج كالقائد الأعلى للقوات المسلحة أو الملك، من سيارته، وإذ ينتهي تكالبهم عليه بوقوفهم أمامه في سكون وتأدب مفتعل، إذ

الحقيقة أن كلا منهم يتحرق شوقًا ولهفة على اختياره هو من دون الجميع للعمل لديه، أيًا كانت نوعية العمل، هم قادرون وعلى خبرة بجميع الأعمال من نجارة وسباكة وبناء وزخرفة، وحتى منهم الخبراء برعي الغنم.

وتمر دقيقة الصمت ثقيلة يتفحصهم فيها الرجل بنظره الثاقب المتفرس.. ثم في النهاية يتركهم كأنه مل حرية الاختيار المطلقة وآثر أن يختاره أحدهم.. نعم يختاره هو.. وتتابعه الأعين التي تكاد تخرج من محاجرها كما لو كانت تتابع النجم الثاقب في غزوه المبارك تحت المجهر وهو يخطو خطوات تجاوز بها جمعهم إلى جدار المطعم وصاح بشاب أسود وقوي البنية يرتدي جلبابًا أبيض نظيفًا وعلى رأسه عمامة كبيرة تماثل عمامة الأفغان، لكنها كما يقول الإعلان أنصع بياضًا:

- أنت.

ودون أي حراك وبهزة هينة من رأسه ينظر الشاب المختار إليه دون أن ينطق علامة على التساؤل:

- أنا؟

فيستطرد طالبه في نفاد صبر:

- نعم أنت أيها السوداني المتمرمر.

ويوشك على نعته بكلمة من الكلمات التي يشتهر بها أبناء كل طائفة عمالية ضائق الصدر، لكنه يتردد لأنه يعلم أنه إن تفوه بكلمة تمس كبرياء أو شعور هذا الصنف من الناس فسيخسره في أقل تقدير إن لم يتلقَ منه لفظًا مشابهًا، فالسوداني ابن النيل بحق يعرف قدر نفسه ولا يعرف التفريط في كرامته أبدًا.. وهم مشهورون هنا بالأمانة والإخلاص وإتقان العمل الذي وكل إليهم وبالنظافة أيضًا، دائمًا الجلباب الأبيض مكوي نظيف، ولا يفرط في العمامة مطلقًا، فإذا كان السوداني يعمل

في بنك أو مؤسسة مالية فإنك تراه أمين الخزينة، وإذا كان مهندسًا أو يقوم بعمل من أعمال البناء فإنك تراه المشرف على نسبة خلط مواد البناء، وأمين المخازن، ونادرًا ما تدخل مستشفى وترى على الأسرَّة في عنابر كسور العظام أي مكسور سوداني.. وإذا رأيت فستراه الطبيب.. وإذا ما شاهدت أحد الذين ينفذون عقوبة الجلد في أشهر ميدان عام بالمدينة، أو من ينتظر حد السيف بيد السياف تنفيذ عقوبة الإعدام لن تجده سودانيًا.

وأكثر من ذلك إن وقع لسوداني حادث أقعده عن العمل، أو لم يعد به صالحًا للعمل فإن جميع السودانيين في جميع أصقاع المملكة يجمعون له من المال ما يعوضه عن عشرات السنين التي لن يقضيها، ويعيدونه لبلدته في السودان كريمًا عزيزًا مدججًا بسلاح المال.. أو يبنون له البيت الذي اغترب من أجل كسب المال اللازم لبنائه في بلدته ويقدمونه هدية له ولأسرته السعيدة.

ولكن..

كيف يعلم جميع السودانيين بذلك الخطب الذي ألمَّ بأحد مواطنيهم على اتساع أرض المملكة الشاسعة المساحة؟

يقال إن السفارة السودانية لديها جميع عناوين السودانيين وأرقام هواتفهم، وإن موظفيها يقومون بأداء هذا العمل الشاق نيابة عن الجميع.

نعم هؤلاء أبناء النيل حقًا.. وهكذا يكون أبناء النيل.

***

obeikandi.com

- يا ابن النيل.. يا ابن النيل.
- من.. من؟
- أنت.. لماذا تتلفت حولك ولا يوجد غيرك وغيري هنا ابنان للنيل؟!
وحملق آدم في من يخاطبه بعد أن تابع بناظريه انصراف رفيقه الأفغاني الذي نقده أجره وذهب لحال سبيله.. وعرف من هيئته ومن لهجته أنه سوداني فمد له يده مصافحًا بحرارة أبناء النهر الواحد.. وتمتم قائلا:
- إنما كنت أنظر إلى صديق افترق عني لتوه.. ثم إنه في رواندا أيضًا أبناء للنيل مثلنا.
وسكت هنيهة ليرى تأثير العبارة ذات المغزى الواضح على مرآة نفس صديقه، فإذا بتلك المرآة في الوجه تمتقع بغتة، ويبدو السوداني البريء المقصد وكأنه مقبل على معاناة انفعال مؤلم، فيسرع آدم متضاحكًا ومضيفًا:
- لا.. لا بالله عليك ما قصدت إلا مداعبتك يا أخي في النشأة والتربية التي تعادل وحدة الوطن.
تهللت أسارير السوداني قليلا حتى بان بياض أسنانه وتغير وجهه من الأسف إلى الاستبشار، وغمغم:
- آه.. تقصد ما وقع من مذابح لقبائل «التوتسي» على يد ميليشيات قبائل «الهوتو».
- إياها أقصد.. يا إلهي.. هذا فظيع.. فظيع.. لِمَ؟
واتقد وجه آدم انفعالا وبرقت عيناه اللتان راحتا تنظران بعيدًا في اللامنظور وهو يردد في صيحة مكتومة، أو بالأحرى صرخة حبيسة من فؤاد يكاد ينفطر:
- يا إلهي.. لِمَ؟
فتداركه رفيقه في السؤال وأمسك يديه ووضعهما بين كفيه بطريقة

تمثيلية مؤثرة، لو أن أحدًا شاهدهما لظن بهما الظنون أو لخال أنهما يتدربان على أداء مشهد تمثيلي في بلاد تخلو مدنها تقريبًا من المسرح لسبب بسيط هو أنه باعتباره فن محاكاة الحياة فيستحيل أن يقوم من دون المرأة وهي نصف الحياة.. بل هي حياة الرجل كلها.. وهذا مجال آخر فسيح لعمل منظمات حقوق الإنسان الخارجية المتغلغلة في المجتمعات العربية يصفه آدم وهو يفكر في عمل زوجته التي يبدو أنها فقدته للأبد ووجد نفسه يكرر في آلية:

- يا إلهي.. لِمَ؟

وبالطبع لم يُحط رفيقه السوداني بحقيقة ما يفكر فيه هذه المرة وخال أنه لا يزال يسأل عين السؤال عما حدث في رواندا فاجتذبه من يده وسار به يخطو نحو المطعم الهندي قائلا في سماحة وخفة روح:

- تعال نشرب شايًا.. يا أخي فيم تفكر عميقًا وحزينًا؟ تعال نزدد تعارفًا يا ابن النيل.

كانا واقفين بجانب السيارة التي أوقفها آدم بمحاذاة جزيرة صغيرة من نباتات الزينة في منتصف الساحة أمام محطة للوقود تمد مختلف أنواع السيارات.. ولعلها أبرز معالم المكان التي ربما جاءت تسميته «المحطة» منسوبًا إليها.. أو إلى أنه ملتقى تجمع العمال.. ونبعت في رأسه فكرة مؤداها أنه أنسب مكان يعثر فيه على زبائن لركوب سيارته وهو يسايره صوب المطعم.. وهناك بعد ثوان كانت جلستهما وكان تبادلهما لحديث ذي شجون.

- لو تمت الوحدة أو حتى التكامل بين شعبي وادي النيل لعم الخير ولما احتاج أحد للاغتراب بحثًا عن فرصة عمل.. لأن مساحة الأرض الزراعية الخصيبة البكر في السودان تبلغ ما يربو على عشرين ضعفًا مثلها في مصر.. فإذا ما اتحدت الأيدي والخبرة في البلدين لأمكن إنتاج غذاء

يجعل السودان سلة العالم العربي بأسره.

- ولكن كيف يتسنى ذلك وعلى أرض السودان تشتعل الحروب الأهلية؟ للأسف هذا الوطن الذي يتحد أبناؤه في الغربة يدًا واحدة في مواجهة النوائب.. نراهم يختلقون النوائب والمصائب لأنفسهم ولوطنهم الذي يتمزق جنوبه وينفصل وجمر النار تحت الرماد في شرقه وغربه.. لماذا يتقاتلون؟

- على الثروة..

- لقمة العيش؟ يا إخوان النيل.. لتعم الثروة الجميع وليأكل جميع الناس.. لا في وادي النيل فحسب، بل في حوض النيل، أطول أنهار العالم، العيش والملح في طبق النيل الواحد.. ببساطة هكذا.. لأن هذا النهر الخالد أحد أنهر الجنة.. وهذه أقل تحية.. بل هذا أقل توقير وإجلال له.

- صورة جميلة.

- ليست صورة.. بل هو حقيقة نحلم بها.

- كيف؟

- سألتني.. سل نفسك يا أخي.. إذا كان حقًا أن سفارة السودان هي السر وراء وحدة أبناء السودان في السعودية.

- وفي أي مكان.

- حسنًا وفي أي مكان.. والسفارة جزء من الحكومة.. فماذا يمنع كل الأجزاء من العمل بذات المنطق للمساواة والعدالة؟!

صاح كأنه ينادي على الحلم:

- يا سوار الذهب أين أنت؟ قد سلمت قيادة المسيرة لمن انتخبه الشعب ليكون حكم الشعب بالشعب وللشعب فلماذا انقطعت المسيرة؟ ولماذا اندلعت نيران العراك هنا وهناك تغذي أتون الانفصال والفرقة؟

- الصورة قاتمة فعلا.

- قائمة فقط.. وما يحدث في دارفور ألا يشبه ما حدث في رواندا؟

- إنها نار الفتنة تأتي دائمًا من الخارج.. تأكد.. ومن يعادينا له هدف معلن وهدف خفي.. ففي أفغانستان كان هدفه المعلن القضاء على الإرهاب، بينما الخفي هو أن يكون قريبًا من بترول بحر قزوين.. وفي العراق كان هدفه المعلن إسقاط الحكم المستبد والخلاص ممن يسعى لامتلاك أسلحة الدمار الشامل ومنح الحرية للشعب، بينما هدفه الخفي أن يكون على قلب مضخة بترول الخليج العربي.. ثم هو في النهاية قد تعلم درسًا أن يحقق أهدافه وهو يركب حصان الأمم المتحدة ويشهر سلاح مجلس الأمن.

- وفي السودان بترول واعد.

- جدًا.. في الجنوب والشرق والغرب.. والشركات الصينية تبحث في صمت.. وهذا ما يؤجحه ويجعله يوقد نار الحركات الانفصالية التي إذا ما قتلت الإنسان الأعزل البريء وجدها هذا فرصة لركوب حصان حقوق الإنسان والمحكمة الدولية لجرائم الحرب التي يأبى أن تكون له عضوية فيها حتى لا يمثل أبناؤه أمامها، ومع ذلك هو يعمل بها جهارًا نهارًا على مطاردتنا بها.

- كان الله في عوننا.. ليس من حقنا ركوب خيل الحقوق، وإذا ما تجاسر أحدنا وحاول أن يعتلي حصان العلم الحديث فسيجد من يعادينا ومعه كل الدولة الغربية وصنيعتهم التي تريدنا أن نعترف بها يهودية صافية.. له بالمرصاد.. فهو مارق وشرير وخارج على القانون ويجب إنزاله من فوق الحصان وإيقاف نموه.

- الله سبحانه يأمرنا بأن نعد لعدونا وعدوه ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل.

- عدونا يعتبر هذا إرهابًا ويطالب بحذف الآية الكريمة المعبرة عن ذلك

من القرآن.. ومع ذلك لا يكف عن بيع السلاح لنا.
- نعم تجارة السلاح هي الأولى في العالم وأرباحها خيالية وهذا هدف آخر لمن يعادينا غير معلن.. ولكنه لا يبيعنا سلاحًا نستخدمه ضده، فالسلاح لقتل أنفسنا أو ليصدأ ويصبح خردة بالمخازن.. ثم هم لا يبيعون لنا غير الأسلحة القديمة التي استغنوا عنها وغير المتطورة أو الحديثة.
- معك حق.. يسمي حروب الإبادة لنا «عمليات الدفاع عن النفس»، كما حدث في عملية «الرصاص المسكوب» على غزة.
- والحصار بمختلف أنواعه وأشكاله دون أن يكون لنا حق الدفاع عن النفس وحق العمل للمقاومة وفك الحصار، فالمقاومة إرهاب.
وعند هذا الحد من الكلام سكت الاثنان وساد بينهما صمت طويل لم يحيرا فيه حراكًا كأنما غرقا حتى الثمالة في حديث آخر لا نهاية له مع النفس.. ثم أخيرًا تمتم السوداني بعد أن دس يده في جيبه وأخرج شيئًا فإذا هو صورة لرجل متقدم في السن تبدو عليه سيماء العظمة والوقار:
- أتعرف هذا؟
وهتف آدم بدوره متسائلا وهو يتناول الصورة منه بأنامله ويدقق فيها النظر وظهرت عليه أمارات من يحاول جاهدًا التذكر:
- الصورة لمن.. من؟
فعاجله بالإجابة مسرعًا في شبه استنكار، لكن بحماسة:
- ألا تعرفه حقا؟! إنه الشيخ حسن.. يا أخي في كل شيء يتعلق بالمصير وفي النيل.. كن معنا.
وبرقت عيناه بريقًا أخاذًا وهو يكرر مواصلا في ما يشبه الغضب:
- كن معنا.. كن معنا.
وأدرك آدم هدف الرجل الحقيقي من وراء جلسة السمر الأخوية هذه «في المصير وفي النيل»، وكاد يأخذه ذاك النوع من الغضب الذي

تستشعره الفريسة وهي مقبلة على فخ نصب لها، فهب من جلسته منتفضًا، وفي ذات اللحظة اقترب منهما شاب سأله دون مقدمات:

- فاضي يا أسطى؟

- بالطبع.. قد جئت يا منقذي في اللحظة المناسبة.

وأمسك الأسطى منقذه من يده وانفلت به مهرولا نحو السيارة وركباها معًا في صمت.. وفي لحظة انطلقت بهما ووصف له الشاب وجهته في كلمات قليلة، ثم التحف بالصمت الذي ران عليهما طويلا قبل أن ينحرفا بالسيارة عن الطريق الرئيسي صوب طريق غير معبد رملي وحجري تكتنفه الصخور داخل الجبل.. فقد كان الشاب يعمل مقاولا للبناء.. وهو قائم الآن ببناء بيت لشاب بدوي مقبل على الزواج من سكان الجبل.

وكانت تلك المعلومة الهامة هي كل ما أفلح صاحبنا في الفوز بها منه.. لأنه كان شابًا محبًا للهدوء.. قليل الكلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٤ -

توغلت السيارة كثيراً في تلك الطريق الجبلية الصعبة المليئة بالحصى والرمال قبل أن يطالبه الشاب بالتوقف عند سفح إحدى التباب العالية التي يعلوها بيت صغير من طابق واحد، وكان للتبة مدق يصعد إليها ويسمح عرضه وميله الصاعد بالتدريج بصعود السيارة.

وفهم آدم من إشارة ندت عن يد الشاب أن عليه الصعود لأعلى فارتقى وبعد أن بلغا حرم البيت أوقف السيارة بالقرب من مدخله، وفي كلمات أخرى فهم أن الشاب سيقضي بعض الوقت هنا في ترتيب بعض الأعمال التنظيمية والحسابية المتعلقة بتشطيب المنزل الذي أوشك على تسليمه لصاحبه من ناحية الإنارة والسباكة والبياض والتبليط وما شابه.. وأنه إن رغب في الانتظار حتى ينتهي فسيعود معه ويجزل له العطاء، فآثر آدم الانتظار لحاجته الماسة للأجر الجزيل لئلا يأوب بالسيارة فارغة، وفي هذا سوء تشغيل.

وراح يتأمل بنظرات طويلة المدى من عينيه سيارة نقل من الحجم المتوسط، من الصنف الذي يسمى «دوبل»، تحمل خزانًا للمياه قاصدة بيتًا آخر في آخر تلة من التلال المتناثرة هنا وهناك، وفاجأه الشاب بالقول:

- إنها أمه هملة.

obeikandi.com

نطق بها مبتسمًا بنوع من اللؤم الظريف ثم ما لبثت ابتسامته أن اتسعت حتى قهقه مما قرأه على سحنة صاحبنا من حيرة وعدم فهم، واستتلى:

- أجل إنها أمه، وهملة اسمها.. وهي أم الشاب صاحب البيت تقود عربة «وايت» مياه كما ترى.

تساءل صاحبنا مستثارًا:

- امرأة تقود «وايت» وهملة؟!

فأجابه وكأنه يلقي بأمر مفروغ منه:

- إن النساء يقدن السيارات على هواهن في البادية.. أهذه أول مرة تسمع عن هذا؟ يا أخي إنهن يقدن السيارات ببراعة كما ترى.. لأنهن هاويات ويردن إثبات وجودهن.. فوق أن طبيعة المرأة البدوية تختلف.. كما تعلم.

وانشغل آدم عنه وهو يتابع بعينين مأخوذتين منظر العربة الـ«وايت» التي يزعم هذا الشاب أن امرأة هي أم صاحب البيت الذي يبنيه تقودها.

كان يفصلهما عنها مسافة نحو كيلومتر واحد وهي ترتقي المدق الموصل إلى التل حيث البيت الثاني على مدى الشوف في المنطقة، بيت العائلة لا ريب، ثم راح يقطع وقت الانتظار بتأمل الموجودات الطبيعية القفراء التي لا تحوي من مظاهر الحياة ما يشجع أي إنسان على إفناء حياته فيها والإقامة الدائمة ببناء بيت، وتعجب متسائلا في نفسه:

- بالله ما يغري هؤلاء البدو بالحياة هنا؟!

ولا يدري لِمَ طافت بذهنه صور شتى لمظاهر الزحام من اكتظاظ الأرض بالسكان بالقرى والمدن المتناثرة في وادي النيل وعلى شطآنه والأرض الزراعية الخصبة حوله، التي على محدوديتها وعدم كفايتها لإنتاج

الغذاء، في سبيلها للتآكل والاختفاء من تمدد أبناء المحروسة عليها بالبناء وإصرارهم على العيش في الوادي والدلتا رغم الجهود الصارمة التي تبذلها الحكومة لمقاومة الزحف العمراني على الأرض الزراعية التي لن تُعوَّض، وعاد لمحادثة نفسه قائلا:

- ليأت المصريون هنا جميعًا عن بكرة أبيهم ليروا كيف يعيش البدو من أبناء هذا البلد حياتهم في هذا الخلاء الذي لا يحوي قطرة ماء.. رباه.. ماذا يغريهم على العيش هنا تلك العيشة الجافة القفراء؟!

وجالت في ذهنه صور أخرى جادة وهامة عن أكذوبة أن دلتا النيل بلا ظهير صحراوي تمتد إليه الحياة وتتسع وتتنفس.. وأسرع يناقش هذا الأمر مع رفيق المكان، قال:

- إن الظهير الصحراوي موجود ويمتد بطول الساحل الشمالي للصحراء الغربية لمسافة تزيد على ٥٠٠ كيلومتر غرب مدينة الإسكندرية وحتى الحدود مع ليبيا، تتخلله بقع شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة التي يمكن ريها بالاعتماد على مياه الأمطار أو الآبار.. أو حتى بتحلية مياه البحر.. أتسمعني؟!

كان الشاب منشغلا بقياس بعض المسافات في ممر داخل البيت يفضي إلى دورات المياه مما يضطره إلى الابتعاد أو الاقتراب من آدم وفق ما يقتضيه الحال، فأسرع يجيبه وهو يواصل عمله:

- طبعًا.. أكمل حديثك.. إن موضوع العمران وتكدس السكان يجذبني دائمًا.

استراح آدم لما سمعه منه واسترسل كأن الحديث لم ينقطع وهو ينظر بعيدًا:

- أحلم بمد فرع للنيل هناك وإحياء مشروع أشبه بما سمي «مشروع منخفض القطارة».. ذلك المنخفض الذي لو تحقق حلمي.. وتم ملؤه

obeikandi.com

بالمياه العذبة المتجددة التي تضيع هباء في البحر.. بدلا من فكرة غمره بمياه البحر لمجابهة ظاهرة «النينو» خدمة لجميع دول حوض البحر المتوسط.. لتغير وجه الحياة في هذا الجزء الغالي من أرض مصر.. بل لتغيرت نوعية الحياة في مصر كلها.

- بل لتغيرت الطبيعة والمناخ ونهضت الزراعة والتجارة.. أنا معك يا صاحبي.

- هناك فضلا عن الأراضي الزراعية وبعيدًا عنها.. احتمالات الثروة البترولية ولكن.. لم يجرؤ أحد على الإقدام على اقتحام المكان وصنع الحياة.. غير البدو من القبائل العربية التي تختلط نسبًا بمثيلاتها من القبائل الليبية والتي نسبة تعداد سكانها لا تكاد تذكر، إذا قيست بالعدد الكلي لسكان مصر.. لأن هناك عائقًا خطرًا ورهيبًا.

- تقصد حقول الألغام التي خلفتها الحرب العالمية الثانية؟

- إياها أقصد.. نعم تلك التي لا تسمح بنمو السكان وافتراش كامل الأرض المصرية باقتطاع قطعة كبيرة من اللحم المصري المتكدس في الدلتا والوادي.. وهذه حجة باطلة لهؤلاء الذين يستميتون بالبقاء في الأرض القديمة التي ضاقت إلى حد ينذر بالانفجار فهو قريب وعلى الأبواب.

- أجل ماذا يمنع من أن تقاضي الحكومة المصرية جميع حكومات الدول التي كانت تحارب على أرضها لإزالة هذه الألغام وعدم المماطلة في تنفيذ طلبها ومشاريع الأمم المتحدة.. وفي ما هو أكبر من ذلك.. تعويض الشعب المصري عما فقد من أبنائه وعن سنوات الحرمان من ثروات تلك الأرض حقبة طويلة بما يسمح بتعمير هذه الأرض ويفيض؟ ماذا يمنع من التنفس؟ أليس في هذا مصلحة لمصر كلها؟ أيوجد في مصر من أبنائها من لا يريد لها أن تثرى وتتمتع بالحياة على كامل أرضها وأن تعلو وتعلو بهامتها مع هامات الدول الغنية الكبيرة كافة؟!

obeikandl.com

- الجيش مشكورًا قام بتطهير مساحة.. وهناك فكرة زراعة نوع من النبات أحمر السوق والأوراق تضرب جذوره الماصة في الأرض وترشف المادة الفعالة التي تتفجر في اللغم.. ألم تسمع عن الفتاتين المصريتين اللتين فاز بحثهما في مسابقة دولية بالأمم المتحدة عن ذلك النبات؟ أتعرف؟ مرة ناقشني أحد السياح بالأقصر في ذلك.

هتف آدم معجبًا ومستثارًا بأن يصل الحديث إلى هذا المستوى:

- صحيح؟

- طبعًا.. كان يظن أنه يعايرني بأن عظمة بلدي مجرد تاريخ.. أما الحقيقة فهي مجرد شريط أخضر طويل ورفيع جدًا حول مجر النهر تحوطه الصحاري والهضاب على الجانبين.. ودلتا خضراء صغيرة كواحة كبيرة أو استراحة على البحر.

- استراحة؟

- نعم هذه هي الكلمة التي استعملها.. يقصد استراحة للشعب المصري كله من قيظ الصحراء التي تأخذ بخناقه أينما اتجه.. لكني عرفت كيف أفحمه بحقب الاحتلال التي أرجعت مصر للوراء لا مائة سنة بل مئات السنين.. لا سيما حقبة الاحتلال الإنجليزي التي يجب أن يعوضنا الشعب الإنجليزي عنها عمومًا وعن الأراضي الشاسعة التي أغلقها بالألغام أو لإقامة جنوده أو التدريب وإجراء المناورات أو اتخاذها ميدانًا لحروبه مع الدول الأخرى خصوصًا.

- طبعًا طبعًا.. ولا تنسَ أن تعوضنا حكومات الدول الأخرى التي كانت تتحارب معها.

- ونحن؟

- ماذا تعني؟

- أتعرف؟ يوجد بيننا من يصر على أن تبقى مصر الشعب مخنوقة في

تلك المساحة الصغيرة من أرضها التي لا تزيد على ٤٪ من مساحتها.
وانفعل آدم بغضب مفاجئ وزمجر:
- آه لو أعرفه حتى «أقطم زمارة رقبته».. أو أقطع أحباله الصوتية من «اللغاليغ».
- «اللغاليغ»؟! لماذا أنت غاضب هكذا؟ أمَّا والله.
واصل آدم دون أن يأبه له:
- أنت لا تعرف أن كثيراً من الأموال تهدر على صيانة شبكات البنية التحتية من مياه شرب وصرف صحي وكهرباء واتصالات وخلافه.. تهدر لأن الأرض لم تعد تتحمل ثقل الكتلة السكانية وكذلك ثقل بنية الخدمات التي أقيمت عليها.. ومصاريف الصيانة هذه لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد من فرط الحمل الثقيل الذي يفجر كل شيء في كل مكان.. وكأننا.. أتعرف؟ نستطيع بالمجهود الذاتي وضع وتنفيذ خطة لإزالة جميع الألغام.. بل وأكثر من ذلك تعمير الأرض.
- كيف؟
سأل الشاب فأجابه بحرارة وثقة زائدتين:
- بالمليارات الضائعة.. دونما حاجة لمعاونة من أحد.. أتعرف؟ رأيت في بعض الندوات التي تبثها قنوات التلفاز الفضائية قادة الفكر والإعلام يتحدثون عن ذلك.. بل إنني سمعت عن واحد من أعضاء مجلس الشعب يلقي سؤالا خطيراً هو: أين ذهبت أموال الخصخصة؟!
- تقصد حصيلة بيع المصانع والمشروعات الإنتاجية والأراضي التي كانت تديرها الحكومة لمستثمرين مصريين أو أجانب تخفيفًا عن كاهلها أعباء الإدارة، خصوصًا أن معظم هذه كانت تحقق خسائر ولم تكن تقوى إلا على سداد فوائد الديون للبنوك.. أين ذهبت هذه الأموال حقًا؟
- ذهبت في مشروعات حيوية كما تقول الحكومة.. ليكن.. ولكن هل

obeikandl.com

هناك مشروع أكثر حيوية من مشروع منخفض القطارة ووادي النطرون لتعمير الساحل الشمالي.. وأمثاله من المشاريع كثير مثل الوادي الجديد الجاهز، وممر التنمية المقترح، مشرع المستقبل لسكان مصر.. بمحور خدمات طولي للامتداد شمالا غربًا حتى السلوم وجنوبًا غربًا حتى جبل العوينات وأربعة عشر محورًا عرضيًا تربط جميع المحافظات من الشرق إلى الغرب حيث الحدود.. وكشف هذا النهر القديم الذي كان في الأصل المجرى القديم لنهر النيل في الصحراء الغربية، والذي لا يزال موجودًا تحت الرمال ويتجدد؟ ثم هناك أولا وقبل كل شيء في سيناء ساحلها الشمالي الخصب وجنوبها الغني بالمعادن.. وهناك أرض مساحتها تزيد على المساحة المزروعة الحالية بواد آخر هو وادي قنا شرق النيل.. قد كان تجميع حصيلة بيع القطاع العام فرصة.. فرصة حقيقية نادرة لم ولن تتكرر.. فلماذا ضاعت؟

- أجل.. لماذا لم يتم استغلال هذه الأموال في حل مشكلة الانفجار السكاني الوشيك؟! لماذا لم نعد رسم الخريطة السكانية بالعرض كما هي بالطول بعد أن «تخوّخ» هذا الطول وأصبح على «هيافة» هيكله العظمي مهددًا بفقد عظامه والانهيار تحت ثقل الكتلة اللحمية.

- وتحت زحف مياه البحر الذي ترتفع مياهه لارتفاع آخر في درجة الحرارة مما يؤدي إلى انهيار جبال الثلوج في القطب الشمالي وارتفاع مستوى المياه في المحيطات والبحار.

- تقصد ما يعرف بظاهرة «النينو» المناخية؟ يقال إن جزرًا ومدنًا وأراضي كثيرة ستغرق ومنها دلتا نهر النيل.. فماذا ننتظر؟ الغرق؟ ما المانع؟ لم يبقَ أمامي إلا الشك لا سمح الله في سلاح الحدود.

- كيف؟

- إنه لا يفرط في شبر واحد من أراضي الحدود المصرية.

- هذا واجبه ويشكر عليه، ولو أنه لا شكر على واجب.
- المشكلة هي أين هذه الحدود؟ أهي على حدود الدلتا التي تتاخمنا أم أنها كل أرض مصرية صحراوية خالية من السكان؟ ولنكف عن هذا التفكير الذي يبعث الأحزان ويستدعي الجنون.
- حسنًا إنه من قبيل قتل الوقت حتى أنتهي من عملي وأطلب منك العودة من حيث أتينا.. ثم إنه أعلن أن الحكومة النظيفة قامت بتأسيس هيئة لتطهير الساحل الشمالي من الألغام خلال ست سنوات.
- هذا غير كافٍ.. يجب أن يكون ذلك في إطار مخطط عام طويل المدى يحقق تعمير كامل الأرض بالطول والعرض.. وأن تأخذ الدراسات والأبحاث وقتها، ولا تكون مجرد طموح وطني.. أرى أنك قد انتهيت.. هيا بنا.. كفانا إملالا.
وقد كان، وعاد آدم ومقاول البناء الهمام الذي أوفى بوعده ونقده أجرًا مجزيًا، «يومية» يوم كامل من حيث أتيا مع غروب الشمس.
كان النهار قد ولى فعلا وأرخى الليل سدوله فاشترى ببعض ما كسب فاكهة وحلوى وشطائر محشوة باللحم المفروم يقوم بصنعها شاب باكستاني يقف على جانب من ساحة المحطة أمام فرن يمتد من أحد محال بيع السندويتشات السريعة.. مع ملاحظة أننا نأسف كثيراً لاستعمال الكلمة غير العربية لأن البديل اللغوي عنها جملة طويلة تقول: «شاطر ومشطور وبينهما طازج»، على حد وصف مجمع اللغة العربية أو الخالدين.. بينما يطلق عليها الفطاطري الباكستاني اسم «مطبق»، وبديلها عندي كلمة «ملفوف».

***

كانت السماء صافية والغسق الأرجواني عقب مغيب الشمس مباشرة ينشر ألوان القرمز والذهب على وجه السماء التي كانت تشتد احمرارًا كلما أمست على شفا الاقتراب من الأرض، وتقل درجة هذا الاحمرار كلما ارتفعنا حتى إذا ما بلغنا منطقة عنان «الخدود» بهتت تلك الدرجة وساد ما يعرف باللون «البمبي» الذي يتصارع فيه الأحمر مع الأبيض مصارعة يابانية أو رومانية حرة.. لست أدري.. لم أكن معهما.. وتكون الغلبة في النهاية للأبيض جامع كل الألوان الذي يتسيد الجو فترة وجيزة ما يلبث أن يزرقَّ بعدها جبين السماء العريض الشاهق.. وما هي إلا لحظات قصار حتى تصير الألوان كلها رمادية قبل أن تنسدل خصلات شعر الليل الأسود على هذا الجبين.

ويتأمل آدم ذلك كله ويحدث نفسه بأن القمر لم يخرج من مكمنه بعد لملاقاة السماء ولهذا لم يطالعه وجهه.. لكن ما حاجته إلى مطالعة وجه القمر ولديه في زوجته دنيا قمر خصوصي.. حقا إنها لم تكن مصادفة أن يكون اسم ابنته الكبرى شمس والصغرى قمر.. وأن يكون الهلال اسم ولده الأصغر.. حقًا إنه سعيد أيما سعادة لأن فيهم جميعًا، وبخاصة دنيا، ما يعوضه عن رغبته الدفينة (التي لم يفهم لها سببا) «للتملي» من وجه القمر هذا المساء.

بل لم يفهم تفسيراً لحالته النفسية عمومًا التي صارت خيالية أكثر مما يجب، تتكاثر الأفكار الغريبة في ذهنه على حين غرة تكاثر الخلايا في النباتات والحيوانات الأولية، هو الذي كثيراً ما تفاخر آله بثبات ورجاحة عقله، ماذا يقولون الآن وقد ذهب به مذاهب شتى؟ ليأتوا الآن ولينظروا كيف أمسى به الحال وكأن على رأسه طوق «خلخال».. السماء على شفا الاقتراب من الأرض تصبغ شفاهها بالأحمر ولها خدود «بمبية» اللون كالتفاح الإسرائيلي.. وجبهتها العريضة الشاهقة بيضاء تنتظر ثمة صعود

القمر.. وفي البيت.. آه ما أشد حاجته لأحضان ربة البيت وأسرته عمومًا. وما لبث البيت أن جاء، وأوقف سيارته وقفتها الليلية المعتادة.. ولا يدري لمَ شعر بحركة غريبة داخل البيت لحظة أدار المفتاح في قفل الباب الخارجي ودلف داخلا وأجال النظر في كل مكان عساه يلمح ما وراء تلك الحركة التي ربما لا يكون لها وجود إلا في وهمه وخياله الواسع وغرابة أطواره تلك الأيام.. وفي الحال جاءته الإجابة ساخرة على لسان ابنته شمس وهي تسر إليه في همس قائلة:

- خد بالك السيدة نورا معلمة الرياضيات المصرية في المدرسة والمتزوجة بفلسطيني مع ماما في المجلس.

وكان هذا نذيرًا له كي ينظر أمامه في دماثة وأدب ويتوجه مباشرة إلى غرفته فينتظر بها ريثما تفارقهم الضيفة العزيزة معلمة البنات، فوضع يده على فمه علامة على الفهم وحسن تقدير الموقف، وأحنى رأسه داخلا وأذناه تتدليان بطريقة فيها من الخفة أكثر مما فيها من الخنوع، مما أضحك ابنته الصغرى قمر، التي كان لوجهها استدارة البدر في تمامه ليلة الرابع عشر.

وعلى باب غرفته استقبله ابنه الصغير هلال وقد فرد ذراعيه الصغيرتين في بحبوحة طفولته فرحًا بعودته للبيت وبما يحمله من الأطايب.. وتوفرت شمس بحمل قراطيسها عنه وقصدت دولاب المطبخ.. وإبان ذلك تحذر شقيقها الصغير بأن يهدأ ويتأدب بحركة حازمة من إصبع السبابة على فيها مراعاة لوجود الضيفة، فامتثل الصغير لها لأن حاجته إلى أحضان والده كانت (كما توقع هذا الوالد واستشعر) أحلى وأكبر.. وظل ساكنًا في تلك الأحضان إلى أن سمع دبيب أقدام وحفيف أثواب نسائية في الردهة وصوت الباب الخارجي يفتح مع جلبة تعالت فجأة مع أصوات السلامات والتحيات التي أتحفت بها الأم وابنتاها ضيفتهن العزيزة إلى

أن بارحت وأغلقت دنيا الباب وسمعها تقول له:
- هي متزوجة بفلسطيني يعمل حداد أبواب وشبابيك اسمه أنور.
وداعبها قائلا:
- يا سلام هي نورا وهو أنور.
وألح في رأسه سؤال فاسترسل:
- ماذا جمع بين فتاة متعلمة مثلها وشاب من عرب فلسطين داخل إسرائيل يعمل حدادًا؟
- إذًا فهذا وجه السؤال.. إنه ليس من عرب الضفة أو غزة.. ومجال عمله بعيد جدًا عن مجال عملها.. يبدو أن وراء ذلك قصة حب.. ألا تعرف أن الحب بين الزوجين يصنع المعجزات؟
قالتها بتخابث ودلال يشي بحقيقة مشاعرها نحوه.. وكانت تنتظر أن يبادلها شعورها الصادق، وكان على أتم الاستعداد، غير أنه مع ذلك ودون إرادة منه ألح عليه سؤال آخر:
- وما شأن عرب فلسطين المساكين أن كان اليهود قد تعرضوا في ما يعرف بـ«الهولوكوست» للإبادة الجماعية في ألمانيا وأوروبا.. أفلسطين مقاطعة ألمانية؟!
واستولى عليه السؤال وحلق به بعيدًا وتنهد تنهيدة عميقة من ثقل الأفكار التي تكاثرت عليه و«جبرته» من صعوبة اختيار إجابة مناسبة ترضيه مما أقلق دنيا فدنت منه حتى كادت تلامس صدره بوجهها، وسألت:
- ما بالك يا زوجي العزيز هذه الأيام.. كلما اقتربت منك تباعدت عني.. فيمَ تفكر؟
كرر:
- أفلسطين مقاطعة ألمانية؟!

- لم هذا السؤال الآن؟

قال في غياب ذهن:

- الشيء بالشيء يذكر.. أتعرفين أن اليهود وضعوا في قبضتهم خزائن المال والتجارة في أوروبا على مر العصور، بل وفي آسيا وأفريقيا والأمريكتين وأستراليا.. وأصبحوا سادة العالم فثار عليهم دعاة الجنس الآري في أوروبا وأعملوا فيهم الذبح والتقتيل.. وسال الدم اليهودي السامي حتى صبغ مياه نهر الراين.. فما ذنب نهر الأردن والنيل والفرات؟!

- رباه فيم يفكر؟

- أهو الحلم اليهودي.. يعوضهم العالم الذي ألقى بهم أحياء في الأفران بتحقيق حلمهم ليتخلص من عقدة الشعور بالذنب التي يشعر بها حيالهم؟ وما ذنب من لم يرفع في وجوههم السامية إصبعه أن تسيل دماؤه وهو سامي مثلهم؟!

- آدم..

- وأن تقتلع أشجار زيتونه وتشعل النار في مساجده وكنائسه.. وفي كل ما يمثل وجوده.. أمن أجل ما يزعمون من إحياء وجود أجداد وآباء كانوا هنا في القرون الغابرة؟ أكان هؤلاء يعيشون وحدهم أم كانوا يتعايشون مع قوم آخرين هم أصل تلك البلاد؟

- آدم..

- لماذا يريدونها يهودية صافية، ولم تكن كذلك في العهد القديم، إن اعترفنا بهم وتركناهم يعيشون معنا وحلمنا معًا؟

- آدم.. أمًّا والله.

- إن لكل شعب حلمه، ومن حق البشر جميعًا أن يحلموا.. الأمريكي في امتلاك العالم.. الروسي يحلم بأن يعوض ما فقده من تبدد الحلم الشيوعي.. الصيني حطم السياج العظيم وتكاثر حتى غزا العالم..

obeikandl.com

ويحلم أن يكون قطبًا.. حتى الشعوب الأصغر لها أحلامها المجيدة.. من الياباني إلى الكوري إلى الفيتنامي.. تركيا وحلمها الكبير في دخول البيت الأوروبي.. وللأكراد أيضًا حلمهم الخاص.. فهم لغة وثقافة وقومية، وهم صلاح الدين الأيوبي.. الناصر.. وهناك الحلم العربي الذي أضحى كابوسًا، لكن سيأتي بإذن الله يوم ينقشع فيه الكابوس ويردد العرب: أتانا الربيع الطلق يختال ضاحكًا.

- آدم.. ماذا بك؟

- ثم من يعوض قرودًا في غابات أفريقيا الاستوائية يلقي آكلوها بها أحياء في أفران موقدة.. ثم يخرجونها على الهيئة التي احترقوا بها وفي أعينها وأذرعها وفرجات أفواهها أبشع رسوم الذعر والهول ويتخطفون لحمها واللعاب يسيل من أشداقهم.. من ينادي بشرعية حلم القرود أن ينزل الله الرحمة في قلب هذا الإنسان.. فيكف عن إلقائهم أحياء في نيران الأفران؟! آه.. لشد ما تتكاثر الصور في مخيلتي هذه الأيام.. ولكن وجب علي أن أفكر حتى أشعر بوجودي الذي يتعرض للفناء بعد فقدي أعمالي التي خبرتها وأكلت منها الشهد والعسل ويتهددني الآن المر والعلقم.. إن من حق الإنسان أن يحلم وكذلك الحيوان، ممثلا في القرود، ومن حق الجميع أن تمتد إليه يد المعونة سواء كانوا أصدقاء أو غير أصدقاء أو ممن تضطهدهم عقدة الشعور بالذنب.

- رباه إنه سادر في غيه.. لا يكف عن هذا التفكير.. غرابة أطواره لا يحتملها هو نفسه هذه الأيام، لم يبق له إلا أن يفكر بعد فلسطين بالبوسنة والهرسك - كوسوفا - جنوب الفلبين - الشيشان و.. العراق.. وما أدراك ما العراق.. كيف تسنى لك أن تنساه وأنت الرجل الذي كثيرًا ما تفاخرنا برجاحة عقله وحضوره الذهني؟! رباه.. هل أمرت بتعيينه سبحانك مسئولا عن آلام ومآسي البشر؟ وإلا حكاية القرود

التي يحرقونها حية هذه.. ما هذه الروح الرقيقة الوثابة التي تدب في أوصاله؟! ما هذه الحساسية التي لم يعهدها أحد فيه مفرطة ولا هو نفسه؟! أيكون قد أصيب بخلل في عقله أو مرض في نفسه من جراء فقد أعماله؟ في صدره قلب لم يعد يقوى على احتمال مشاهد العذاب.. نعم قد يقر بقبول عذاب المرض، فالكائنات الدقيقة المسببة له كالبكتريا والفيروسات والفطريات والطفيليات والحيوانات الأولية كلها مخلوقات غير عاقلة.. أما الإنسان فليس له من عذر وقد نفخ الله فيه من روحه تكريمًا له.. وأعطاه.. على أبسط تقدير.. عقلا.

- ماما.. بابا.

- ماذا؟ ماذا؟

- أبغي إصبع موز.

- نعم يا هلال يا حبيبي إصبع موز في فمك خير من آلاف الأفكار النيرة في عقل أبيك.

- زوجي.. زوجي الحبيب.

- نعم يا دنيا يا عزيزتي.

- نعم ويتصبب العرق من جبينك.. الدموع تترقرق في عينيك؟ رباه.. ماذا بك؟ أفصح.. أفصح.

- بقلبي وصدري حزن ثقيل الوزن.. وقر ثقيلا لا أقوى على حمله.. يا إلهي كأن مصيبة توشك أن تحدث وما أنا فيه ما هو إلا مقدماتها.

- بابا.

- اهدأي يا شمس بابا بخير.

- بابا.

- وأنت يا قمر اهدئي.. اهدأوا جميعًا بالله عليكم.. دعوني أفكر في صمت هنيهة.. بابا بخير.

- لقد قمت بعمل رائع اليوم ورزقني الله الرزق الحلال.. ولذلك أنا سعيد أتذكر تعساء هناك في الظلمة.. وأخاف أن نتعرض نحن لنوع أشد من التعاسة في الظلمة.. ولذلك أنا أفكر.. دعوني أفكر.. أتعرفون؟ والله هذا الحكيم كان على حق في قوله يا أولاد.. أجل.. أفكر.. في الظملة وحدي.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٥ -

نورا امرأة مسقط رأسها في ريف مصر حقًا.. لكنه ليس ريفًا عاديًا يجري فيه النهر العظيم أو فرع محترم من فروعه أو أحد فريعاته المتواضعة كما هو الحال في مختلف جنبات هذا الريف العامر بالماء والخضرة والوجه الحسن، كما يقولون.. وإنما يقع في أبعد نقطة شمال شرقي سيناء حيث تزهو بساتين التين والزيتون وتتكاثر قطع صغيرة من الحقول التي تم استزراعها حديثًا وتعتمد في ريها أساسًا على مياه الآبار واحتياطيًا على ماء المطر الذي يهطل بغزارة شتاء على الحدود بمدينة رفح وتوأمتها المدينة الفلسطينية التي تحمل ذات الاسم، وفي ربوع وحضر قطاع غزة عمومًا، وما يقابله من ريف وحضر مدينة العريش.

وإذا كانت المياه العذبة والخضرة محدودتي القدر هنا، فإن الوجه الحسن موجود بلا حدود.

ولهذا ما كادت عينا أنور وهو في زيارة أحد أقاربه يقطن مدينة رفح الفلسطينية تقع على نورا، الحسناء المصرية، حتى هام بها حبًا من أول نظرة، عبر بها الحدود من خلال السياج الشائك الذي يسمح بعبور النظر فقط في بعض المواضع ولا يسمح بعبوره ولا بعبور أي شيء آخر في مواضع أخرى حديدية أو إسمنتية.

وشاء حظه الحسن أن تنتبه الفتاة، التي تخرجت لتوها في الجامعة، إليه وتبادله نظراته التي طالت بطريقة تشي لها بخبيئة نفسه وقد ارتسم

على محياها الفتي الجميل علامات استفهام كبيرة عن المصير، وماذا بعد أن تكررت زياراته في أوقات متقاربة لبيت قريبه الذي يتعامد موقعه على بعد أمتار قليلة من السياج في مواجهة بيتها، وهو آخر بيت فلسطيني تقريبًا بالنسبة لموقعه من السور أيضًا.. حتى خال قريبه أنه على وشك الإقامة الدائمة لديه.. وكان يعرف سره ولذلك ضحك في «عبه» بمكر ولم يعترض.

ثم إن النظرات الصامتة ما لبثت أن تطورت إلى تبادل الأحاديث البريئة، بعد أن طير كل منهما للآخر رقم هاتفه المحمول في وريقة عبر السور، همسًا وخطفًا وعلى استحياء في مبدأ الأمر، ثم دون مواربة لما طلبت إليه أن يخاطب والدها وهاتفه.. بعد أن فاتحها برغبته في الزواج بها.. ولم تمضِ أيام حتى أعلن بأن ذلك يجب أن يتم بأسرع ما يمكن لأنه وجد عقد عمل بالسعودية.. ولما وافقت وأهلها أتى بقريبه وأتت بأبيها وسمح لهم حراس البوابة على الجانبين بكل تعاطف وإعجاب باللقاء وتبادل حديث جاد أثمر اتفاقًا مبدئيًا على عقد القران توج بقراءة «الفاتحة» والأيدي تتصافح عبر البوابة على مرأى ومسمع من باقي أفراد العائلتين والجنود في أغرب اتفاق زواج شهدته حدود أراضي الدول.

وهكذا استخرجت التصاريح وتم اللقاء وعقد القران في منزل العروس.

وفي اليوم التالي كان الاثنان يجلسان جنبًا إلى جنب في إحدى حافلات النقل الجماعي بعد أن عبرا كل الاستحكامات والحواجز الموضوعة التي تصد بقسوة وتباعد ما بين أبناء العرب من لحمة القربى وعروة الأخوة الوثقى.

وما هي إلا مشقة يومين أو ثلاثة حتى حطا الرحال في تلك القرية ووجدا البيت الذي أعده لهما على استعجال شقيق له يعمل حداد أبواب وشبابيك أيضًا، الذي كان قد سبقه إلى العمل هنا منذ سنوات وأراد أن

obeikandl.com

يقدم لأخيه الشقيق خدمة عمره منتشلا إياه مما يعانيه الشباب العرب داخل الأرض المحتلة من ضيق الحال والعمل، على الرغم من الشهادات التي يحملونها، متوسطة كانت أو عالية.

ولا يرجع هذا لأننا نعيش عصر تدني الشهادات التي لم تعد تؤهل لعمل في الوطن الجريح كما في الأوطان العربية كافة، على اتساعها من المحيط للخليج.. فهذا وإن كان واقع الحال، غير أن الأمور لا تجري هنا حسب ما يروم ويتمسك الآباء الذين يعتبرون علو درجة الشهادة حقًا مطلقًا لهم على أبنائهم الذين يفضلون الاكتفاء بالتعليم المتوسط الذي يؤهلهم للانطلاق ومغازلة الحياة مبكرًا ربما من كثرة ما تراكم من أسباب الخوف العام وما تكاثر في أسواق العمل من زحام.

ثم ما هي إلا بضعة أسابيع مرت عليهما في وطنهما الجديد إلا وتعاقدت نورا حاملة درجة البكالوريوس في تدريس مادة الرياضيات من جامعة الزقازيق، حيث لم تكن جامعة العريش قد أنشئت بعد، وحيث كانت جامعة قناة السويس الوليدة هي الأقرب لها، لكنها لم تكن قد استكملت بعد بعض الأقسام العلمية في كلياتها.

تعاقدت إذاً ابنة رفح المصرية لتعمل في المجمع التعليمي الابتدائي والمتوسط والثانوي للبنات في القرية، وانقضت على هذه الأحداث الهامة عدة سنوات قبل أن تدق الأسرة الصغيرة أوتادها المتينة في الحياة، وقبل أن يرزقهما الله بابن أسمياه عمر وابنة أسمياها سحر، اللذين تركتهما في رعاية جارة لها في البيت المجاور ريثما تفرغ من زيارة آل آدم، التي كانت تقوم بها بين وقت وآخر للتجمل في مقابل إعطاء شمس وقمر بعض الإرشادات والإيضاحات لفهم بعض المسائل والتمارين لمادة الرياضيات إبان مذاكرتهما المنزلية وقت الزيارة وعن غير ترتيب.

- وإذاً.. إذاً في مهنة التجميل، كما في كل المهن يا آدم.. ليس بالمال وحده

يتم الحساب، وإنما بمقايضة المصالح أيضًا.

بهذا المعنى ردت دنيا على سؤال لبعلها الذي كان يتلهف لسماع إجابة تؤكد له أنها ما زالت تمارس عملها الذي كانت تهواه مجرد هواية ثم انقلب احترافًا يدر الكثير من الدخل مع الموالاة والتمرس لخلو الشارع السعودي من هذا النوع الخاص جدًا من الأعمال وحاجته إليه.

- النساء مهما كن مدبرات فإنهن مغلولات الأيدي لا يقدرن على التدبير والتغيير في ما يخص جمالهن.. وهذه يا دنيا حقيقة يدركها من لهم الريادة في هذا المضمار من صناع الجمال - البريء طبعًا - في شوارع دول العالم كافة، فهم لا يكتفون بإنشاء معاهد ومزارات عامة للتجميل، بل وصل الأمر إلى حد إقامة مسابقة عالمية لجميلة جميلات الكون، على حد وصفهم.

- أصبح للجمال عرش تجلس عليه المرأة.

- وإذ فازت به إحدى المتسابقات من لبنان في الثلث الأخير من القرن الماضي.. سرت الغيرة بين الرجال قبل النساء في بعض العواصم العربية.

- لما تدره من شهرة ومال وفير تلك الصناعة للمرأة الجميلة.. التي لن تربح مهما علت وارتفعت فنونها وأسرارها إن لم تكن المرأة المعنية بها جميلة بالإبداع الإلهي.

- «ماذا تفعل الماشطة في الوجه العكر».. ماذا؟!

وتضاحكت دنيا وقرقرت من قلبها لا على التعبير الشعبي المصري البسيط.. ولكن على الطريقة التي يصور بها آدم المعنى، مما دفعه للتمادي في الأمر ليزيد سعادتها مضيفًا:

- مع أنه متداول ومتعمق وحي يتم تطبيقه كثيرًا على مجالات أخرى غير مجال تجميل المرأة في حال فشل الصانع في أن يصنع من البوصة عروسة.. كما يقولون.. مهما ألبسوها.

وسكت هنيهة ليتيح لها جذب المزيد من الهواء إلى صدرها بما يلزم لاستمرارها في الضحك لدرجة القرقرة، ثم استرسل مفتعلا الجدية التامة كأنه لا يقول شيئًا:

- وإن كان البعض ينجح، ولا أدرى كيف، في أن «يصنع من الفسيخ شربات».

وانتظر وقتًا حتى تمكنت دنيا من السيطرة على نفسها وقالت:

- هذه حقيقة كنت أعرفها يا آدم جيدًا وأحذرها.. أنت تعلم بأنني لم أكن أستجيب إلا لدعوات النسوة اللاتي يساعدهن جمالهن الطبيعي في إبراز هذا الجمال بأبهى صورة بعد تنقيته من الندوب والشوائب والعوالق.. أما الآن..

- الآن ما أشد حسرتي على فقدانك وفقداني أهم روافد الدخل الذي كان يتيح لنا التوفير الكثير.

ومع ذلك من المؤكد أنهما قد اتفقا على ألا تعود لممارسة العمل داخل بيوت الأخريات أبدًا.. فمن أرادها فليأت إليها وهي كريمة معززة في بيتها.. كما تفعل المعلمة نورا.. ومن الممكن أن تخصص إحدى غرف البيت الزائدة على حاجة استعمال الأسرة وأن تؤثثها بالأثاث المناسب لراحة طالبات فنها بما يمكنها من أدائه خير الأداء.. فإذا نجح القرار المصيري الذي اتخذاه معًا ولم يلقَ معارضة من الجيران بالقرية الصغيرة على دخول وخروج النساء الغريبات صباحًا ومساء هذا المنزل وكأنه أحد الفصول الليلية لمحو الأمية.

- وإنها لأمية حقًا، وسنعاود استعمال هذا التعبير.

هكذا نطقت بها دنيا وهي مزهوة بفنها الجميل.. فن محو الأمية في قراءة وكتابة الجمال.

- والله فكرة جهنمية.

التمعت عينا آدم وهو يناقش مع دنيا فكرة إقامة فصل لمحو أمية بعض النسوة فعلا في تلك القاعة الكبيرة التي لم يتسنَ لهم شغلها بأثاث يكفي لجعلها قاعة مجلس في البيت؛ لكبر حجمها الذي يفوق إمكانيات أسرة مقيمة، فتركوها خالية، واستعاضوا عنها بغرفة أصغر مجاورة لها.

إنهم يمكنهم تخصيصها وتأثيثها لهذا الغرض، غرض محو الأمية الظاهر أمام الناس الذي يخفي حقيقة محو الأمية المنشودة لجمال الوجه والرأس.

- وماذا في ذلك؟ كله تجميل.. ولن يكون من حق أحد أن يعترض إن عرف الحقيقة، لأنه سيعرف كيف يأخذ تصريحًا بفتح ذلك الفصل من المسئولين عن التعليم عن طريق توسيط قريناتهم.

تخيل آدم الأمر على هذا النحو وهو يتجاذب مع دنيا أهداب الحديث على الفراش كما هي عادتهما كل ليلة قبل النوم لترتيب جدول أعمال اليوم التالي.. وكان صوته قد ارتفع حتى سمعه باقي أعضاء الأسرة في الغرفة المجاورة يدمدم:

- إن سارت الأمور على المرام من تلك الناحية كان بها.. وإلا كان لزامًا أن نعد العدة للرحيل، فما جئنا هنا من أجل أن نأكل ونشرب وفقط.

وكان في قوله مدعاة للقلق، فتبادلوا مع بعضهم نظرات حيرى متسائلة.. بتلك الحجرة المجاورة.. وعبثا حاولت دنيا أن تهدئ خواطره بابتسامة مغتصبة أو بهدهدة الكتفين في دلال مصطنع وهي تتساءل في نفسها:

- يا ترى ماذا يخبئ لنا الغد؟

فإن الإجابة العادية الجاهزة عن أن الإنسان «إذا ما أتيح له الاطلاع على غده لاختار واقع يومه»، كانت تتلاعب بفكرها وتجول وتصول بكرة المضرب في مخيلة زوجها الذي أمسى لاعبًا محترفًا على حين غرة.

***

كان العم سعيد مغني، الشيخ السعودي وكفيل صاحبنا آدم، رجلا طاعنًا في السن، وكان يعاني، كما سبق وأوضحنا، ألمًا في المفاصل يتطلب زيارة طبية في المدينة بين وقت وآخر، وهذا كان أهم الواجبات التي كان يؤديها في مقابل كفالته.

أمر آخر كان يجب أن نعرفه منذ وقت.. أن آدم لما تزايدت أعماله وأعمال زوجته استأجر بيتًا خاصًا بالقرب من منزل كفيله الذي عرضه عليه وأقام به مع أسرته فعلا بضعة أشهر، وكان حرصه على أن يكون على مقربة من كفيله العجوز فيه نوع من الولاء والشهامة حتى يرعى شئونه الصحية ومطالبه البسيطة الأخرى ليعوضه عن أبنائه الذين يبدو أنهم اطمأنوا تمامًا إليه فقلَّت زياراتهم كثيرًا عن ذي قبل.

ولكن ها هي ظروف الرزق الذي يبعثه الله لأبنائه وله ولزوجته من خلالها وخلاله تضيق وتتعرض لمشاكل مصيرية.

يكون (وهم) في السعودية أو لا يكون.

إن عليه أن ينتبه، أو على حد تعبير شاب سعودي ميمون رفع عقيرته بالصياح بمرح مخاطبًا إياه ولافتًا نظر جميع العمال المكفولين الذين يراهم في الشارع الذي يقطنه وكذلك الذين لا يراهم في جميع الشوارع الأخرى:

- انتبه.. أنت في السعودية.

فدمدم لنفسه وهو يرمقه بنظرة فيها الكثير من علامات الاستفهام والكمد:

- انتبهنا حتى أوشكت أعيننا أن تخرج من محاجرها.. إننا نراها وطنًا ثانيًا لنا.. وربما أكثر قليلا.. لوجود الحرمين الشريفين.. وربما يعي هذا الكثير من السعوديين، لكن الأمر مع ذلك لا يمنع بروز شخص يذكرك بأنك أجنبي وغريب، وأن عليك أن تنتبه لنفسك فأنت في وطنه أغنى

obeikandl.com

من وطنك.. وفي الغالب يكون هذا الشاب من الجيل الجديد الذي يقصر علمه كثيراً عن إدراك العبرة التاريخية التي تتفق تمامًا مع قول الله تعالي: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، وإن كان ينسى فإنه لا ينسى هذا الشاب الذي عاقبه عندما تأخر قليلا في إفساح الطريق ليتجاوزه متخطيًا بسيارته، إذ أشاح له بيده حانقًا وهو ينعته باسم الشخصية النمطية المصرية «للعربجي» الشهيرة هنا في الذهن والشارع السعودي عنها في الشارع المصري:

- يا علي يا عوض.

وكأن هذا الاسم حكر وسبة له ولبني جلدته.. فابتلع إهانته وتباسط متضاحكًا دون رد حتى لا يغضبه، ومع ذلك غضب كأنه اعتبر ضحكه ردًا تهكميًّا منه واعترضه بسيارته في نزق فتوقف مضطرًا خلفه وظل على جلسته بمقعده يترقب ما سيأتي به من فعل (أو رد فعل) متوقعًا أن يكون عنيفًا، ولكن.. ما أشد فضوله وعجبه لأن الشاب اكتفى بعد هبوطه من السيارة بسؤاله عن اسمه.. فأخبره قائلا وهو يفتعل ابتسامة:

- علي عوض.

واستشعر أن الواجب يلزمه أن يسأله بدوره، ومن ثم عاجله بالسؤال بلهجة فيها الكثير من الحدة والتحدي مردفًا:

- وأنت؟!

صعر له الشاب النزق جانب وجهه وأجابه وهو يصر بأسنانه كأنه يهدده أو يهزأ منه:

- سعود.

وبعد يومين لمحه صدفة في زحام الخروج من الجامع بعد صلاة الجمعة فتريث حتى ابتعد عن الزحام وبدأ يغذ السير وهو يتهادى إلى حيث سيارته فأسرع من خطوه ليلحق به ودنا منه ووضع يده على كتفه من

obeikandi.com

الخلف ومازحه بقوله:

- كيفك يا سعود؟!

- سعود.. سعود.

التفت إليه الفتى من وراء ظهره وقد أخذته دهشة هنيهة من فرط المفاجأة التي لم يكن على ما يبدو يتوقعها، مرددًا ما ادعى أنه اسمه، على حين أردف آدم بمرح مصطنع:

- صدفة جميلة.. بل أجمل صدفة.. هكذا تقول الأغنية: «كان يوم حبك أجمل صدفة».. إني جد سعيد لرؤياك ثانية يا سعود.

وتأكد له في ما بدر من ارتباكه وتردده في التجاوب معه.. بل وفي ابتعاده عنه بسرعة وركوب سيارته والتناهي بها في زحام آخر أنه ليس اسمه الحقيقي، فضحك في نفسه وتساءل:

- إذاً ماذا كان يقصد.. إن اسم سعود رمز عزيز إلى قلوب جميع السعوديين.. أيكون مقصده أن يرفع درجته كمواطن من آل تلك البلاد أمامي.. وما أهميتي بالنسبة إليه إن كنت حقيقة علي عوض العربجي؟!

***

وإن ينسى آدم لا ينسى أبدًا ما سمعه بأذنيه من قول كهل سعودي يخوض نهر الشارع بجرمه الفحل دون أن يعبأ بالأنظار التي تسلطت عليه وهو يعلن بصوت جهير زاعق:

- والله ولقيتوا يا مصريين بلدا تلعبون به.

كان يومها في سوق الخضار يبيع إنتاج أحد المزارعين الذين اعتمدوا على أمانته وحذقه فترة طويلة قبل أن يصدر قرار المنع.. ولحسن ترتيب القدر شاء الله أن يوجد على مقربة منه في تلك الآونة رجل سعودي له رأي آخر ساءه ما سمع، مثل الجميع، فعاتبه مرددًا باستنكار:

obeikandi.com

- خيبك الله.
ولم يكتفِ بذلك، بل اندفع نحوه وهتف به مكررًا في تعنيف:
- خيبك الله.. قد أسأت إلينا وأهنتنا بأكثر مما أسأت إلى شعور جميع المصريين.
وحاول الرجل أن يعترض فدفعه من ذراعه واستطرد:
- اذهب.. اكفنا شرّك يا رجل.. يرحمنا الله.. يرحمنا الله من أمثالك.
يومها صفق رواد السوق عن بكرة أبيهم، لا سيما المصريين، إعجابًا «بعمهم» السعودي العاقل، وابتهجوا وواصلوا العمل في إقبال وثقة.
وتذكر آدم موقف الرجل الشجاع عقب صدور قرار المنع وصحوته المؤقتة من آثاره النفسية السيئة عليه التي كثيراً ما كانت تتراجع (كما لاحظت دنيا) إلى غفوة حبلى بالأحزان والإحباط.
وفي مقابلة مع رجب البحراوي وعلي الصعيدي كانت تتكرر كثيراً أمام البيت وهو في طريقه لركوب السيارة قص عليهما قصة الرجل وقال:
- أكيد أن تلك الروح التي تقبع في شعور بعض الإخوة أمثال ذلك الرجل الذي أساء بتصريحه غير اللائق جهارًا.. نهارًا.. إلى كل من وجد في السوق من السعوديين قبل المصريين.. هو أحد المحركات القوية لصدور مثل هذا القرار.
قال رجب معلقًا:
- أتعرفان؟ أنا رأيي أنه رغم تعارض هذا القرار مع مصالحنا فإنه ينصف الحق، فهو وأمثاله من القرارات تصدر عن حس وطني مرهف.
هتف صاحباه في صوت واحد:
- كيف؟!
أجاب:
- السلطات «تُسَعْوِد» كل الأعمال.. وقد هالها ركون البعض إلى الجلوس

obeikandi.com

على الأرائك وقراءة الجرائد انتظارًا للخير الذي يقدم لهم هنيئًا مريئًا من كل حدب وصوب في أكواب من استقدموهم للعمل.. وكأنهم الولدان المخلدون في جنة الرفاهية الدنيوية.. التي لا ضامن لاستمرارها إلا الله، ومن ثم مخزون وفائض الجهد والعمل الشعبي العام.. الذي يتحول إلى رصيد لا ينتهي من ذهب الخبرة والمعرفة، أو بمعنى آخر ذهب الحضارة والتقدم.

صاح علي الصعيدي:

- إنه إذًا إنذار لنا بأن يوم رحيلنا قد أزف.

حاوره رجب البحراوي قائلا:

- يا أخي أهل البلاد قد تعلموا فنون جميع الأعمال.. منذ قرن مضى وهم يتعلمون.. أتريد منهم أن يظلوا تلاميذ للأبد في مدرستك؟! لا بد أن نقول ما لنا وما علينا.. أكثر من ثمانين عامًا مضت على إنشاء وزارة المعارف ورئاسة تعليم البنات.. ومئات السنين مضت على التعليم غير الرسمي.. ثم ما هي الأعمال الصعبة أو النادرة التي نقوم بها نحن وغيرنا من المقيمين.. الهندسة.. المحاسبة.. التعليم.. التمريض والطب الجامعي وغير الجامعي.. هتف علي الصعيدي مذكرًا في شبه يأس:

- الزراعة.

وقال آدم:

- بدأوا في «سعودة» الوظائف الحكومية منذ وقت.. والآن ينزلون إلى الشارع لـ«سعودة» أعمال الشوارع والأسواق.

قال رجب بهدوء:

- بل قد نزلوا إلى الشارع منذ سنوات لكننا لم نشعر إلا بعد أن مستنا النار.

صاح علي بتحدٍ متسائلا كأنما يطمئن نفسه:

opeikamal.com

- ولكن هل يمكن أن تمتد الموجة الجارفة إلى المهن الصناعية والحرفية التي تعتمد على مهارة اليد كالنجارة والميكانيكا وأعمال السباكة والكهرباء والبياض والتبليط.

وبدا على وجه آدم أنه استراح للهجة علي الصعيدي وسؤاله كأنه تلفظ من فوره بقول مريح لأول مرة في حياته، فأمسك منه الخيط وغمغم:

- إلى آخر هذه الأعمال اليدوية التي لا ينهض من دونها شعب و..

بدا عليه التردد قليلا كأنه تورط في قول عتيد وتورد وجهه، وأضاف:

- إن أهميتها في تكوين البنية الاقتصادية والمعرفية والاجتماعية لا تقدر.. وبعض الشعوب يتزايد توقيرهم واحترامهم لشخص ما ويتعاظم مع مقدار الأعمال اليدوية التي امتهنها في تاريخ حياته.. وهو يترقى ويصعد إلى أعلى وظيفة في السلم الاجتماعي.. بل قد بلغ بهم الأمر إلى ترشيح من قام بالعمل شيالا في الميناء أو السوق.. أو عامل نظافة في مؤسسة أو شارع فترة من حياته.. للتأهل لمنصب الرئاسة في المؤسسة التي يعمل بها، إن كانت شركة مالية أو صناعية كبرى.. أو جامعة أو إدارة الولاية أو الدولة.

وبدوره استراح رجب لما قال وأمسك طرف الخيط كما لو كانوا في سباق تتابع وهمهم:

- أن يحترم شعب فضيلة العمل اليدوي ويرفعه عاليًا خفاقًا كالعلم.. إلى جانب كل الأعمال.. هذا واجب مستحق وإنساني على كل شعب طموح أن يؤديه إن أراد النهضة الحقيقية والتقدم الذي لا زيف فيه.

وقاطعه آدم قائلا وهو يشعر أنه في غاية الصحوة النفسية والروحية:

- أنا غير ساخط ولا ناقم على مثل هذا القرار.. أنا فقط.. أستغفر الله العظيم.. يركبني الهم أحيانًا من ضعف أسباب الرزق.. وأنا على العكس أرى أننا يجب أن نكون في إمساك الأعمال بعد المواطن السعودي.. فهو

obeikandi.com

الأحق بالتنعم بخيرات بلاده.. شأنه في ذلك شأن جميع المواطنين في العالم.. وما دام يوجد بينهم من يقدر أهمية الذوق والكياسة في التعامل مع الآخر أمثال عمنا الرجل الشجاع الذي دافع عنا في السوق.. فلا خوف علينا ولا نحن نحزن.

***

يبدو أنه سيضطر قريبًا إلى الاستغناء عن البيت المستأجر ويعاود الإقامة وأسرته في بيت العم سعيد مغني، كفيله الذي تنذر صحته الآخذة في التدهور صاحبنا بأن يبحث له عن كفيل آخر أصغر سنًا.. إن كان يأمل أن تمتد به الإقامة في السعودية بعد رحيل الكفيل إلى حياته الأخرى.

هم جديد يضاف إلى قائمة الهموم لم يكن ليفكر (ولا يريد أن يفكر) فيه قبلا، ولكن ها هو يفكر به بعمق وقلق رغم أنفه.. فماذا يفعل؟

جاءته إجابة السؤال سريعة وعلى غير توقع منه عندما اقترب منه مصري يعرف أنه يعمل في مجال ترويج السلع الغذائية بسيارة الشركة كمندوب عنها، وابتدره قائلا لتوه:

- «سنكر» سيارتك وتعال معي.. أنا أعلم أحوالك الأخيرة.. تعال معي «سنكر».. «سنكر».

و«سنكر» هذه كلمة سعودية أصيلة معناها اقفل أو أغلق.. وكان آدم يقف بجوار باب سيارته التي ألف أن يوقفها في الآونة الأخيرة بمحاذاة جزيرة الشجيرات وحوض الأزهار، اللذين يقعان في منتصف الباحة التي تتوسط الطريق العام بمحطة التزود بالعمال أو الوقود بالقرية الأم، فسأل:

- ماذا؟ ماذا عندك حتى تدعوني هكذا للركوب معك وترك سيارتي؟

- قلت لك اركب لا وقت لدي أضيعه.. سأذهب بك لشركة نسيم لبيع

obeikandi.com

الساعات التي تقع بالقرب من الشركة التي أعمل بها بميدان الساعة بالمدينة في شارع جانبي يمتد منه.. اركب فقط.. اركب.

هتف به محدثه وكان يدعى فتحي، ولا يعرف عنه أكثر من اسمه المفرد.. ومع ذلك لجدية وأهمية ما يعرضه عليه ويبدو أنه عمل جديد.. في ما بدا من لهجته، سارع «بسنكرة» سيارته وركب إلى جواره فانطلق به بسرعة كمن يخشى أن تفوته طائرة أو قطار، وربما لهذا السبب جلس آدم صامتًا.. آثر ألا يحادثه مقاومًا فضوله نحو طبيعة ما يدعوه إليه حتى يتفرغ للقيادة بهذه العجلة التي لا يدري لها ما يبررها أكثر من أنه لا وقت لديه يضيعه.

وبعد مسيرة عشر دقائق بلغا مشارف المدينة ثم خاضا في بعض شوارعها الداخلية التي أسلمتهما إلى الميدان المنشود.. وفي ناحية منه أوقف فتحي السيارة وتركه جالسًا بها ثم صعد درجًا في الشارع يفضي إلى مكتب شركته في الطابق الثاني لـ«سوبر ماركت» كبير يتبع نفس الشركة بعد أن أنهى إليه أن ينتظره.. وطال الانتظار كما هي العادة، وفكر آدم من شدة ما اعتراه من قلق الانتظار أن ينصرف غير آسف على شيء.. لكنه فكر بعقله وصبر إلى أن ظهر صاحبه على رأس الدرج ثانية ووثب على درجاته نازلا وهو يكاد يتعثر لإحساسه بأنه تأخر كثيرًا على صاحبه ثم دعاه للنزول من السيارة و«سنكرها» بدوره.

وأخذا طريقهما إلى حيث مقر شركة نسيم للساعات.. وبعد بضعة أمتار من المسير قاده رفيقه صاعدًا به درجات سلم عمارة صغيرة من أربعة طوابق، وكانت الشركة، أو بمعنى أصح فرع الشركة، إذ تبين من اللوحة الإرشادية على مدخل العمارة التي قرأها آدم بسرعة أن مقر المؤسسة الرئيسي يقع بالعاصمة الكبرى بالرياض.. بينما يبدو الفرع في إحدى شقق تلك العمارة.. وتشكك آدم كثيرًا في مدى نجاح وتوسع أعمال مثل

هذه الشركة التي تقيم في شقة، وازداد ارتياباً لما قرعا الباب وفتح لهما شاب في الثلاثينيات من العمر يرتدي جلباباً أبيض وعلى رأسه «غُترة» بيضاء تنسدل على كتفيه وجبينه دون عقال، وله لحية متوسطة الطول تؤكد ملامحه ولكنة صوته أنه مصري، فيما قال مرحباً:

- أهلا يا فتحي.

قالها باختصار وكأنه كان ينتظره أو كان على هذا الموعد معه، وأردف مواصلا:

- أراك وقد جئت لنا بوجه الخير.

قال ذلك وهو يمد يده إليهما مصافحاً، فتجاوب معه آدم وصافحه دون أن ينطق بأكثر من كلمة الشكر، لأن عينيه وعقله كانا غائبين في تأمل ما رآه أمامه.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٦ -

وكان ما رآه أمامه غير طبيعي ويعلو إلى الشك والريبة في أقل مستوى للتفكير.. فهذه شقة تبدو للسكنى أقرب ولإدارة عمل تجاري أبعد.
الباب الخارجي مغلق ولا يفتح إلا لمن يطرقه فلماذا؟
وخلف الباب تقع صالة صغير أو قل مدخل استقبال صغير، وعلى يمين الداخل توجد أريكة ذات فرش جلدي بني اللون طويلة نوعًا ما، ولها ظهر جلدي ارتفاعه وسمكه يضمن الحد الأدنى لراحة الجالس، وفي المواجهة حائط مفتوح بمدخل آخر على قدر دخول شخصين متجاورين ممشوقي القوام أو شخص واحد سمين، وأمام الحائط تم وضع «فاترينة عرض» لمختلف أنواع و«ماركات» الساعات الرجالي والحريمي وخلف «الفاترينة» كرسي تم تخصيصه لشخص ما لعله من يقوم بالعرض والبيع، وكل هذا طبيعي لذوي النيات الحسنة.. فلا يمكنك أن تشاهد أكثر من ذلك، إذا لم تجتز المدخل الثاني المفضي إلى باقي محتويات وحجرات الشقة التي أمكن لآدم تخمينها حينما عرف المعلومات التالية.
فالشاب الذي تبدو عليه مظاهر التدين شكلا.. مصري.
وهو يقوم بالعمل مندوبًا للبيع.. هو وزوجته.. ودون أي مرافقين لهما ولو كانوا أولادهما.
الزوجة تعمل خلف «الفاترينة».
والزوج لا عمل له في الشقة وإنما عمله مندوب مبيعات بسيارة يجوب

بها جميع مدن وقرى المنطقة التي قد تقتضي أحيانًا المبيت خارج الشقة لبعد المسافة أو لأية ظروف أخرى تتعلق بسلامة السيارة أو التسويق وترويج الساعات سواء لمحلات العملاء جملة أو للأفراد «قطّاعي».

إذاً فالزوجة عاملة عرض وبيع وخفيرة تحرس ما بحوزتها.. وكل هذا مفهوم وعادي.. إلا أنه من غير المفهوم والعادي ويلقي بظلال كثيفة وعلامات استفهام لا نهاية لها؛ لماذا يشترط صاحب الشركة أن يكون القائم بالعمل خلف الفاترينة مقيمًا إقامة دائمة بالشقة؟ ولماذا يشترط أن يكون امرأة وزوجة لهذا الرجل مندوب البيع الجوّاب الذي لا محيص له ولا مفر من السفر بعيدًا حيث زبائن الشركة من أصحاب المحلات المنتشرة في جميع أنحاء المنطقة؟

تساءل مشدوها في نفسه: «أيكون ما سمعه صحيحا؟».

كان عليه أن يرفض العرض أو يوافق.

رباه.. يوافق؟!

أخفى هواجسه وتساؤلاته التي تحاشى أن يشير إليها من قريب أو بعيد في أعماقه، ثم وعد الشاب، الذي كان ينتظر على أحر من الجمر موافقته ليخلع بزوجته، بأنه سيفكر ويتداول في الأمر مع صاحبة الأمر الخفية وابنتيه اللتين سيتوجب عليهما أن تتوليا أمر نفسيهما وفي ذات الوقت احتضان شقيقهما الصغير بعيدًا عن رعاية ورقابة الوالدين في الوطن حتى يتحقق أهم شروط إمساك العمل.. وفي الحقيقة كان يقاوم رغبة عارمة في سؤاله؛ كم مضى عليك وزوجتك في تلك الوظيفة؟! ويكاد يتمزق من شدة مقاومته هواجسه ورغبة تفور حيث تمور لإعلان أنه يؤجل الموافقة للأبد.

سأله فتحي رأيه وهو يحاوره قبل أن يفارقه إبان عودته به إلى المحطة حيث سيارته، وأردف سؤاله كأنه يجمل له الأمر ويغريه قائلا:

- ستبيع سيارتك لأن المؤسسة ستعطيك سيارة أخرى مجهزة للعمل.. وستنتفع بنصف ريع البيع كأنك شريك وصاحب عمل فتقوم بتحويله لبنك في مصر يدر عليك دخلا فوق ادخار الأصل للزمن؟

- هل الشاب المصري الذي قابلناه في عجلة من أمره؟

سأل آدم بلهجة ذات مغزى مكتفيًا، فأجابه صاحبه بحماسة وحرارة:

- نعم.. سيسافر وزوجته لمصر ويقيمان هناك بصفة دائمة.. الظاهر أنه اكتفى وجنى ثروة طائلة.

قالها بعينين تبرقان لذكر كلمة «ثروة»، فعاد آدم يسأله بصوت أكثر إيحاء وعيناه تبرقان بدوره:

- كانا وحدهما.. أليس لهما أولاد؟

أجاب في آلية ودون تردد:

- طبعًا لهما.. لكنهما تركا أولادهما في رعاية جدتهما لأمهما هناك.

- وأنا؟ أيجب كشرط من شروط العمل أن أرسل أبنائي للإقامة مع جدتهما لأمهما هناك؟ أنا أعلم أنه شرط.. لكني أتأكد أنك سمعت معي ذلك وأنه لا استثناء.

- أجل.. طبعًا.

- لماذا؟

- حتى.. حتى..

وتحير الشاب بم يجيب مضيفًا لحتى.. فكر حتى اسود وجهه ولم يحر جوابًا، وسلم بعجزه عن فهم هذا الشرط الغريب فعلا من شروط تسلم العمل.

- الحقيقة..

نطق بها فتحي وهو يمسح على جبينه وأنفه للمعنى المثير للريب الذي يتضمنه شرط أن تكون المرأة زوجة وألا يكون أولادها من زوجها معها..

مع أن وجودهم أدعى لمعاونة الأم في هذا الجانب من العمل المتعلق بالحراسة.

من يحرس من؟!

سؤال وجيه وجد آدم الإجابة عنه تصعد بالدم الذي يغلي في عروقه إلى قمة رأسه وأطلق صرخة غيظ واحتجاج هاتفًا بسقوط كل صاحب عمل اسمه نسيم.. ثم أردف وهو يقضقض بأسنانه:

- ليس مهما أن تعرف جنسيته فهو بالتأكيد مدسوس من جهة خارجية هدفها تخريب الأعمدة؟ أجل أجل.. فلأول مرة في حياتي أسمع أن ثمة سعوديًا اسمه نسيم.. أنا أعرف مدى حبهم للنسيم ولأسماء ما حُمّد وما عُبّد وسعد وسعيد وعايض ومعيض.. أما النسيم بتلك الشاكلة وهذا الصنف من رجال الأعمال فإنه من المؤكد اسم مستورد لرجل تسلل إليهم من وراء جدران الثوابت العالية.. تمامًا كما فعل هؤلاء الذين أسقطوا دولة الخلافة.. نعم هكذا قرأت في كتب التاريخ، فقد تسلل رجال (يعلم أقل العرب اطلاعًا واستنارة) من هم وإلى أي منظمة أخطبوطية عالمية ينتمون بمعاول هدم خفية إلى المراكز الوظيفية الحساسة في تلك الدولة متظاهرين بأنهم من أبناء الأمة وتمكنوا من إحكام السيطرة حتى أصبح خليفة المسلمين رجلٌ منهم.. حتى غيروا لغة القرآن العربية وغيروا الحروف الهجائية التي تكتب بها لغة بلادهم القومية حتى لا يكون لهم صلة بلغة القرآن.. وحتى الأذان في المآذن تغير نطقه إلى اللغة المحلية.. لا تلك التي تنطق بها في جميع مآذن الدنيا منذ مئات السنين.. آه يا دنيا.. لشد ما أنا في شوق إليك.. إلى تقبيل يديك وتقبيل الأرض الطاهرة التي تمشين عليها.. أنت وفي أذيال ثوبك الشمس والقمر والهلال.. خلفتي وفلذات كبدي.. وبذوري التي تحمل طبعتي الوراثية.

- أنزلني هنا.

- ماذا؟
- أنزلني هنا يرحمك الله.
- ولكن ما زال بيننا وبين قرية المحطة حيث سيارتك مسافة بعيدة.. ثم إن هي إلا وساوس وظنون.. فلم لا تقول لنفسك إن بعض الظن إثم؟ أو قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس.
- قلت لك أنزلني وإلا ألقيت بنفسي من السيارة.
ونزل غير آسف على شيء إلا الوقت الذي أضاعه مع هذا الصاحب الذي طفق يضرب أخماسًا في أسداس وهو يتابعه بناظريه في مرآة جنب السيارة ليستكمل الطريق ماشيًا، وفي أثناء ذلك يحوقل ويبسمل محدقًا في ما أمامه وما حوله وما فوقه وما تحته من منظورات غير مرئية يوشك عقله أن يطير من برجه لفداحة ومعنى ما رآه وفكر فيه، كما لو كان رجلا مأفونًا انفلت زمامه يركض فارًا من خطر توهمه حتى صار في المرآة وفي الواقع نقطة صغيرة سوداء.
ولا يدري كيف بلغ مشارف القرية، وما إن تأكدت عيناه من ذلك حتى وقف يعب من الهواء أنفاسًا عميقة شعر معها بالراحة وانتظام ونعومة ورخاء حركة الشهيق والزفير في رئتيه وبالتالي دقات قلبه، وهدأت إلى حد بعيد سَورة نفسه وطابت خواطرها واستشعر كمن هرب من سجن في زنزانة ضيقة خانقة.. وكان في قطعه باقي المسافة إلى حيث سيارته الراحة الكبرى والرد البليغ على رفض هذا العمل الذي ظاهره نشاط تجاري بريء وباطنه نشاط تجاري غير بريء.. إذ ماذا تحوي باقي حجرات الشقة غير السوء والفحشاء؟ رباه.. إن بعض الظن إثم حقًا.. الآن يدرك مدى فداحة الظلم الذي يقع فيه أناس من إساءة الظن بهم من أناس.. مثل ماذا؟ مثل ماذا؟ آه مثل فصل محو الأمية.. في القاعة الأمامية.. وفي الحقيقة هو.. آه محل كوافير وزينة.. تالله ما أشبهه

بهذا الرجل نسيم.. إنه لا يختلف عنه في شيء.. وعليه ألا يخادع الناس بالبراءة والطهارة.. فإن البراءة الحقيقية في مطابقة الجوهر للمخبر.. وفي مماثلة الظاهر للباطن.. كبر مقتًا عند الله أن نقول ما لا نفعل.

- يا إلهي.

قد كان يفكر تفكيرًا منحرفًا، وعليه أن يعاقب نفسه أيضًا.

***

بل كاد ينكفئ على وجهه من شدة هرولته في الأمتار الأخيرة حتى يلوذ بالسيارة ويأخذها ويجري مبتعدًا، فما أشد حاجته إلى الوحدة وإلى مراجعة نفسه كما تمنى.. لكن كما يقال دومًا ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. فلم يكد يضع أنامله على الباب ليعالج فتحه حتى لاحظ في المكان حركة غريبة ومتصلة، فالناس جميعًا يأتون من كل الشوارع الجانبية والطرق الفرعية ويتجهون مهرولين نحو الجامع الكبير الرابض في بداية الشارع الواقع بين المطعم الهندي ومحطة الوقود.. فتسمرت يده وسأل أقرب المهرولين إليه بفضول شديد:

- ماذا يحدث والأوان ليس أوان صلاة؟

فأجابه من سأله دون أن ينظر إليه وباختصار مواصلا طريقه:

- صلاة الاستسقاء.. ألم تسمع المؤذن ينادي: صلاة الاستسقاء يرحمكم الله؟!

أدار كلمة استسقاء في ذهنه كأنما لم يفهم معناها، وكان في الحقيقة متحيرًا يبحث عن إجابة للسؤال: «منذ متى توقف المطر؟»، لقد شغلته أموره الشخصية حقًا عن الإلمام بالأحوال العامة للناس في المنطقة التي يحيا فيها ويدين بالولاء لها.. وهاله أن يصل به الحال إلى تلك الدرجة من التغيب عن الاندماج والمشاركة.. وهاله أكثر أن تكون عادته التي

اكتسبها حديثًا من إدمان التفكير وطرح الأسئلة الصعبة على النفس مع ما في ذلك من مضيعة للوقت والجهد قد تمكنت منه إلى الحد الذي توشك معه صلاة الاستسقاء أن تبدأ دونه.. فأسرع مهرولا بدوره وما زال يردد لنفسه:

- صلاة الاستسقاء.. صلاة الاستسقاء.

وتوجه إلى «الميضة» يتوضأ فوجد حشدًا كبيرًا من الناس تكأكأ عليها.. وفكر في أنه إن انتظر دوره فسيفوته أداء الصلاة مع الآخرين، سيما أن صوت المؤذن في الميكروفون بدأ يعلن إقامة الصلاة، ودون تفكير أقعى على الأرض وطبع كفه على الغبار ليتيمم دون أن يتيقن من صحة ذلك الإجراء في حال وجود الماء بوفرة، ورأى رهطًا من الناس الذين منعهم الزحام من الوصول للمياه قد حذوا حذوه ليلحقوا بالصلاة.. فتطامن إلى صحة ما هداه الله إليه، وبخاصة أنه لمح بينهم بعض ذوي اللحى الطويلة المحنَّاة.

ولما قُضيت الصلاة.. خرج مبارحًا المسجد مع جموع المصلين وهو يدعو الله معهم أن يستجيب وأن يبعث إلى سماء بلادهم بالمزن التي تحمل الغيث.. إنه نعم المجيب ونعم المغيث.

وكانت استجابة مجيب الدعاء أسرع من البرق الذي ومض، إذ بغتة ادلهمت السماء وأظلمت الأرض من السحب التي تجمعت جموعها بكثرة وراحت عرباتها السود تتصادم وتصطرع مطلقة هزيم الرعد المنشود.. ولهجت الحناجر بالشكر لله وحمده، وهمَّ أصحابها برفع أذرعهم إلى السماء يرددون في فرحة غامرة وإيمان متدفق:

- الله أكبر.. الله أكبر.

- إن الله سبحانه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه حقًا.

قالها لنفسه وهو يرفع عقيرته هاتفًا بدوره مع الجمهور:

- الله أكبر.. الله أكبر.
- إن الله سبحانه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه حقًا.
رددها ثانية ولكن بلا وعي وبصوت عالٍ تلك المرة، فجاوبته لدهشته.. عشرات الأصوات صائحة:
- حقًا.. حقًا.. حقًا.. إن الله قريب.. يجب دعوة الداعي.. إذا دعاه.
وكان لا يتوقع أن يردد كل هذا العدد من الناس وراءه قوله.. فوقف يتأملهم مأخوذًا هنيهة.. ساورته فيها مشاعر الرضا والغبطة كافة، وخال لحظة أن يكون ذلك وقع منهم صدفة.. محض صدفة، وأنه إن كرر النداء ثانية فلن يجاوبه أحد.. فأزمع أن يختبر الأمر وهتف بأعلى صوته:
- لا إله إلا الله.
فردد الجميع خلفه النداء بصوت واحد أن لا إله إلا الله.
وكأنه لم يصدق نفسه واصل:
- محمد رسول الله.
وبعين الصوت الواحد رددوا خلفه أن محمدًا رسول الله.. وخيل إليه أنه لمح في أعين الجميع رغبة عارمة في التواصل ومواصلة الهتاف وراءه فأخذ أهبته للسير أمامهم رافعًا ذراعيه للسماء ولسان حاله لا يصدق أنه أصبح، في لمحة يسيرة، زعيم المسيرة.. يكاد صوته ينشق ويبح من شدة الهتاف لله بالشكر والحمد.. وما هو إلا أن انفضت المسيرة فجأة لحسن حظه قبل أن تبلغ مسامع رجال الأمن.. إذ بدأت السحب تلقي حمولتها من الماء على رءوسهم بغزارة، فتفرق الجمع كل يبحث عن سيارته أو دكانه.. أو شقيقه ليقي نفسه البلل الشديد، إلا الصبية الصغار فإنهم راحوا يتواثبون في كل مكان مرحًا وفرحًا بما نال ثيابهم من البلل.. ومما لم ينل أحذيتهم من الطين، لأن أسفلت الطريق والساحة كان كلاهما نظيفًا لامعًا قبل هطول المطر من فرط همة واهتمام البلدية وعمالها

أصحاب الثياب البرتقالية.
وهكذا نسي آدم نفسه في غمرة ما انتابه من أحاسيس وانفعالات للسرعة التي استجاب الله بها ولصدق ووحدة الشعور الجماعي للناس قبل وفي أثناء وبعد الصلاة.. وبخاصة بعد الصلاة، لأنه تزعم المسيرة.
تناساها، وتلهى عنها بتعبير أدق، وقتًا كان كافيًا لتحجيم مشاكله، بل وحجم تأثيرها في دخيلته بإرجاعها لحجمها الحقيقي الذي تتناهى فيه ويصير وجودها عدمًا أمام الإيمان بالخالق وبقدرته سبحانه على تبديلها بما هو أحسن في غمضة عين.. فقط يدعوه وهو قريب مجيب دعوته إذا دعاه.
وكان يعلم أن وقت نزول المطر بعد صلاة الاستسقاء واستجابة القادر من الأوقات المعدودة التي على المسلم أن يهتبلها ويكثر من الدعاء فيها لأن الله في هذا الوقت كما في الثلث الأخير من الليل ينزل إلى السماء الدنيا بحق ليكون قريبًا من كل إنسان يدعوه فيستجيب له.. ولذلك قبع بالسيارة موليًا وجهه شطر الكعبة الشريفة، وراح يردد في استغراق وخشوع الدعوات له ولآله وأصحابه وبني جلدته ووطنه وجميع المسلمين.. ولبث على تلك الحال وقتًا طويلا.. غاب فيه عن نفسه ثانية أو ثالثة ولم ينقذه من الغرق من بحاره الخاصة إلا صوت نقر على زجاج السيارة بجانبه، ونظر إلى من ينقر نظرة تفحص وتدقيق كأنه يراه من بعيد.. فتهللت أساريره بغتة وخرج من السيارة يصافح الوافد الجديد الذي أنقذه ذات يوم من حبائل ذلك الشاب السوداني الذي لم تكن دعوته لتناول الشاي إلا لغرض.. ها هو يأتي من جديد لينقذه تلك المرة من مسارب نفسه بعد أن انفض من الدعاء لتوه وأوشك أن يرتاد مجاهل تلك النفس.
وكانت دعوة للشاي ولكن صافية هذه المرة، ودونما غاية أو هدف إلا

تبادل الحديث والتماس الدفء مع أخ في الغربة والوطن والدين، ثم لما انقطع سيل المطر.. وقف الشاب مستأذنًا وأوصاه أن يبكر بالمجيء هنا في صبيحة اليوم التالي لنقله وعماله إلى موقع ذلك البيت في البادية.. وأفهمه أن له الخيار أن يبقى معهم طوال النهار حتى المساء ريثما ينتهون من عملهم أو يغادر المكان ويذهب لحال سبيله على أن يأوب إليهم مع أذان المغرب لإعادتهم من حيث أتوا جميعًا، فأومأ له آدم برأسه موافقًا وسأله عن اسمه فأجاب مداعبًا:

- غدًا أقوله لك.

واستغرب آدم وسأله:

- ولِمَ لا تذكره الآن.. هل هو سر؟

فقاطعه الشاب مقاول البناء ضاحكًا:

- لا سر ولا يحزنون.. إنما أداعبك.. يا أخي لِمَ أنت جاد هكذا؟!

ومع ذلك أولاه ظهره وانصرف دون أن ينهي إليه اسمه.. وكأنه حقيقة أحد الأسرار، ومرة أخرى وجد صاحبنا نفسه يفكر.. ولكن هذه المرة في غرابة أطوار هذا الشاب الذي تقرب إليه ويبدو من سيمائه وثقته في نفسه ورصانته ودماثة خلقه.. كل هذه الخصال النبيلة.. أنه يعمل لهدف آخر أكبر من المكسب المادي.. أو أنه، والله أعلم بما يشعر، قد شبع من المادة ويبتغي أن ينفذ إلى ما ورائها.. أو شيء من قبيل هذا والسلام.

وآثر ألا يغادر جلسته في المطعم في هذا الجو المتقلب المطير منتظرًا أن يدنو منه أحد ويستأجره لنقله إلى مكان ما.. الأمر الذي طال انتظاره له.. وأذن المؤذن لصلاة الظهر فقام وصلى ثم آب إلى جلسته ساكنًا يترقب إلى أن أذن العصر أيضًا فقام وصلى وأزمع أن يتوجه للسيارة بعدها ويأخذها ويعود إلى داره.. لولا أنه في آخر لحظة (وكثيرًا ما يأتي

الفرج في آخر لحظة صبر) انقض عليه شاب عرف في ما بعد أنه من إريتريا ومن أقصى جنوبها، حيث تختلط دماء السكان على الحدود.. وحيث إن له أقارب في الصومال وفي جيبوتي، تلك الدويلة الصغيرة ذات الموقع الفريد في القرن الأفريقي على مضيق باب المندب.. الدويلة هبة الميناء مثلما أن مصر هبة النيل، كما يزعم أهلها.. التي تعتبرها إثيوبيا أسهل المنافذ إلى البحر.

قال الشاب الإريتري:

- ولذلك تكثر طرق المواصلات بينها وأشهرها القطار.. التي رأت إثيوبيا لضمان سيولة الحركة التجارية عبورًا لصادراتها ووارداتها أن تروض أهل جيبوتي بكل وسيلة على التعامل بالسهولة واليسر الواجبين.. فأغرقتهم بـ«القات».. ذلك النبات الأخضر المخدر الذي يمضغ ملفوفه من الأعواد التي.. أتعرفه؟ أعواد تشبه الفجل والجرجير.. أو قل السريس الذي ينبت دون أن يزرعه أحد.

- أعرفه إنه ينبت مع البرسيم فهو مع الجبن «القريش» والخبز يشكل عصب غذاء الفلاحين في بلدنا إلى أن يعودوا لديارهم من الحقول مع المساء.

أردف الشاب:

- إياه أقصد، فهو يشبهه شكلا وحجمًا إلى حد بعيد.. ولكن شتان ما بينهما من تأثير.. فالأول يمضغه أهل جيبوتي.

- وينافسهم في ذلك على الجانب المقابل من البحر.. أهل اليمن.

قاطعه آدم على حين استطرد هو:

- ليسكرهم ويطوف بهم عوالم خيالية حالمة.. ولا أحد يعلم إلى متى يبقى الأهلون على مضيق باب المندب غائبين.. يزرعونه كما في اليمن أو يوكلون شعبًا آخر في زراعته كما في جيبوتي.. التي يضيع شعبها الكثير

من الوقت ينتظرونه بفارغ الصبر حتى يأتي لهم بالقطار أو بالسيارات من إثيوبيا، ذلك البلد الأفريقي العريق المحبوس داخل القارة دون مواني على البحر.. الذي يعرف من أين يجب جيرانه أن يؤكلوا.. ودون أن يلجأ لخيار الحرب يسخر موانيهم لمصلحته وبوسائل لا فكاك منها.. مثل «القات» وغيره.

وكان حديثًا طويلا شاغل به الشاب الإريتري الماكر صاحبنا حتى لا ينتبه لطول مسافة المشوار ويطالب بأجر أكبر مما اتفق عليه.. وقد لاحظ أن الشاب تحدث كثيراً عن البلاد الجارة لبلاده ولم يحادثه بشيء عن بلاده هو.. وهي بحديثه أولى، فأدار دفة الحديث سائلا:

- وماذا عن إريتريا؟

باغت سؤاله الشاب فأوجعه ومس الوتر الحساس الممرور في نفسه ففكر قليلا وقال بصوت يتهدج كأنه أجبر على الخوض في مياه لا يرغبها:

- إريتريا أهم ما فيها جمعيات البِّر.. تلك التي تستحوذ على الجانب الأكبر من خيرات البلاد بحجة التراحم والتكافل الاجتماعي.

وسكت الإريتري هنيهة ثم سأل فجأة محولا دفة الحديث:

- ألا نتحدث عما يدور من حروب معلنة وخفية في لبنان؟

وتجاهل آدم سؤاله ليفوت عليه فرصة الهروب من الحديث عن وطنه كما يتحدث عن بقية الأوطان، وهو يستشعر من لهجته التي اضطربت ومن لون وجهه الذي امتقع ومن أنفاسه التي لهثت فجأة، أن الشاب لا يصدر في ذلك بدافع وطني، ولكن لأن هذا كان يؤلمه شخصيًا أصر على سؤاله وكأن الحديث لم ينقطع:

- وماذا في ذلك؟ ألا تحب البر والرحمة؟

وفهم الشاب أن آدم لن يفلته حتى يسمع المزيد من سؤاله فأجابه مختصرًا وموحيًا:

- في ذلك كلام كثير عن كبار رجال الدولة الذين هم أعضاء مجالس إدارتها.

- كان الله في عونكم.

- وعونكم أيضًا، فلستم بأفضل حال منا على ما أعتقد، وإلا ماذا يرميكم هنا على المر.. إلا طبعًا الأمرَّ منه هناك.

- يا أخي.. لا أحب الحديث في السياسة.

- ولا أنا.. خذ بالك من الطريق.. أوشكنا على الوصول.

ساد الصمت بينهما.. ثم فجأة صاح آدم وعيناه تومضان كأنما نبعت في ذهنه فكرة هائلة:

- ليس صحيحًا ما تدعي بأن إثيوبيا دولة حبيسة بلا مخارج على البحار تربطها بالعالم.. فإنها تستطيع لو أرادت أن يكون لها مخرج لا على البحر الأحمر فقط.. بل على البحر الأبيض.. وتسألني كيف.. أقول لك لو أنها قامت بإنشاء ميناء بحري ضخم على نهر النيل.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- قلت ما سمعت.

وتبادل الاثنان نظرة تفاهم طويلة، ثم ران عليهما الصمت ثانية وظل قائمًا لا يعلو عليه غير صوت محرك السيارة، إلى أن بلغ الإريتري محطة نزوله في العرين بلاد قحطان.

وفي طريق العودة ركب معه بعض الأشخاص لما رأوا راكبًا ينزل وينقده أجرًا فابتهج آدم واستبشر لأن الأجر سيتعدد بتعداد الركاب.. ولم ينغصه وهو يقود صامتًا في الطريق إلا سؤال زاعق ظل يطن في رأسه - كالصداع - ولم يجد من يخلصه منه بمحاورته من الركاب، فراح يحاور نفسه بالسؤال ويتمتم في أعماقه عساه يجد إجابة شافية تخلصه:

- إن السواعد المصرية حققت أمل البحر الأحمر والعالم أجمع في الوصول

إلى مياه البحر الأبيض بحفر القناة ونهر النيل الذي يسير موازيًا للبحر الأحمر ويخترق طوله الذي يتفوق عليه معظم القارة من الجنوب، وله العديد من الأفرع العرضية التي تتشعب كالشرايين في جسم العديد من الدول.. حتى يتوحد بطول مصر ثم يعود وينقسم قرب القاهرة إلى فرعين يماثلان القناة طولا وعرضًا ويصبان بفيهما الأعذبين في فم البحر المالح.. ألا يعتبر هذا النهر قناة طبيعية عظمى؟ فلماذا لا يستغل شريانًا تجاريًا؟ ألئن مياهه عذبة يكون التركيز على الري والسدود وتوليد الكهرباء؟ فماذا يمنع النقل النهري وتسيير خط ملاحي ينافس البحر لأنه آمن، بدلا من التناحر على الفوز بموطئ قدم على هذا البحر.. أهناك من يخشى تلك المنافسة.. أم أن تجارة «القات» أيسر وأربح؟

سؤال كبير علم الإجابة عنه عند كبار علماء الجغرافيا والطبيعة والعلاقات الدولية، ولكي يعثر على إجابة لا بد أن يصاحب بعضهم.

ولم يكن السؤال قد كف عن الطنين المزعج في رأسه بعد أن نزل الركاب وسار في طريقه إلى أن بلغ عتبة منزله.

openkandil.com

- ٧ -

على هذا المنوال ولت أشهر الصيف الأدبار وانقضت إجازة المدارس والجامعات، وهلّ فصل الخريف في سبتمبر، ومع دخول المدارس انفتح له باب دائم ومستمر للرزق، فقد اتفق بعض أولياء الأمور معه على توصيل أبنائهم وبناتهم للمدارس ذهابًا وإيابًا، فصار يوميًا مقيد الحرية في موعدين.. بكرة الصباح وبعد صلاة الظهر، أما فيها بينهما فكان مطلق الحرية في نقل من يطلبه من عمال المحطة على الطريق الرئيسي فتوطدت أواصر الصداقة مع بعضهم.. ومع الشاب المقاول الذي عرف اسمه في اليوم التالي إبان قيامه بتوصيله وعماله إلى موقع بيت «عريس البادية»، فإذا هو فارس حمزة. وقد ظهر له أن الشاب فارس فعلا عندما اكتشف من خلال موالاة العمل معه أنه ليس مجرد مقاول يهدم ويبني فقط، بل هو بنك إقراض عقاري أيضًا، فهو يقوم بالإنفاق على بناء البيوت على أن يسدد أصحابها تكلفة البناء شهريًا وعلى أقساط مريحة طويلة الأمد.

وكما أسلفنا القول، كان بين آدم والمزارعين عقد غير مكتوب بنقل احتياجاتهم من مستلزمات الإنتاج من محال البيع بالمدينة إلى حيث المزارع بالقرية، وعلى ذلك لم يخسر غير العمل بالسوق، أما عن عمل زوجته فإن من كن على وثيق صلة بها لم ينقطعن عن ممارسة هوايتهن في قيامها بتجميلهن بتلك القاعة المنفصلة عن البيت التي تقع بجانب

obeikandi.com

الباب الخارجي مباشرة.. وهكذا اتصل نهر الرزق ثانية دون أن يفيض أو يغيض.

وتتابعت الأيام تترى، واقترب شهر رمضان المعظم.. بل قد جاء فعلا وثبتت رؤيته في جميع بلاد المسلمين بنهاره المتصل ليلا بأنوار المساجد وأنوار البيوت والحركة الدائبة للناس في الشوارع التي تتزايد في ما بين أوقات الصلوات الخمس، مضافًا إليها صلاة القيام، وتقل إلى أدنى درجة، فلا تكاد ترى أحدًا في وقتين.. وقت تناول طعام الإفطار بُعيد أذان المغرب وقضاء صلاته، والوقت الثاني بعد صلاة الفجر وخلود الجميع للنوم في تلك السويعات القليلة المتاحة قبل التوجه للعمل كل صباح.

وقد رأى آدم تلك الصورة في مصر تتكرر بنفس التفاصيل في السعودية وحتمًا هي كذلك في كل بلد إسلامي قرأ أو سمع أو شاهد صوره في التلفاز، فهو شهر الوحدة في سلوك وعادات وإيقاع حياة الناس أبناء البلد الواحد.. والوحدة الجامعة لكل حيوات المسلمين في جميع البلدان الإسلامية.. الوحدة في أنبل وأسمى وأجمل أشكال وألوان ألوية الإسلام.. فهذا لواء الصدق الشفاف، وهذا لواء صلة الرحم الأبيض، وذاك لواء التحاب والتراحم والتسامح ونشر السلام بين الناس في لون غصن الزيتون، وذلك اللواء الذهبي لون ميزان العدل وميزان الحسنات.. أما ذاك اللواء الأحمر في السرادق فهو لون «مائدة الرحمن» المفرحة.. والخلاصة أن المسلم في رمضان ينام آمنًا قرير العين بغير حاجة لـ«ديدبان».

فيا ليت الأشهر الاثني عشر جميعها شهر رمضان.

ألوية الإسلام الخضراء ترفرف خفاقة عالية في رمضان، وأيضًا المسلم لا يحارب في رمضان.. وإن فُرض عليه القتال لا ينهزم.

ولرمضان أنفاس ورائحة وأريج خاص يتميز به نسيمه ويعرف سبيله إلى أنوف جميع الأحياء مقتحمًا حتى أنوف الذين لا يشمون لعطب

obeikandl.com

أصاب حاسة الشم عندهم تجدهم يشمون جيدًا في رمضان.. فالشم والأحاسيس المرهفة والنخوة والشهامة تتزايد، فلا نعود نسمع أنثى تنهر ذكرًا قائلة:

- شم.. شم.

ولا من أحد يزجر آخر قائلا:

- شم.. شم.

أو من يصيح وأصابعه على أرنبة أنفه يفركها في كمد وغيظ:

- أنا ذاهب أشمشم عليه حتى أجده.

لأن جميع الأنوف تشم جيدًا.. وجميع السلع متوافرة، لا سيما مختلف أنواع التمور والنقل والزبيب وجوز الهند المبشور والتين المجفف والقراصيا وقمر الدين.. ولا من أحد يحتكر سلعة ما لنفسه لبيعها بأغلى الأثمان لأنها على مختلف أصنافها مرفوعة إلى حد تتحمله طاقة الناس على الدفع وقدرة التجار على الشم من المنبع.

ولا داعي لذكر أطباق الكنافة والقطائف و«السمبوسا».. إلى آخره من المشهيات والحلويات والمهلبيات التي تأتي عقب صواني المشويات والمحمرات والمسلوقات طبعًا.. لأننا لا نلم بأسماء الأطباق الشهيرة في الأمصار الإسلامية الأخرى، ثم ها هي الأيام تجري، فبعد أن كنا نسمع في يوم الرؤية أنشودة «رمضان جانا وفرحنا به» نبدأ نسمع على استعجال أنشودة «بدري.. بدري.. بدري.. والأيام بتجري».. إلى أن نصل إلى أنشودة «والله بعودة يا رمضان».

حينئذ تنتبه آذان النسوة الحساسة ويضربن بأيديهن على صدورهن بجزع وهن يتكالبن على المتاجر لشراء ملابس العيد للأطفال قبل أن يلتهم الكحك كل الميزانية، ويرددن:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. لم نكد نسمع أغنية «رمضان جانا وفرحنا به

بعد غيابه وبقى له زمان» حتى أوشك الشهر الكريم أن ينتهي، وسبحان من له الدوام.

وهن لا يعدمن أن يجدن بجوارهن شيخًا معممًا يقول:

- يوشك أن يولي الشهر الذي أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار.

فيجاوبه شيخ آخر قائلا:

- انتهت مباهج علو النفس وسمو الكرامة ونبل الأخلاق وكل ألوان وأشكال الأعلام الجميلة.

وكأن الأرض امتلأت بالشيوخ، تجد ثالثًا يغمغم:

- انتهت الأنفاس العطرة وأرواح المسك والعنبر.. الأريج الخاص لرمضان يتبدد وستضحى مقدرة الأنوف على الشم ضعيفة.. ستقل النخوة والأحاسيس المرهفة.. وستتناقص أعداد الشمامين.. وتتزايد ألوية العمل الأسود.

لا.. لم يرتفع صوت شيخ رابع.. بل هتف صوت مزارع مصري يأتي البلاد المترامية الأطراف دومًا ستة أشهر مع موسم جمع وترويج ثمار الرمان:

- قد جئت على متن عبارة اسمها «بوكاشيو السلام ٩٨».. رمضان ينتهي بعد أيام ثلاثة.. البقاء الله.. الانتخابات الرئاسية بعد تعديل الدستور في مصر والانتخابات البرلمانية.. البقاء لله.. إسرائيل وفلسطين ولبنان وباكستان وإيران والعرب عن بكرة أبيهم.. تهديدات ووعيد ودماء وسلام مستحيل.. البقاء لله.. وأمريكا وأفغانستان والعراق وإيران وسوريا.. وكل العرب.. كل المسلمين.. والأنفال والدجيل محاكمات لمن كانوا في سدة الحكم في العراق والسلام غير المستحيل.. البقاء لله.. ثم بغتة نور يسطع كالشمس وإسرائيل تسحب جنودها إلى آخر جندي من جنوب لبنان.. بعد أن منيت بهزيمة منكرة على يد خمسة آلاف مقاتل

obeikandl.com

لبناني من جنود حزب الله.. بهجة عامة تعم الوطن العربي المنتشي بالانتصار والمسيرات في الشوارع تهتف بفرح: قد جاء نصر الله والفتح.
فجاوبه آخر نزل معه من ذات العبارة.. كان حديثه إليه:
- لم يبق إلا أن تذكر القلاقل في الصومال، وقرب اتفاق حكومة السودان مع جبهة التحرير الوطني للجنوب على أساس الانفصال.. ثم لا تنسَ إعلان الرئيس السوداني أن أمريكا تحرض الجماعات الانفصالية على قتال القوات الحكومية في دارفور وتواصل إشعال الفتنة.
- لا.. هذا قلته لنفسي.
قالها الرجل الذي يقبع الستة أشهر الأخرى في مصر بعد تسويق محصول وإعداد حدائق الرمان للموسم التالي، وكأنه وصاحبه ينعيان بقرب نهاية رمضان العالم الإسلامي كله.
قد كان هذا كل شيء تقريبًا على الساحة العامة.. أما على الساحة الخاصة، ساحة المحطة، فقد كان آدم في هذا الوقت يقطعها جريًا بسيارته ومعه أسرته في الطريق إلى مكة المكرمة، ليلحق أداء عمرة رمضان قبيل ليلة السابع والعشرين المباركة التي اعتاد أن يقضيها بالمسجد الحرام كل عام، لحضور صلاة القيام والتهجد وختم القرآن.
وإذا كان يأوب ومعه أسرته، في الأعوام السابقة، في اليوم التالي من حيث أتوا، فإنه قرر البقاء بالمسجد إلى ليلة العيد وأن يصلي مع أسرته الصغيرة وأسرته الكبيرة صلاة العيد في محرابه الحرام، الذي تعادل الصلاة فيه مائة ألف صلاة في غيره من المساجد.. فهو قبلة جميع المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي كافة منذ أمر الله سبحانه رسوله ومن معه قائلا: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

obeikandl.com

بعد أن كانت شطر المسجد الأقصى بالقدس ردحًا طويلا، وهذا لا ينال من منزلته لدى المسلمين، فهم يدركون تمامًا قدر ومعنى قوله تعالى: «وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». بتلك الروح العامرة تمتع آدم وأفراد أسرته بأسعد وأجمل أيام حياتهم في العيد بمكة المكرمة.

أمر آخر أثلج فؤاده وأسعده وأنعشه.. هو سماعه لفظًا يدور هناك عن بدء الدراسات حول أنسب موقع لإنشاء الكوبري الذي يربط أرض السعودية بأرض مصر على خليج العقبة بالقرب من «رأس محمد» في جنوب سيناء.

سمع هذا من السعوديين أنفسهم.. لا من أمثال هذين الرجلين اللذين هبطا لتوهما من عبارة «السلام بوكاشيو»، وردد لنفسه كأنه يقرأ الغيب:

- إن كان لـ«السلام البوكاشيو» عبارة.. فهذا كل شيء حقًا للخسارة.

***

لم يكن يتكلف وقتًا أو جهدًا في توصيل شمس وقمر إلى المدرسة، فقد كانت مدرسة البنات تقع على بعد خطوات من المنزل، وكانت علاقته جيدة بحراسها، وكذلك حراس مدرسة البنين، لكن ذلك لم ينهض سببًا لإعراضهم عن مواجهته بتعميم علوي يحرم أن يعمل الأجنبي سائقًا لحسابه الشخصي.. وكان المعنى واضحًا أن يمتنع عن استحضار البنات والأولاد إلى أي من المدرستين.

وقتها ألفى نفسه يردد في مواجهتهم وبصوت متخاذل وقواه تضعف كأنما يوشك على الغثيان:

- أجانب؟! هل نحن أجانب؟!

فأجابوه بلهجة قاطعة وفي صوت واحد كأنهم اتفقوا وأجروا عليه

تدريبات سابقة:
- هو كذلك ولا داعي للمشاكل.. هذا قرار قديم عمره أكثر من عشر سنوات.
ثم إن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فقد فوجئ بعربة دورية شرطة تعترضه على الطريق الرئيسي وتضبطه متلبسًا بنقل بعض العمال، وتحذره بأنه لو تكرر ذلك فإنهم سيوقفونه ويرحلونه من البلاد.
وجاء ذلك عقب تكفل سائق وطني بعمل الشرطة لما لمحه وهو يلتقط ركابًا في شارع عام داخل المدينة منتهزًا فرصة وصوله لنهاية الشارع، بعد أن أنزل الراكب الأخير وأوقف سيارته خلفه مباشرة ليحبسه.. إذ كانت سيارة أخرى تقف أمامه في حالة انتظار، ولم يعطه الرجل وقتًا للاحتجاج، فقد نزل من سيارته بسرعة ووثب عليه تسبقه يده مقتحمة فتحة الباب المجاور له وخطف مفتاح تشغيل السيارة من مكانه بكل جسارة وجرأة ثم رفعه في وجهه ملوحًا وهو يزأر بغضب عارم:
- أجنبي وتعمل سائقًا في شارع عام لحسابك؟! إياك أن أراك ثانية وأنت ترتكب هذه المخالفة الصارخة.. مفتاح سيارتك سيكون معي ولن أرجعه إليك وسأسوقك إلى الشرطة.
لكن أشد ما أثار موجدته وأوجعه قبل ذك بأيام حين استعان به جار سعودي (تصادف تغيب ابنه الذي يقيم معه هو وزوجته وأولاده عن البيت) في وقت اصطحاب أمه للمستشفى العسكري على طريق المدينة العسكرية.. وكانت تتردد على هذا المستشفى في موعد ثابت كل شهر لمتابعة الحالة وصرف العلاج.. وما إن لجأ إليه الأب والجار لأداء تلك الخدمة بدلا من ابنه لظروفه التي لا يعلمها، حتى رحب هو دون تفكير قائلا:
- إن شاء الله خير.. والغائب حجته معه.

ودون أن يتفق على أجر (لأنه جار، وحتى إن لم يكن جارًا فإنه عرف عنه أن من شيمته وعادته ألا ينتظر أجرًا من المرضى، سواء كانوا وطنيين أم أجانب) توجه بهما قاطعًا بعد أن اجتاز الطريق الموصل للمدينة حزمة من الشوارع الجانبية حتى أصبح في الشارع العام المليء بالسيارات والزحام لأهمية المصالح والمنشآت العامة الواقعة عليه، وأهمها المدينة العسكرية، التي ما إن اقتربت السيارة من بوابتها الرئيسية الكبرى المغلقة دائمًا فلا يتم فتحها إلا بعد التفتيش على شخصية طالب العبور والسماح له بالدخول أو إيقافه ورده، حتى عاجله العجوز بقوله:

- إنه مستشفى وليس موقع قيادة أو حراسة عسكري.. حاول الدخول لأن المسافة بين البوابة الخارجية وأبواب الاستقبال بالمستشفى كبيرة يا بني.

وقد كان، وعزم آدم على الدخول لأنه كان يبحث عن دليل يؤكد له شعوره بأنه ليس أجنبيًا، وعبور مثل هذه البوابة أقوى دليل.. وتصادف أن حاجز البوابة الإلكتروني الذي يرفع بأمر جندي يجلس في كشك مرتفع قليلا فوق أكتاف الجنود الواقفين للحراسة والتفتيش كان مفتوحًا فاهتبل الفرصة ودلف بالسيارة وكأنه أحد رواد المكان المعروفين، فأسرع الجنود إلى الوثوب عليه والتعلق بالسيارة وأنزلوه منها ممسكين بتلابيبه.. وقال أحدهم وهو يعجم غضبه:

- ألا تعلم أنه غير مسموح للأجانب بالدخول؟ أأنت في غفلة؟ ألا تعرف القراءة؟

فتدخل الجار العجوز قائلا بنوع من الرجاء:

- اتركه يا بني.. إنه جاري.

فرد عليه الجندي قائلا وهو يتفحص رخص القيادة والتسيير والإقامة لآدم دون أن ينظر إليه وبصوت هادئ رتيب:

- ليس واجب الجار يا والدي.. وإنما حب النقود.. لولا نقودك ما قام هذا بتوصيلك ولا فكر في ذلك لحظة.

وعبثًا حاول العجوز أن يلفت نظره إلى أنه يخدمه كثيراً بلا مقابل، وأنه لم يتفق معه على أجر فإن الجندي أهمله وتحول إلى صاحبنا وأمره أن يترك العجوز ورفيقته يكملان المشوار مشيًا على الأقدام وينقلب هو بالسيارة إلى بوابة الخروج المجاورة بالدوران للخلف من حارة الدخول إلى حارة الخروج، وتساءل آدم:

- لم لا يسمح لي بالرجوع للخلف من مكاني؟

فأجابه الجندي بحزم:

- لأنه لا يجدر استعمال بوابة الدخول للخروج.. عليك أن تنفذ الأمر دون «لماضة».. وإلا أوقعتك في مشكلة لا قبل لك بمواجهتها.

وفي لحظة لبى آدم صاغرًا أمره وهو يردد في سريرته «يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي»، وأوقف السيارة في موقف خارجي خصص لأمثاله من الأجانب والوطنيين غير المهمين أو الذين لا يستلزم وجودهم شأن بالداخل.. وهو يستدرك لنفسه في خيبة أمل:

- «ما اقدرش أخالفك لأني عارفك تقدر تحط الحديد في إيدي».

وطأطأ هامته وأضاف كأنه يبكي:

- أجنبي.. أنا أجنبي.

وكانت اللطمة الكبرى بصدور تعميم ثانٍ يغلظ ذاك الذي كان مصحوبًا بمهلة توفيق أوضاع وصدر منذ سنوات ليحظر على العمال الأجانب تملك السيارات، لأن بعضهم يستغل تلك الميزة في الاتجار وإدارة المعارض في الخفاء لحسابهم، واستثنى القرار فئات بعينها يستلزم عملهم أو ظروفهم الاجتماعية مع أسرهم حيازة سيارة، وبصفة عامة المهنيين ذوي المؤهلات العليا كالأطباء والمهندسين والمعلمين والمحاسبين ومحارم

المتعاقدات، فأدرك آدم أنه ليس أجنبيًا فحسب، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك غير مرغوب فيه، فهو يتطفل دومًا على الأعمال التي يحق للوطنيين فقط القيام بها، واضطرب اضطرابًا كبيرًا وأحس أن يوم الرحيل من هذا البلد الحبيب قد أزف، فلجأ «لزبونه المفضل» المقاول العتيد، وقال يهمس بصوت مكتوم من شدة تميزه وحيرته:

- يا صاحبي.. لا أدري ماذا أفعل.

فطيب صاحبه، الذي صار أكثر من زبون، خواطره واعدًا أن يجد حلا.

وبعد أيام ازدادت الحلقة حول عنقه زمًا وضيقًا عندما تردت الحالة الصحية بكفيله ونقله إلى المستشفى العام، فأسرع إليه ثانية بالسؤال:

- يا صاحبي.. ماذا أفعل؟

فضربه صاحبه على يده مداعبًا ولم يكن يمازحه رغم أن لهجته كانت تقطر هذا المعنى:

- لا تخف سأنقل كفالتك على مؤسسة البناء التي أملكها.

استنار وجه آدم ببداية فرحه وسأله غير مصدق:

- صحيح؟ أنت تملك مؤسسة بناء؟ ألست مثلنا مقيمًا؟ هل حصلت على الجنسية؟

قهقه فارس حمزة مقاول البناء القدير وتمتم بصوت متقطع:

- يا خوي أية جنسية؟ لقد رحت بعيدًا.. إن منال الجنسية عزيز كل العزة في هذا الوطن الذي نفخر جميعًا بأنه موطن رسولنا ومهبط وحي ديانتنا.

وصمت هنيهة ثم استطرد:

- أنا مثلك أمتهن عملا حرًا من أية قيود.. وتتشابك أعمالي وتتكاثر وأكاد أكون صاحب مؤسسة.

فإن بيني وبين كفيلي عقدًا غير مكتوب بأن يتركني أعمل بحرية في مقابل

مبلغ سنوي كبير، فأنا أستعمل اسمه ومؤسسته في إدارة أعمالي حتى لا يطمع في طامع عندما أقوم بالبناء له بالأجل.. أنا أدير مؤسسة حقيقية ولكن في الخفاء، وأغالي في التخفي كثيرًا فتجدني أتظاهر بمحدودية نشاطي وضيق حالي فلا أمتلك سيارة تنقلني وعمالي وخشبي وأدواتي إلى مواقع أعمالي.. إن كفيلي مؤسسة قانونية بلا خبرة.. وأنا خبرة بلا مؤسسة.. وهذا هو الفارق بيني وبينك، أنا أعمل محميًا بغطاء كفيلي.. وأنت تعمل مكشوفًا بغير غطاء.. اطمئن.. سأعمل على نقل كفالتك إلى مؤسسة كفيلي الوهمية.. وأصبح أنا في الحقيقة كفيلك.. أتركك حرًا أو ألزمك بالعمل معي.. كما أرى.

هتف آدم وهو يضغط على يده بحماسة وصدق حقيقي:

- ستجدني إن شاء الله طوع أمرك.

- هذا إن توفي كفيلك وامتنع أي من أبنائه طبعًا عن انتقال الكفالة إليه.. أو كانوا في غير حاجة إليك.

- نعم.. طيب.. وأنا أدعو للرجل بالشفاء والصحة، فهو رجل صالح وطيب بحق، وأنا.. رغم رغبتي في العمل الدائم معك.. أدين له بالولاء والعرفان، فقد خدمني كثيرًا ومنحني حريتي كاملة، ولم يحاسبني يومًا على «هللة» كسبتها، وكان نعم الكفيل.. ونعم الرجل الصالح.

قالها آدم بصوت ينبعث من أعماق وصميم فؤاده واستتلى:

- أنا أقدر للرجل أيضًا أنه لم يشعرني يومًا بالغربة وغمرني بعطف لا يتوفر إطلاقًا لصاحب كفالة.. ولم يكن يخاطبني إلا بكلمة ابني، وكانت أبوته عن شعور حقيقي لا يداخله زيف.. ربما لأنه وجد في طيبة تعوضه مؤقتًا عن أولاده الذين جحدوه حقه وانشغلوا عنه بشئونهم.. وربما لأنه ينتمي إلى هذا الجيل الذي لم تتغير أعرافه وقيمه.. وبقي صامدًا في مواجهة قيم الحداثة للحضارة التي تريد أن تفرض نفسها فرضًا من

الخارج.. الذي لولاه ولولا مؤسسات عريقة وحاكمة في البلاد لانهارت الثوابت ولأصبح الجميع في عماية جهلهم يعمهون.
قال فارس معقبًا على ما أبداه آدم من شعور صادق نحو كفيله الذي يوشك أن يفقده:
- إن أمثال العم سعيد مغني في كل مكان.. وهم لصلابتهم وقوة إيمانهم ومعدنهم العريق مؤسسات حقيقية قوية وحاكمة في أنفسهم وفي أبنائهم، ولكن لا يشعرون.. وإن من الجيل الجديد من هم حائط صد أشد صلابة.. وأكاد أقول صلادة.. في التمسك بالثوابت والقيم الموروثة من آبائهم، ولا يغرنك ما رأيته في أبناء عمك سعيد، فإن أمثالهم ليسوا من الكثرة بحيث يخاف المرء على هذا الشعب الصامد.. الذي لا يني يمد يده عبر البحر والصحراء إلى كل أشقائه الذين يتحدثون لغته ويتحدون معه في العادات والتقاليد ونوعية الثقافة والحياة.
ووجد آدم الحديث قد ارتفع إلى مستويات عليا يرفرف فيها العقل بأجنحة تحلق في سماء الفكر، وأراد أن يدلي بدلوه في الحديث محلقًا مع صاحبه حتى يلقي في روعه أنه يدانيه وليس أقل ثقافة منه فقال مكملا:
- بل والجغرافيا التي تقطعت أوصالها بفعل دعاة تلك الحضارة القطبية المتوحدة لا التي تبدو واحدة.. والذين ببث روح القطيعة والبغضاء بينهم كإخوة وبتقطيع الأرحام، يسودون عليهم منذ القدم.
هتف فاس بحرارة وتحمس:
- فترات ضعف وجيزة.. أجل إنها عبرة التاريخ الواحد قطعًا التي بعثت إلى وعيهم أمجاد أجدادهم الذين وقفوا لتلك الروح الشريرة بالمرصاد.. ولم يسمحوا بنفاذها إلى نفوس وعقول الأبناء والأحفاد وانتصروا نصرًا عزيزًا من عند الله.. الذي كان حقًا عليه نصر المؤمنين.. وإن زرع الكيان الصهيوني والمحاولات المستميتة لجعل الأرض يهودية صرفة

هي ومن عليها وتقويتها وحمايتها وتسويرها.. وتزويدها بأكبر ترسانة حربية وبأحدث التقنيات والعلوم المتقدمة لصنع الأسلحة مما جعلها خامس دولة تبيع الأسلحة في العالم.. وعدم السماح لهذا الكيان الصغير بالهزيمة.. والسماح له بصنع وحيازة السلاح النووي بما يكفي لتدمير كل الشعوب المحيطة به وربما البعيدة أيضًا.. وفي ذات الوقت إنكار حق هذه الشعوب في امتلاك ذات السلاح ومحاربتها ومن يشبهها.. والقضاء عليها إن فكرت في ذلك، ولو من قبيل الدفاع عن النفس أو العلم بالشيء.

- دونما عدالة أو تحرج وببجاحة منقطعة النظير ومزدوجة المعايير.

- إن مؤسساتهم الرسمية وغير الرسمية تقوم ولا تقعد عندما يرمي فتى فلسطيني حجرًا على مستوطن يهودي أو جندي مدجج بالسلاح، ولا تنطلق أبواق دعايتهم وحناجر قادتهم بمقولة الدفاع عن النفس إلا عندما تقوم صنيعتهم المدللة بشن غارات بالطائرات والمصفحات والدبابات مستعملة كل الذخائر المحظورة والأسلحة الحديثة الذكية في مواجهة المدنيين العزل حاصدة كل الأرواح، لا تفرق في ذلك بين الأطفال والنساء والشيوخ والحيوانات العجماء.

- بنفس الطريقة التي تجرف بها الجرافات المنازل والمساجد والكنائس.. ومزارع الزيتون والموالح.. وكل البنى التحتية والعلوية ردًا على طلقة رصاص أو صاروخ من الذي يصنع محليًا في ورش الحدادة.. الذي يزيد في تدميره قليلا على الذي يلعب به أطفال الحارة في الأعياد.

- وفي أثناء ذلك يتحدثون عن السلام.

- سلام الكلام.. يدورون بهم في حلقة ضياع مفرغة.. وبيداء تيه وسراب لا نهاية له.. وكأن عليهم في فلسطين يقع القصاص ودفع الثمن نيابة عن الذين أوقدوا نيران المحارق في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وكان

اليهود وقودها.

- وبعد هذا نصيح نحن أو يصيح أشقاؤنا: بني وطن غريب فانتصر.. غريب.

- كيف يكون غريبًا من يحمل في فؤاده كل هذا الحب لصلة الدم والقربى.. ومن كانت خالته زوجة لأبيهم الذي سماهم المسلمين.. قبل ولادة موسى وعيسى ومحمد بمئات السنين؟

- وعلى أي أساس متين يقوم الجسر المقترح عند «رأس محمد».. أغلب الظن أننا بتلك الروح التي تهب علينا ريحها من الغرب بمعلوماتية مغلوطة لن نقوى على بناء جسر يعوض «أم الرشراش» ولحمتها.. فضلا عن صعوبة القضاء على الأرباح الهائلة لشركاء النقل بالعبارات بين مواني البحر الأحمر.. التي تقطع بغرقها نياط القلوب.. وأوصال الجسور القائمة فعلا بين القلوب واحدة تلو الأخرى.. في مسلسل مأساوي يثير الحيرة من أننا لا نتعلم أبدًا مهما توالى وقوع الحادثات.. وسقوط الرموز والعبارات، بكسر العين كما بفتحها على حد سواء، في قاع البحر.

- آه يا عم سعيد مغني.. لشد ما أحبك.. وأتمنى لك ولأمثالك الصحة الدائمة والعمر الطويل أن تدوم عمومتك وكفالتك لي فأنت مهندس الصيانة العبقري لكل الجسور المرئية واللامرئية.. قد قالها في رام الله زعيم الجهاد ومهندس الحرية والأرض تميد به والجدران تتهاوى من حوله: «يا جبل ما يهزك ريح».

ودمع آدم ورفيقه ودمعت معهما لعظمة الذكرى من حيث لا يراني أحد وأنا أكتب تلك الكلمات.

***

ولم تكد تمر أيام حتى أتاه الخبر الذي كان يتوقعه ويخشاه، فقد أسلم العم سعيد مغني الروح بالمستشفى المدني وتجمع من الأهل والأقارب والمعارف ومن رجالات القرية والمركز والمدينة، عاصمة المحافظة، عدد غفير لوداعه قبل دفنه الوداع الأخير.

كانت جنازة كبيرة ومهيبة جلس بعدها أبناؤه ثلاثة أيام يتلقون العزاء في سرادق صغير أقاموه أمام البيت، وكان من واجبه أن يلزمهم إلى أن ينفضوا من استقبال المعزين ليتحدث إليهم في شأن كفالته التي تنتقل بإجراءات بسيطة إلى واحد منهم بتنازل باقي الإخوة.. وقد كان، وابتدره أكبرهم بالحديث بعد أن قل عدد المعزين إلى الحد الذي انعدم معه توقع حضور معزٍ آخر في نهاية اليوم الثالث، وكان جميع الإخوة يجلسون في صمت يتسمعون دون أن يشاركوا بكلمة، مما جعل الكلام قصيراً وواضحًا وقاطعًا، إذ قال:

- أعمالنا ومشاريعنا بها ما يكفي من العمال.. ابحث لنفسك عن كفيل آخر إن كنت تحب البقاء في السعودية ونحن نمهلك حتى عيد الأضحى.. فإذا لم تجد أو لم تقدم لنا ما يؤكد جديتك يتوجب عليك المغادرة.

كان يتوقع هذا الاستغناء عن خدماته وتلك اللهجة التي يقل فيها الود ويزيد الجفاء إلى حد البرود، فلم تكن بينه وبين أي من الأبناء علاقة حميمة أو ذكريات تزكيه ليستمر انتسابه للعم الطيب بعد وفاته، ولذلك بادلهم الكلام المقتضب المعبر عن مشاعر الأسى والأسف على وفاة والدهم فقط، وذهب لحال سبيله يتلمس طريقه إلى فارسه المنقذ فلعله يجد في المؤسسة الوهمية لكفيله الحل الناجع لجميع مشاكله، بما في ذلك مشكلة الاحتفاظ المحظور بسيارته لأداء أعمال محظورة فهي من قبيل الحق للمواطن من آل البلاد فحسب.

لم يكن أمر الاتصال صعبًا أو يستلزم بذل مجهود، فقد كان يعلم جميع

الأماكن التي يرتادها بما في ذلك محل سكنه، الذي كان يقع في ضاحية نائية من القرية الأم فذهب إليه وألفاه جالسًا يدخن النارجيلة مع نفر من مريديه وعماله، فحيا وجلس صامتًا، وحدس فارسه ما يفكر فيه ويشغله، فربت على ظهره مبتسمًا بعطف وود، ثم قام واقفًا فوقف الحضور جميعًا في ذات اللحظة، ومنهم طبعًا صاحبنا المبتئس، وسمعه يقول:

- لا بأس.. تعالَ.. هناك مشوار يحسن عدم تأجيله.

قال ذلك وخطا خارجًا دون أن ينتظر موافقة آدم الذي هرع في أعقابه وركبا السيارة، وفي الطريق عرف أنهما بسبيلهما لمقابلة العم المرشح لكفالته.. وكان له في جانب من جوانب بيته بالمدينة مدخل خاص يفضي إلى قاعة كبيرة مؤثثة بأثاث مكتب فخم ودواليب «وفوتيهات» جلدية وثيرة ومجلس كبير تتراص أرائكه ومقاعده في صفين طويلين متقابلين.. ولا يدري آدم لم ارتسمت في ذهنه آنذاك صورة تماثيل الكباش الرابضة كحرس الشرف بوادي الملوك بالأقصر.. ولحسن حظه الذي كان يظنه عاثرًا وجدا الرجل في مكتبه كأنه كان ينتظرهما، ودار الحديث بينه وبينهما جادًا وطويلا وذا شجون وذكريات مع صاحبنا الفارس الذي كان يحترمه الكفيل ويجله كثيراً ويسعى لإرضائه والمحافظة عليه.

ووصل ثلاثتهم إلى قناعة مؤداها أنه لا يستقيم نقل الكفالة من الداخل مع موت الكفيل وعدم انتقالها إلى أحد الأبناء رسميًّا.. ولذلك لا مندوحة عن السفر إلى مصر والتعاقد من هناك.. ثم عليه بعد التعاقد الجديد الحضور منفردًا وبعد ذلك يتم استقدام ما يعن له من أزواجه وأبنائه.

قهقه فارس وقال متبسطًا مع كفيله:

- أزواجه وأبناؤه.. تحسب أنه سعودي مثلك تتعدد زوجاته وبناته وأولاده مع كل زوجة.

تمتم الكفيل مبتسمًا بلهجة العارف الخبير:
- إن الأمر يصبح يسيراً غاية اليسر لو وافق أحد أبناء العم المرحوم على تثبيت الكفالة عليه بصفة مؤقتة ولو لمدة أيام.. إذ من الممكن في تلك الحال أن نطلب إسقاط شرط مرور عام على فقد الكفالة لتتم الموافقة على نقلها.. بحجة أنها ليست كفالة جديدة وإنما هي تثبيت طبيعي للكفالة الأصلية التي تحركت بالوراثة من الأب المتوفى إلى الابن.. لا بالقانون الذي ينص على كيفية إجراء النقل.
ثم صمت لحظة أعمل فيها فكره بعمق تقطب له جبينه وانعقد ما بين حاجبيه.. وكأنه وصل إلى يقين في أمر يحتمل تأويلات عديدة.. ثم هز كتفيه بأسف وقال مستأنفًا ما انقطع من حديثه:
- أعتقد أن هذا التأويل ليس صحيحًا في كل جوانبه، وأن من الأحسن أن نسأل أحد المسئولين بالجوازات. ولم يضع الرجل وقتًا وأجرى مكالمة هاتفية سمع آدم من خلالها ما أفقده الأمل في أن يتم الأمر بيسر ودون إجراءات تتطلب وقتًا أو سفرًا، فالكفالة في الحالة التي جرى تعريفها للمسئول ليست استمرارًا لكفالة الأب.. وإنما هي كفالة جديدة ولا بد من مرور عام عليها قبل نقلها وعدم التحايل على القانون.
- آه.
ندت الآهة عن صدر آدم المزدحم بالهموم وخيبة الأمل ومتاعب غربته في الوقت الذي وضع فيه الكفيل المحترم مسماع الهاتف مرددًا:
- كما سمعتما.. لا بد من مرور العام.
وغمغم آدم وهو يقوم متثاقلا ورفيقه الفارس يقوم معه من خلال تنهيدة عميقة يبدو أنها انتقلت إليه بالعدوى:
- على الأقل عرفنا شيئًا يوفر المزيد من العنت في سبيل إقناع أحد الورثة بتثبيت كفالتي عليه.

وانصرفا على وعد باللقاء ثانية لترتيب أوضاعه وأوضاع أسرته من ناحية الإقامة واستبدال مدرسة مصرية بمدرسة البنات السعودية بعد العودة.

ثم إن الأيام التالية مضت بطيئة لم يؤدِ فيها آدم أي عمل، وانكفأ على نفسه ينعى سوء حاله وحظه العاثر فعلا.. وقد تردد كثيراً في مكاشفة أعضاء أسرته بما هم مقدمون عليه.. ثم لما قرر ذلك أخيراً استعمل كل مقدرة على التحايل لتخفيف وقع الخبر الذي ما كاد يفصح لهم عنه حتى اكتشف مقدار ما التبس برأسه من أوهام وأحكام مسبقة على أمور لم يختبرها بطرحها على أصحابها.. إذ ابتهجت زوجته وابنتاه بالرحيل للعيش بين الأهلين في حرية.

وباختصار استبشر الجميع خيراً، مما دعا الأب إلى البدء في اتخاذ الإجراءات الرسمية للمغادرة، من الحصول على التأشيرات والموافقات والبيانات إلى حجز التذاكر ومداومة التردد على «الجراج» للحصول على أعلى سعر للسيارة و«عفش» البيت، فلا أحد يضمن أن يتم التعاقد مع الكفيل الجديد والعودة.

وكان بيان الحالة الدراسية لشمس وقمر من مدرسة البنات ومن إدارة التعليم وتوثيقه من الخارجية السعودية أحد أهم إجراءات إعداد عدة السفر الذي توقع آدم أن يتم - بإذن الله - بعد عيد الأضحى بنحو أسبوعين، ولذلك قرر مع أسرته أن يقضوا جميعًا الأيام الباقية في أداء مناسك الحج ثم الانتقال للمدينة المنورة بعد مكة المكرمة لزيارة رسول الله ومسجده قبل ركوب إحدى حافلات النقل الجماعي إلى ميناء العقبة الأردني أو ميناء ضبا السعودي، حسب تساهيل ربنا، على حد قوله لزوجته وابنتيه.

ولذلك لم يقبع أو ينكفئ على وجهه بالمنزل بعد ذلك.. وكان خروجه في تلك الأيام لأداء ما يتحتم إنجازه من إجراءات رسمية وغير رسمية

للسفر.. ومن قبل ذلك الحج.. واعتمد في نفقاته ومصروفاته على بعض «المشاوير» التي اختطفها اختطافًا لبعض المزارعين لشراء احتياجات مزارعهم.. ومن المقاول فارس حتى لا ينفق مما أسماه «اللحم الحي» ويعني مدخراته و«تحويشة عمره» التي ستنفعه لإقامة مشروع في بلدته مثل تشغيل سيارة أجرة أو فتح محل تجاري إلى آخره، في حالة إخفاقه في العودة ثانية.

كانت إجازة نصف العام الدراسية ستعقب إجازة عيد الأضحى مباشرة، ولذلك وجدها بعض الذين يعيشون بعيدًا عن ذويهم فرصة لدعوتهم لزيارتهم بالسعودية لإرواء الظمأ والأشواق المتأججة إليهم وإلى زيارة بيت الله الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة وقضاء مناسك الحج.

ومن هؤلاء كان المقاول فارس الذي أخبره بقرب وصول أبنائه وزوجته من مصر.

كما أن المزارع علي الصعيدي أنهى له خبرًا من هذا القبيل.

أما المزارع رجب البحراوي فإن عزمه قر على الحج ومن ثم السفر لزيارة آله وبلدته بصعيد مصر.

حتى معلمة الرياضيات المصرية من رفح المتزوجة بفلسطيني ستصحبه مع ابنته وابنه منها لزيارة موطنها وأهلها بعد الحج، منتهزين عطلة نصف العام الدراسي أيضًا.. وغير هؤلاء وهؤلاء كثيرون ممن يعرفهم أو لا يعرفهم.

إذًا ستكون الصحبة كبيرة والرحلة عامرة بالمعارف والصحاب والمرح ودفء مشاعر أبناء الوطن الواحد العائدين من الغربة، وسيستقلون جميعًا حافلات تنقلهم بكثير من العتاد والمرح والرقص والشدو بأغانٍ شعبية وأهازيج يحفظها الجميع عن ظهر قلب إلى الميناء السعودي،

ومن ثم إلى ميناء سفاجا على ساحل البحر الأحمر وصعيد مصر.. أو العقبة الأردني ومنها إلى ميناء نويبع على الجانب الآخر من خليج العقبة وسيناء.. وفي كلتا الحالتين يتحتم ترتيب موعد لقاء الغرباء لعبور البحر أو الخليج في حفل المرح الأكبر على عبّارة لم يتحدد بعد اسمها، وإن كان قد تحدد اسم الشركة «السلام»، فهي الشركة المحتكرة لنقل المصريين وغيرهم من جميع الموانى في البحر الأحمر بين السعودية ومصر.. وما زال الوقت مبكرًا وما زالت ثمة فسحة كبيرة منه يقضيها الموعودون في الاستعداد لتلك الرحلة الجميلة للبقاع المقدسة ومن ثم الوطن الأول الذي لا غنى لأحد عنه ولا مندوحة من الرجوع إليه مهما سافر المرء.. والمصري بوجه خاص.. وابتعد.

obeikandl.com

- ٨ -

قال آدم:

-دعوني يا أبنائي أشرح لكم سبب احتفالنا في مصر والعديد من البلدان الإسلامية بعيد رأس السنة الميلادية.. نحن في مصر نحب الأعياد والاحتفالات ونختلق لها الأسباب اختلاقًا لأنها مناسبات يثرى فيها التجار الذين بيدهم آليات يتربصون بها في الأسواق للتحكم في الأذواق وجني الأرزاق.. ولذلك، حبذا لو تكون جميع أيام السنة أعيادًا.

ثم إننا في الأعياد نغط في النوم إلى العاشرة من فرط السهر ليلة العيد، الذي يجعل من ليلة الخميس ليلة مباركة.. ومن يوم الخميس يوم الأفراح وعقد القران وزفاف العرائس إلى العرسان.

ولكن الإصرار على الاحتفال في قاعات الأفراح بالطبل والرقص والزمر جعل من ليلة الخميس ليلة مزدحمة، مما حدا بالحكومة التي ترفع علم تنظيم النسل للتنكر ليوم الخميس واختيار يوم السبت يومًا ثانيًا للعطلة الأسبوعية.

ولذلك أضحت جميع أيام وليالي الأسبوع خميسًا عند المحكومين.

فيوم الخميس ضائع ضائع.. فلماذا لم ينل الاعتراف وفيه يتم منح تصاريح الانصراف مبكرًا من مقار المصالح الحكومية لتجديد التعزية في وفاة الفقيد بخميس خمسان الوفاء والعرفان وتبادل الأحزان؟

أذلك لأن الحكومة هالها أن يطالعنا الخميس بوجه نهارًا وبوجه آخر مخالف ليلا.. وهي لا تحب أصحاب الوجهين من أعداء الشفافية؟ أم

obeikandl.com

لأن السبت يوم العطلة الأسبوعي الذي لا يوقد اليهود فيه نارًا فتتعطل جميع أنشطتهم الحياتية وهي تحب أن تبدو أقل اتهامًا من الشعب بالعزوف عن التطبيع؟

وسكت لحظة يلتقط أنفاسه واسترسل:

- ويجرنا الحديث عن الأعراس ورواج حال التجار إلى تجار الأثاث، فهم السبب وراء المغالاة في التجهيز التي تجيز أن يكون عرض الدولاب ضخمًا حتى لو أدى هذا العرض إلى إغلاق الشباك ومنع ضوء النهار (نور الله) من دخول غرفة النوم، بل والحيلولة بين العروسين والتنفس لنقص الهواء، فإن الرأي الراجح لديهم أن حاجتهما للدفء أولى، والدولاب العريض المكون من قطعتين ترتفعان للسقف يسهم في توفير الستر من الأعين الفضولية البصاصة.

ألا تعرفون يا أحبائي أن وراء كل مغالاة يختبئ الجشع والطمع، خذوا أيضًا غرفة الأطفال، بالله ما حاجة المخطوبين للتفكير في الأطفال قبل أن يتزوجوا؟ لا.. ويُكتفى بسريرين اثنين كما تحدد توجيهات الحداثة لتحديد النسل.. سبحان الله من قال إنه سبحانه (لطفًا) لا يضمن الرزق وتضمنها الحداثة.. لقد أصبحت غرفة الأطفال من الغرف الأساسية في الجهاز يعمل لها العرف ألف حساب.. والغريب أن نجد هذا الحرص يشتد عند أهل الريف أكثر من الحضر.

إذاً فالمسألة ليست مسألة رقي وحضارة يا أبنائي الأعزاء.

يبدو حديثي هذا من قبيل الانجراف والثرثرة، بينما هو في الحقيقة السر الخفي وراء كل ما يعانيه الشباب من إحباط يدفعهم إلى الهجرة بعيدًا عن الوطن بشتى السبل، ولو غرقوا في عرض البحر من أجل عرض الأستاذ دولاب.

فأنى لهم تجهيز أربع أو خمس غرف كاملة بالسجاد والنجف والستائر؟!

تمتمت دنيا:

- يا ساتر.

وضحكت كل من دنيا وشمس وقمر في سرهن للحديث الهام الذي لا يكل ولا يمل من تكراره كلما اعتدل مزاجه وجلس يسامرهن.. على حين تعلق هلال برقبته وأخذ يراوح بين التعلق بها من الأمام والخلف، كما لو كان يتأرجح، وواصل هو في عصبية بالغة:

- ويا ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد.. بل لا بد من الاتفاق على أن تكون «الشَبْكة» هدية العروس لا تقل عن كذا ألف جنيه و«نص».. وإذا سألك أحد عن هذا «النص» فقل له إنه من أجل سواد عيون المؤلف والمخرج والملحن.. ومن هو كل أولئك؟ إنه نيافة التاجر.. وكيف يتفق على قيمة الهدية المتنيحة؟

صاحت شمس كما لو كانت تستعجله للانتهاء من خطبته الرتيبة المعهودة:

- وماذا تبقى يا والدي؟ هات من الآخر.

فجاوبتها قمر بمكر:

- قائمة الجهاز.

وابتسمت دنيا لهما، بينما استطرد الوالد:

- إيصال الأمانة.. أغلى لحم الدنيا.. لحم ابنتنا الحبيبة شمس أو قمر.. نأتمن العريس عليه ولا نأتمنه على محتويات جهاز تقل قيمته مع مرور الوقت في بيوتنا وتزيد في معرض التاجر.. وفي تلك القائمة لا بد من إدراج ذهب «الشبكة» الهدية.. حتى يتابع عروسه في كل مكان تذهب إليه مخافة أن تبدد عهدته.. وأيهما أولى بالرعاية والتأمين هي أم الذهب؟! تأملوا يا أعزائي فداحة وهول ما على الشاب المسكين الذي يبغي الزواج أن يتحمله.

غمغمت قمر متهكمة:
- وكله إلا مؤخر الصداق.
وتمتمت شمس في أعقابها مكملة:
- فهي ليست أقل من كل بنات العائلة.
وجاوبتهما دنيا بغمزة من طرف عينها المواجهة لهما:
- أقل.. فشر.
فزعق آدم ولا يدري أحد أي سبب لغضبته واستتلى:
- بل إن العريس المسكين هو الذي فشر.. ولا أظن إلا أنه أصيب بمرض عضال لا علاج له.. أو أصابته لوثة في عقله فاندفع إلى البحر الأبيض ليغرق على سواحل اليورو.. الذي أثرى كل الدول الأوروبية ليثبت لكل العذارى والتجار في مصر أن ثمة خيارين هنالك لا ثالث لهما.. إما أن يكون رجلا وإما أن يموت.. فأين الرحمة في قلوبكن يا أمهات البنات؟ وبعد أن يعود إليك ابنك جثة هامدة في صندوق خشبي يا أم ألا ينخلع قلبك ويتفشر حزنًا وتذرفين الدمع دمًا؟
صاح كورس من الابنتين في صوت واحد:
- وماذا من أجل وظيفة تدر دخلا؟ ماذا من أمر شقة للسكنى أصعب منالا؟
فانفرجت أساريره فرحًا باندماجهما معه وهتف من قلبه:
- هذا موضوع يطول شرحه والعيب فينا لا في زماننا.. الناس لا تريد أن تتغير.. زمان كانت مساحة الغرفة الواحدة عشرة أمتار طولا وعرضًا، بل وارتفاعًا، فلم تكن غرفة بل قاعة تتسع لكل الغرف.. وإذا ما حصل الشاب الغارق في التنهدات أو البحر على شقة بالإيجار لهذا الجهاز مساحتها عشرة أمتار يقول له المالك إنه عثر على شقة «لُقطة» كبيرة.. وتحديد القيمة الإيجارية والمدة حسب رغبة فخامة المالك.. الذي ربما

obeikandi.com

يكون الارتفاع المستمر في أثمان الأراضي والعقارات هو السبب الوحيد لجنونه.. قد كان فقيراً وأغناه الله بقطعة أرض كبيرة وثب عليها الناس وأغدقوا المال عليه حتى لم يعد يعرف قدر نفسه.

اتجه الأب نحو القبلة ورفع كلتا يديه للسماء وراح يدعو:

- ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملْته على الذين من قبلنا.. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.. واعف عنا واغفر لنا وارحمنا.. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ورددت شمس وقمر والأم في خشوع، وقلدهما هلال في صوت واحد:

- آمين يا رب العالمين.. آمين.

وسألته شمس في تخابث على سبيل المداعبة:

- حينما يتقدم لي عريس.. مثلا يعني.. ستعطينني له دون مهر أو «شَبْكة».. أو جهاز يا أبي؟

أجابها مبتسمًا:

- لن أدقق معه إن كان من أسرة طيبة ويعرف كيف يتقي الله.. سأعاونه ليجعل الله له مخرجًا ويرزقه بك.

حدقت ابنته في وجهه وهزت رأسها علامة على عدم الفهم وتداخلت قمر في الحديث متسائلة بدورها:

- أتذكر يا أبي بداية حديثك؟

فسألها بدوره:

- لم؟ وما أهمية ذلك؟

أجابت وعيناها في الأرض للجدية المثيرة للقلق في لهجة أبيها:

- كنت تحاول أن تشرح لنا سبب احتفالنا في مصر.

قاطعها قائلا بحدة بلا سبب:

- نعم.. قد تطرقت بعيدًا عما كنت أقصد.. أعرف أنني غدوت كثير

الكلام قليل الفعل يا ابنتي الحبيبة هذه الأيام.

ووقع صوت والدها من نفسها والطريقة التي ساق بها عبارته موقعًا مؤلمًا منعها من الاستمرار في المحاورة.. ولاحظت أمها ذلك فأسرعت إليها ومررت أناملها العاطفة الحنون على شعرها وقالت تخاطب زوجها باستهجان وتأنيب:

- بالله لا تعد لممارسة هوايتك في الكلام الموجع الذي لم يكن من طبعك إلا منذ وقت قريب عندما جردوك من.. آه.. نعرف أن الليلة ليلة رأس السنة الميلادية.. والناس هنا في هذه البلاد يحسبون أعمارهم بالسنة الهجرية.. ولذلك فهم لا يركزون النظر إلى السنة الميلادية ولا إلى رأسها.. فماذا تبغي أن تقول بهذا الحديث المكرر.. المعاد؟

- أقول ما قلته أنت.

- كيف؟ ها.. كفاك يا رجل.. ماذا فعلت أنت من إنجاز في عام مضى وانصرم لتستحق أن تحتفل بالعام الجديد.. بل ماذا فعل كل البشر أمثالنا؟!

- وماذا فعل كل البشر أمثالهم؟ إن علينا أن نتفاءل ونستبشر مثلهم بالعام الجديد.

قالها كمن يؤاخذها على خطأ ارتكبته في حقه، فما كان منها، وهي المرأة الخبيرة والزوجة الصالحة العارفة لخبيئة نفس زوجها، إلا أن أسرعت تصحح أمرها، فقالت:

- أعلم مدى حبك لنا جميعًا.. وأعلم أكثر مدى ما تشعر به من خوف تجاه الغد من جراء ما حدث من فقد.. يا أخي لا تفكر فإن لها مدبر.. لا تفكر ودع الخلق للخالق وقل يا باسط.

- ماذا أقول؟

سأل وعيناه تسهمان بعيدًا في اللامنظور فرددت ثانية بإيجاز وبلهجة

مؤثرة وقاطعة كمن يقضي بأمر مفروغ منه وهي تضرب يده بلطف ومرح وعيناها الذهبيتان تلتمعان:

- يا باسط.

- يا باسط.

رددها بانشغال بال وراءها فجاء صوته خفيضًا وابتسامته باهتة وأدركت زوجته مدى وجسامة ما يعانيه من انفعالات والعام الوليد يدق جميع الأبواب بأكفه.. وكان يكفيه منها ابتسامة عطف أو نظرة حانية من تلك التي أغدقتها منذ قليل على ابنتهما ورمقها في ترقب وتوفز كما لو كان يتوسل إليها أو يتسول منها تلك النظرة أو هذه الابتسامة.. غير أنها، ولسبب غامض لم يفهمه.. بل عجزت هي الأخرى عن فهمه، لم تستطع إتحافه ولو بنظرة أو ابتسامة شحاذ الغرام، وقال في نفسه:

- إنها مثله تعاني لكنها تكابر.

فغمره إحساس بالعطف عليها وأتحفها هو بتلك النظرة وهذه الابتسامة.. فانهمر من أعينهما الحب الساكن في أعماقهما.. وكان حوارًا رائعًا صامتًا تجلى في حركة لا شعورية من أناملهما راحت تتقارب ببطء وحرارة حتى تماست وتماسكت على هون، وود الاثنان لو كانا أقوى قليلا.. ولكن أنى لهما القدرة على تبادل فروض التواد أمام أعين ابنتيهما اللتين جمع المكر الحسن نظراتهما ونظرات شقيقهما الصغير الذي كان يراقب ما يدور أمامه بابتسامة تنم عن إدراك بكر وحس طفولي بريء بالحب الحقيقي.. رباه.. إنه صغير.. ليكن.. يجب أن نسلم بأن أبناء هذا الجيل يولدون كبارًا وفي عيني كل منهم وأذنيه أدوات تنقية حديثة للرصد والترصد.

***

أوشك أن يجذبها من يدها ويضمها إلى صدره أو يرفعها إلى شفتيه كما كان يفعل في الأيام الخالية في تقليد لا إرادي لما ألف أن يشاهده في دور السينما أو مسلسلات التلفاز، أو يحمل بين ذراعيه الجمل وما حمل إلى غرفتهما، فقد كانت ليلة جميلة تستحق أن تعاش بعد أن ولت كل من شمس وقمر ظهريهما لهما وتشاغلتا ببعض شئونهما المنزلية، بينما تسمر الهلال الصغير بالأرض يتفرس والديه بنظراته، وسأل بغتة في براءة:

- ماذا تريدان أن تفعلا؟

وكان سؤالا مثيرًا يستحق أن يؤكل عليه من وجنتيه، فانكب عليه الوالدان وأغرقاه في أحضانهما وانهالا عليه لثمًا وتقبيلا، وما هو إلا أن خلص بدنه الرقيق الذي لم تكتمل له بعد في الدنيا أربعة أعوام من بين أذرعهما وراح يمسح عن محياه ووجنتيه آثار القبلات بطريقة أضحكتهما وهو يصيح باحتجاج حقيقي:

- ألم تأكلا لحمًا من قبل؟

- آه.. أي عسل يسيل من فم هذا الولد الشقي.

وانهالت عليه دنيا تبغي أن تبتلعه في بطنها ثانية، فقفز أمامها ثم استدار إليها كما لو كان يدعوها لتلعب معه.. وبالفعل استجابت له ولاحقته في ركضه أمامها حتى انتهى بهما الأمر إلى لعبة «الغميضة».

وانصرف آدم خارجًا وركب السيارة قاصدًا المحطة في همة بعد هذه المنشطات التي حقنته بها أسرته الجميلة، وألقى نظرة عندما بلغها واجتاز الساحة الكبرى إلى المطعم الهندي باحثًا عن صديقه فارس حمزة فلم يره بين الجالسين الذين لوحوا له بأيديهم للنزول إليهم ومسامرتهم وشرب الشاي أو القهوة باللبن التي يحبها.. وازداد حبه لها في تلك الليلة البديعة التي صفت فيها السماء وصار لبياضها (الجرافيتي) لمعة وضاءة جعلتها تبدو كلجة فضية لا نهاية لطولها وعرضها يمعن فيها آدم ناظريه

وتوشك عيناه أن تنغرسا في نجمة أو نجمتين من تلكم الأنجم المتلألئة التي ترصع صدرها كما ترصع العقود واللآلئ صدر حسناء في ليال القمر الدافئة.

وانبعثت في ذهنه لسبب لا يعرفه صورة أخرى مغايرة لأراض أخرى اجتاز لها خياله البحار والمحيطات حتى وصل إليها بما توفر لهذا الخيال من قوة وتدفق، ورآها تغرق في الجليد والبرد الشديد، قد أظلمت سماواتها والقوم يحاولون إنارتها بأنوار «كلوبات» معلقة من الطائرات وكرات «الليزر» وبما تشيعه صواريخ الألعاب النارية التي يطلقونها من أضواء متعددة الأشكال والألوان كاشفة وللبصر خاطفة، إنه جو الشتاء المحبب لديهم الذي لا يكون لعيد «الكريسماس أو الكابودانو» معنى من دونه، على عكس ما يفضله القوم هنا، ولله في اختلاف خلقه شئون.. واسترد آدم عيناه من بين موائد أصحابه ومريديه بسرعة وتحول إلى مسكن فارس وطرق الباب فخرج إليه وهو يتعجله للمسير به بسرعة قائلا:

- ابن حلال.. كنت سأتصل بك لتحضر نعمة والأولاد من المطار.

وفي الطريق عرف منه معلومات جديدة عنه.. فهو من صعيد مصر.. ومن الأثرياء هناك.. له الكثير من الأراضي والبيوت والعمارات، ويمتلك ورشة لصنع البلاط و«الموزايكو»، ومصنعًا لتهذيب أحجار الرخام وتحويلها إلى صورة الألواح المستوية التي نراها عليها، ومحال لتجارة الحديد والإسمنت ومواد البناء، وقد كانت هذه الأملاك تتطلب وجوده بصفة دائمة معها، غير أنه آثر العمل والإقامة بالسعودية تحاشيًا «لثأر» على عائلته لعائلة أخرى هناك ترى في شخصه أعز وأغلى فرد في عائلته، ولذلك وقع عليه اختيارهم للقصاص، على الرغم من أنه لم يكن الفاعل الأصلي في الجريمة التي أودت بحياة ابنهم.. بل لم يشارك فيها

من قريب أو بعيد، ولم يعلم بها إلا بعد وقوعها، وعبثًا حاول التصالح معهم وأغراهم بدفع دية كبيرة تعويضًا عن فقد هذا الابن، عن طريق الوسطاء والوجهاء من رجال الأجهزة الشعبية والمحلية ورجال الدين الذين تدخلوا لتسوية الأمر وتحقيق السلام الاجتماعي.. ولكنهم رفضوا كل العروض وأصروا على نيل الثأر ووضع نهاية لمفاوضات السلام بأن بدأوا فعلا في مطاردته وملاحقته بإطلاق الرصاص في هواء كل مكان يصل إلى علمهم أنه ينتمي إليه أو يختبئ فيه.

وقد كانت نعمة زوجته امرأة كاملة الأنوثة وصعيدية قوية، فامتلكت زمام جميع أعماله في يديها وسيطرت على إدارتها وتنميتها سيطرة تامة. كانت سيدة متعلمة وخريجة تجارة عليا، أنجبت منه ولدًا وبنتًا، وكان الاتفاق أن يهرب إلى السعودية ليعيش فيها ويعتبرها منفاه الآمن إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.. بعقد عمل أو من دون لا يهم.. فهو ربما المصري الوحيد هنا الذي في غير حاجة لدخل يأتيه من عمل هنا، وكانت الحصافة تستلزم أن تزوره مع الولد والبنت في مواعيد غير ثابتة وسرية، حتى لا يتابعها الخصوم ويصلوا إليه، لكنها مع ذلك كانت في الغالب لها مواعيد شبه ثابتة.. ولم يكن سريًّا إلا موعد القيام والعودة في إجازة نصف العام الدراسي القصيرة وفي إجازة الصيف التي كان يلتئم فيها شمل الأسرة وقتًا طويلا، والتي كان فارس ينتهزها ليغدق عليهم الكثير من المشاعر والعواطف تعويضًا عما فقد في باقي العام، وللتخفيف عن كاهل الزوجة رتابة وثقل ما تحمله بجدارة من أعماله، ولو لبعض الوقت، التي أوكلها إليها توكيلا عامًّا تتصرف كيفما تشاء ولو حتى باعتها لنفسها.. وهذا التوكيل كان أقل تعبير عن حبه واحترامه وثقته.. وفي أوقات وجودها معه خارج البلاد كانت تترك أمر رعاية الممتلكات والأعمال لشقيق لها كرس حياته لخدمتها ومعاونتها فلم يكن له من

عمل آخر غيرها.. وربما كان يعزى إليه الكثير من نجاحاتها.
كانت سيدة منتقبة تتسربل بالسواد من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، ولم يرَ آدم بالطبع ما وراءه، لكنه من نظرة عينيها الكبيرتين الواسعتين اللتين ما كانتا تستقران في مكان أبدًا فهي دائمة التطلع والتفحص كما لو كانت تتلمس ما ينذر مبكرًا بوقوع خطر.. ومن لونهما الذهبي الصافي كالعسل.. ومن سمت ورقة محيا ابنتها بل وابنها خمن أنها جميلة ترى (مع ما تعانيه في الحياة من كمد) الوجود جميلا.. لكن ماذا يبغي من وراء فضوله؟ إنها امرأة الرجل الوحيد القادر على إخراجه من ورطته هنا التي وقع فيها بموت كفيله وامتناع أولاده عن تثبيت الكفالة واستمرارها لأي منهم، وكأنه (لطفًا) كان بينه وبينهم عداء أو ثأر.. ولكن ها هي محركات البر الضعيفة للأبوين تتوقف عنده.. فيأبون انتسابه إليهم كعامل.. ربما لغيرتهم من الحب المعلن الذي كان يبديه الأب له، أو من شعورهم بالذنب الذي كان يدفعهم لإبداء عكسه، أو لعلمهم بأنه لم يعتد أن يكون عاملا بالمعنى المعروف، فإن هي إلا مجرد خدمات طفيلية نشأت من انشغالهم بحياتهم وقد مات الأب وانتقلت الأم العجوز للعيش في كنف أحد الأبناء.. ولم تعد بها أو بهم حاجة إليه.. ووجب قطع شجرته من جذورها.
- آه.. لشد ما أنا في حاجة إلى عصا سحرية تنتشلني كأب وراع من مشقة انهيار كيان أسرتي، لأن إعادة البناء صعبة غاية في الصعوبة.. ولشد ما تزخر هذه البلاد كغيرها بالمشاكل الإنسانية للأجانب.
حدث نفسه بهذا وهو يقود السيارة (البيك أب) خاصته، ذات الكابينة المزدوجة وصندوق النقل المعقول الحجم الذي امتلأ عن آخره بالحقائب والأجولة والقفف، تلك المصنوعة من سعف النخيل ذات الشهرة في أحمال المسافر الصعيدي والممتلئة في العادة بخيرات الله.. التي لم تنسَ

السيدة نعمة أن تهدي إليه إحداها وهي محكمة الغلق من أعلى بقماش ثقيل تمت خياطته بها بدقة وعناية.. ولم يسل عن فحواها أو يتردد في قبولها طبعًا، فقد كانت هدية للأولاد، على حد تعبيرها، وانصرف راجعًا لأسرته وهو يمني النفس بأن تكون «القفة» بها من الخيرات ومواد الغذاء المصرية ما يكفي الأيام الباقية لهم هنا.. قبل أن يرتحلوا إلى مكة لأداء فريضة الحج.. التي سبق له ولأسرته التمتع بها، غير أنه كأي مسلم لا يشبع ولا يقنع بحجة واحدة في عمره، لأنه لا يعلم إن كانت ستستمر في حياته الباقية مقبولة ومبرورة.. ولذلك يعاود أداء المشاعر المقدسة.. المرة تلو المرة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، عسى أن يقبل الله سبحانه وهو الشاكر العليم.

- آه.. وما أشد نور الله هنا في تلك البلاد أيضًا.

تمتم لنفسه مضيفًا، وكان حديثه إلى تلك النفس لا ينقطع أبدًا لأي سبب.. فما يكاد يكف عنه لسبب أو آخر حتى يعود إليه.

وفي البيت استقبله آله، بالقفة التي لم يروا لها مثيلا يدخل بيتهم منذ أمد بعيد، استقبال العظماء والفاتحين، وفتحوا مغالقها ليجدوا فيها خيراً كثيراً فعلا.. وكأنها سوق صغيرة تم تصغيرها وتكثيفها في تلك القفة، أو كأن من أعدها كان يعرفهم وكان الأهم من ذلك يكنّ لهم حبًا جمًا.. أو قل هو كرم المصري الأصيل عندما يكون شبعانًا.

وكان أهم محتوياتها «ذكر البط» ولفة لحم أحمر بقري أكيد، فقد كانت تعلق به بعض نتف من الدهن الأصفر، فأرض مصر تزخر بمنتجات غذائية خاصة مثل الجبن (المعتق بـ«المش» وملوحة السمك المعتق بـ«المش» أيضًا) ويبدو أن «المش»، وهو محلول اللبن الرائب القديم المعتق بالبهارات والملح الحصى لا الناعم، ومختلف صنوف قرون الشطة الحمراء وقشور ثمار الموالح، وأشهرها النارنج، هي القاسم

المشترك الأعظم في ما يحبه المصريون من منتجات بلادهم المعتقة في وسط المادة الطبيعية الحافظة التي تتوارثها الأجيال على مدى التاريخ التي تسمى «المش».

وكان في القفة أيضًا مادة غالية اعتبرتها دنيا أغلى ما فيها؛ برطمان لا بأس به من «السمن البلدي» وآخر من عسل النحل، لا غش فيهما.

هذه كانت أمسية جميلة فعلا.. أمسية وداع عام مضى يضاف إلى عمر البشرية.

وأيا كانت الإنجازات الشخصية لآدمي.. أو الوطنية لشعب ما ضعيفة لا تذكر فهذا لا يغبط أيًا منهما حقه في الابتهاج والاحتفال.. أيًا كانت انتماءات هذا الشخص أو الشعب العقائدية فإن عامل الزمن واحد بالنسبة لكل البشر.. وما يتعرض له البشر عن بكرة أبيهم من فعل هذا العامل واحد لا يتغير.. وسبحان الله الذي لا يتغير.. مالك الملك الذي يغير ولا يتغير له ملكوت كل شيء.. الله الأحد.. الفرد الصمد.

obeikandl.com

- ٩ -

غيرت القفة هدية السيدة نعمة الكريمة في خطة آدم للانسحاب والرحيل من المملكة تغييراً مهمًا، ولأن السيارة كانت السبب الأول والأخير لهذه الهدية القيمة، فإنها فأل الخير ووجه السعد بالنسبة له ولأسرته، وحرام عليه أن يبيع هذه السيارة بالذات، بل إن عليه أن يحتفظ بها ما دام هو حي يسعى.. كضمانة للرزق والخير الوفير.

وقد كان، وقرر ألا يبيعها فلم يعد يخرج كما يفعل يوميًا في الأيام الأخيرة قاصدًا «جراج» بيع وشراء السيارات بالأرض المخصصة لمعارض السيارات بالمنطقة الصناعية، وأضاف إلى حزمة الأوراق التي يقوم بتخليصها من أجل المغادرة.. ورقة جديدة.. هي ورقة الدخول بالسيارة من خلال بوابات الجمارك المصرية «الحرَّاقة» بنظام «الترِبْتِك» الدولي، الذي يتجدد كل ستة أشهر بعودة السيارة إلى الخروج من حيث أتت من بوابة الجمارك المصرية، إلى بوابة الحدود الخاصة بالقُطر الآخر، وبعد أن تستقر خلفها الوقت المخول للتجديد تعود ثانية للبوابة الأولى وتحصل على إقامة مدتها ستة أشهر أخرى.

هكذا يعامل الأجانب في كل وطن.. حتى السيارات.. فلماذا يحزن؟!

وهذا النظام يكفل الحيازة في حالة عدم القدرة على دفع مهر السيارة بالجمارك لتجنيسها بجنسية بلده إذا ما شاء له قدره أن يبقى بوطنه على الدوام.

واستحسن جميع أعضاء أسرته هذا القرار، فقد كان لهم جميعًا مع تلك السيارة ذكريات خاصة تربطها بهم، وكأنها فرد له حيويته ووجوده في كيان هذه الأسرة، ثم إن الحاجة إليها في السفر المزمع إلى مكة والمدينة للحج، ومن ثم السفر إلى مصر بعد ذلك كانت كبيرة فهي بالقطع تضمن لهم حمل كل ما يبغون الاحتفاظ به من الأجهزة الكهربائية والسجاد والثريات إلى آخره من مقتنيات أثاث بيتهم الحبيب الذي يرحلون عنه ربما للأبد.

وما لبث أن دارت عجلة الأيام وجاء اليوم السابع من ذي الحجة، وهو اليوم المقرر للسفر إلى مكة.

لم يكن بحاجة إلى وداع أحد من بني جلدته ومصريته في القرية التابع لها التي كان يقيم بها أو القرية الأم، أو حتى بعض معارفه بالمدينة لأن الجميع قر عزمهم في ما يبدو إلى الحذو حذوه والحج، وإن كان ثمة ضرورة لوداع فهو وداع معارفه وجيرانه من السعوديين أو الوافدين المقيمين، هؤلاء الذين طفرت الأدمع من أعين بعضهم، وعلى الأخص نفر من ملاك المزارع التي يعمل بها أقرانه من المزارعين المصريين أو الأجانب، أو نفر من جيرانه، وعلى وجه التحديد جاره الكهل الذي كان يتردد بزوجته على المستشفى العسكري، الذي لم ينقده أجرًا (قط) عن خدمته في هذا اليوم، الذي تعرضت علاقته به لاختبار قاسٍ والجندي الميمون يصر على أن نقوده هي السبب المباشر والوحيد لهذه الخدمة، التي لا علاقة لها البتة باستحقاقات الجيرة التي أحب الكهل الطيب إظهارها له.

لم يعطه أجرًا إلى اليوم لا لعلمه بتنازله المأثور عنه في حالة المرض، وإنما مخافة أن يجرح شعوره ولكي يؤكد له أن الجندي لم يكن محقًا.

وكان لتلك الدمعة التي فرت قرائن أخرى.. فقد كانت لدنيا علاقات

وثيقة بالزوجة المريضة وببناتها وزوجة ابنها.. وما أكثر المرات التي كانت تنشط لخدمتها، فقد كانت على علم ببعض الإسعافات الأولية والتمريض، وكانت تجيد مثلا تنشيط عضلة القلب وقبلة الحياة.. وتعليق محاليل الجلوكوز والأملاح المنشطة للمرضى وتوصيلها بأوردتهم.. إلى آخره من أعمال التمريض البسيطة.. فوق ما لها طبعًا من مواهب في تجميل البنات يوم زفافهن، وفي غير هذا اليوم في المناسبات الأخرى، لا سيما منها ما يخص التجمل للزوج.

ولا ينسى نبرات صوته وهو يتهدج تأثرًا من موقف الوداع وهو يشد على يده مصافحًا بيد وممسكًا بمرفق ذراعه باليد الأخرى قائلا:

- اعتبرني أخًا أكبر.. أو أبًا لك هنا، ولا تتردد في مراسلتي إذا ما تعرضت لشدة لا قدر الله.

وسكت لحظة ثم أضاف بلهجة أكثر رصانة وثقة:

- وإذا لم تمضِ الإجراءات مع الكفيل الجديد في طريقها الطبيعي.. على «خاشمي».. أنا مستعد لاستقدامك سائقًا خاصًا لي.. لأكون لك مثل عمك المرحوم سعيد مغني.

وشكره آدم في أدب جم وشعور فياض بالمحبة والأخوة في الإنسانية والدين وكل الروابط التي تربط الشعبين المصري والسعودي.

وفي الوقت المحدد للسفر كان (وجميع آله الإناث) قد انتهى من حزم وتأمين كل الأمتعة في مكانها بالسيارة، واتخذ آله أيضًا أماكنهم المعتادة التي ألفوا في الأيام الحلوة التي خلت، إضفاء ضياء الدنيا والشمس والقمر لمقاعد بعينها، أما الآن فما أشد ما تباينت أضواء خبت من شجو الفراق وتباريح الأحزان والآلام.. وما أقل تمدد الهلال الخصيب على حجر أمه الذي كان عرشًا يتربع عليه في تلك الأيام.

كان كلما مر على بيت أو بناء في شارع.. أو مزرعة.. أو مسجد.. أو محل

تجاري في القرية التابعة أو الأم يطلق صوتًا من بوق التنبيه بالسيارة ويرفع يده ملوحًا لمن تصادف وقوفه من المعارف، فكانوا جميعًا يردون تحيته برفع كل الأذرع في الهواء وكأنها أعلام إعلان دوام المحبة وتمني توفيق الله وحفظه من وعثاء الطريق مع صيحات مثل: مع السلامة.. في أمان الله.. أو حياكم الله أينما حللتم.. وطفرت من عيني آدم تلك الدمعة الحرى رغم أنفه تأثرًا لأنه يعرفهم جميعًا فردًا فردًا لإقامته الطويلة بالمكان ولحميمية ومتانة صلته بهم وبالمكان أيضًا.. المكان الثري الواسع الذي لا يعني الأرض فقط.. بل الأرض وما عليها من جماد وأحياء.

وتتابعت أمامهم وحولهم مرئيات المكان الخالدة في ذلك الصباح الذي أشرقت فيه الشمس عليهم حمراء العين تنشر أشعتها الحمراء والبنفسجية وبعض ألوان الطيف في البداية الباكرة، ثم مع مرور الوقت تواصل عملها في صعود دارات السماء فاستحالت جميع الألوان ذهبية خالصة.

وما زالت السيارة تلتهم الطريق الجبلي الممهد الذي هبط بهم بعد مرحلة منه واجتياز إحدى العقبات التي تزخر بأنفاق تم شقها في الجبل، التي يربو عددها على العشرة، وهي بمثابة السلالم أو الدرج الذي تهبط السيارة عليه تدريجيًا إلى السفح من الجبال، حيث أبرز ما تشعر به بمجرد مس العجلات لأرض السهل الذي ما زالت تحوطه تلك الجبال هو شعور المرء بارتفاع في الضغط الجوي وعلامته طنين وحركة (وَش) في طبلة الأذن تتنازع ملامس السمع بشدة والتوازن بأقل شدة.. وكذلك ارتفاع في درجة حرارة الجو، دعا آدم وأسرته إلى التخفف من بعض ثيابهم الثقيلة وارتفع به مؤشر الحرارة الأحمر في السيارة إلى منتصف التدريج بعد أن كان قد نام طويلا عند الصفر في الأيام والسنين الفائتة.

ثم بعد نحو ثلاث ساعات من السير في المنطقة الجبلية شاهد آدم وآله آية كبرى من أسرار الخلق في الطبيعة فوق ما ورد بالفرقان ورسخ بالأذهان.. هي أنه كلما اقترب أمد الانتقال من طبيعة إلى طبيعة يكون التدرج صفة سائدة في أروع صور الوئام والتعايش السلمي.

فها هي الصخور تتناقص وتقل مفسحة المجال للرمال التي تتزايد بتدرج دقيق منقطع النظير يحترم أغلبية في المكان تتساقط.. إنه تبادل مزدوج بين عنصرين متناقضين تعلو مظاهره على أكمل وجه.. فمنطقة صخور تختفي تعقبها منطقة رمال تظهر.. وهكذا إلى أن انعدمت الصخور تمامًا وأصبحت السيادة والأغلبية للرمال فحسب في هذا السهل الساحلي الذي يسمى «تهامة»، والذي يبدأ من مكة، قبلة الروح المطمئنة، قبيل صعودها للجنة من تحت أقدام أمهات جبال تسلسلت لتحاذي بحرًا أحمر وامقًا ولهانًا يضرب سفوحها بيأس عله يظفر بنظرة عابرة أو بسمة آمرة ليهدأ حتى تمام لقاء الأيدي الناعمة على مشارف اليمن السعيد.

وبعد مسيرة ساعتين أخريين بسرعة منتظمة للسيارة (تتماشى مع قانون المرور) بلغ «ميقات» أهل الجنوب واليمن الذي يسمى «يلملم» قبل أذان الظهر.

ويلملم جامع كبير يتميز أول ما يتميز بدورات مياه نظيفة كثيرة العدد مجهزة بحمامات مياه ساخنة وباردة، وثمة جناح مخصص للرجال وآخر للنساء بما يضمن الانفصال الكامل والعزلة التامة، يقع هناك على الناحية الأخرى من بدنه العتيد ويجعله يبدو وكأنه طائر بجناحين.

وعلى الرغم من أعداد سيارات الوافدين الغفيرة لم يجد آدم صعوبة في إيقاف سيارته على جانب من السور الحديدي الذي تنغرس أعواده وتتراص على مسافات منتظمة في مرقد خرساني بطول السور الذي يلتف محيطًا الجامع والفراغ المتسع حوله.. وحالما تحرر من مقود السيارة

ومكابحها تفقّدها في وقفتها بين مثيلاتها إلى أن اطمأنت نفسه، ثم استدار إلى حيث كانت دنيا وابنتاه في شغل شاغل لإعداد ما يلزمهن ويلزمه من عدة للإحرام.. تريث واقفًا حتى فرغن وأمددنه بمنشفة وصابونة وخف لا خيط فيه واحتفظن لأنفسهن بالمثل، وإن كان قد ازداد عليهن بتسلم قطعتين بيضاويتين من نسيج قطني ناعم هش وسميك معًا في ما يدعى بملابس الإحرام ليتدثر بها بعد الحمام، أما هن فلبسن العباءات السود المعتادة.

على هذا النحو توجه إلى «ميضة» الرجال مصطحبًا معه ابنه هلال المزود بنفس العتاد الشخصي لأنه كان قد قرر أن يكون حج هذا العام دورة تدريبية للصغير على الحج تنفعه في قابل الأيام.. وقضى الاثنان حاجتهما واستحما وخلعا ملابس الدنيا ولبسا ثياب الإحرام ورددا (بعد تدريب يسير) في نفسيهما نية الحج وعلا صوتهما بالقول:

- لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.

لم يكن أذان الظهر قد رفع بعد وولجا باب الجامع وصليا لتحيته، ولم يفكر الأب في تعليم ابنه كيفية أداء النسك، لعلمه أن الأم علمته (كشقيقتيه) جميع الصلوات وخطواتها الحركية في وقت سابق وحفظته بعض سور القرآن القصيرة، وأديا مع باقي المصلين، الذين تدثروا جميعًا بملابس الإحرام البيضاء، ركعتي نية الحج المفرد، وبعد ذلك أذن الظهر فانخرطا في الصفوف لصلاة الجماعة ثم صلاة السنة.. وبعد أن انتهيا خرجا مع جموع المصلين الذين تتعالى أصواتهم بنداء التلبية لله.. وتقابلا عند السيارة مع العنصر النسائي من الأسرة اللائي قمن بعين الصلوات خلف نفس الإمام في المكان المخصص لهن.

ولمح آدم على مبعدة من الجامع باحة تغص بالباعة الذين تراصت عرباتهم ومحلاتهم لبيع احتياجات الحجيج من المظلات وحصائر

obeikandi.com

الجلوس وملابس الإحرام وأدوات الاغتسال والمناشف والصابون وأطايب المشهيات من الشراب والطعام بجانب روائح المسك والسدر والعنبر والكافور إلى آخره من العطور الطيبة النفاذة التي تجذب الملائكة وتنفر منها الحشرات والهوام السائمة في الجو.

كان بحاجة لحزام عديد الجيوب لحفظ أوراق السير والنقود فابتاع واحدًا أبيض اللون، كما ابتاع بعض الاحتياجات الأخرى التي تلزم افتراش الأرض والتظلل.

وعندما استقر الجميع في جلستهم بالسيارة ذكرهم الوالد بأنه من الآن وحتى أداء صلاة العيد ورمي جمرة العقبة وعمل طواف الإفاضة حول الكعبة ونحر الهدي وقص أو تقصير الشعر عليهم أن تلهج قلوبهم قبل ألسنتهم بدعاء التلبية.. وما زال بهم يذكرهم ويردد بصوت جهوري أن لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.. إلى أن وصلوا في قول طويل إلى مشارف مكة وذكرهم أيضًا بدعاء وصول ودخول المدينة المقدسة وردده وهم يرددون خلفه مع قرب إعلان أذان العصر.

كان هذا القول الطويل قد تجمع لسببين.. أولهما أنه لما أصبحت مكة المكرمة على مرمى البصر من جميع القادمين إليها الملبين لنداء ربهم، تكاثفت في صورة هبات متقطعة ومتوالية كميات ضخمة من الضباب وقلت الرؤية، وكان لزامًا أن تسير جميع المركبات ببطء وحذر متراصة خلف بعضها.. كل في دوره من ناحية أسبقية الوصول.. وتعجب يسائل نفسه:

- لمَ هذا الضباب الحاجب للرؤية قد تجمع واصطف قرب مداخل مكة المكرمة.. أليفرض على الجميع ما يجب التحلي به من توقير وإجلال للمدينة المقدسة بالسير ببطء وخشوع؟ كما لو كان بديل حرس الشرف

الذي نراه مصطفًا في الاحتفال بقدوم الملوك ورؤساء الدول، أو بالأحرى المثيل الطبيعي لهذا الحرس.. وتذكر فعلا صوته مرددًا بغتة:

- لبيك اللهم لبيك.. قولوا معي.

والسبب الثاني تمثل في بطء إجراءات التفتيش على الأوراق المسوغة للحج في مركز استقبال الحجاج الكبير الرابض في نهاية الطريق بعد تقاطعه مع الطريق المؤدي على الحزام إلى مدينة جدة، الذي ما إن يتم لك اجتيازه بعد التفتيش تكون قد ظفرت بشرف دخول مكة المكرمة، وجاوزت ما على نهايته ما تناثر خفيفًا من ضباب حرس شرفها الطبيعي. واجتاز آدم بسيارته وآله هذا المركز قاطعًا بعض الشوارع والطرق الطولية والعرضية والعلوية والسفلية إلى أن بلغ الموقف الرئيسي لتخزين عربات الحجاج والمدعو «موقف كدي»، الذي تسترعي لوحاته الإرشادية توًا الأعين الباحثة في كل الشوارع المؤدية حتى تصل إليه في أمان الله، ليودع أصحابها سياراتهم بسلام يقطع كل صلة لهم بها تمامًا طوال أيام إقامتهم وحجهم بمكة المكرمة، وفي بقاع المشاعر المقدسة بمنى وعرفة مباشرة في رحلة الذهاب، ومرورًا بمزدلفة التي تتوسطهما في رحلة الإياب.. وتكون وسيلة الانتقال بينها إما الحافلات وعربات الأجرة المحلية المرخصة داخل المدينة، والمقيمة بها طوال العام، وإما إذا كان الحاج قادرًا (لشدة الزحام) فالمشي أسرع من الركوب وأكثر راحة للصدر والجيب، فالأجرة تتأثر هنا، كما في كل بقاع الدنيا، بالعرض والطلب.

وإذًا أضحت السيارة العزيزة وديعة لدى الشرطة التي تحرس الموقف بإيصال يصفها وما تحمله على ظهرها مما خف وزنه وغلا ثمنه من «عفش» بيتهم الذي فاتنا أن نذكر، مع الاعتذار، أنه تم التخلص من بقيته بالبيع لبعض المقيمين بالقرية.. وبعضه قامت دنيا بمنحه هدية لبعض جاراتها، إذ لم يكن في وسع آدم العثور على من يحتاجه ومن ثم

يدفع ثمنه.
- لبيك اللهم لبيك.. قولوا معي.

***

على عجل لا سبب له انتقى كل منهم مقتنياته الشخصية الضرورية ثم بارحوا المكان الذي تقف فيه السيارة الحبيبة ساكنة تحمل عنهم أثقالهم كالخادم الأمين النبيل، وهم يلقون عليها نظرات من خلف ظهورهم وكأنهم يودعونها بتلك النظرات إلى حين.
وما هو إلا أن اقتحم عليهم الشارع الرئيسي مسيرتهم الصامتة المشغولة بالتلبية وذكر الله.. وبحثت الأعين عن موقف الحافلات العامة فوجدوا عنده خلقًا كثيرًا يصعب مزاحمته للصعود إلى الحافلات الموصلة إلى المسجد الحرام والكعبة بيت الله.. فضلا عن عدم الرغبة في المزاحمة أصلا لأن مناسك الحج قد بدأت وعليهم جميعًا (كما على جميع الحجيج) حذر المخالفات الصغيرة من اللغو والرفث، تلك التي يصعب ضمان عدم وقوعها في الأماكن المزدحمة.. التي تعتبر مصيدة للأخطاء التي تذهب بما كابده الحاج من مشقة مع الريح.. إذا ما وقع فيها.
وكان لزامًا عليهم ركوب سيارة أجرتها «حراقة» إن أرادوا حفظ أنفسهم من احتمال التيه والفرقة نتيجة الزحام الضاغط الذي يؤدي إلى ابتعاد الأجساد المترابطة عن بعضها مهما تماسكت أو تشابكت الأيدي ومهما قويت قبضة يد الأب المسئول عن رعيته.
ولما طلب سائق تطوع لتلبية استغاثتهم للوقوف أجرًا غير مضاعف دهشوا في البداية وقالوا لأنفسهم:
- ها هو مكي أصيل نأى بنفسه وارتفع عن قانون السوق الأزلي.. ها هنا لكل قاعدة غير مستحبة استثناء.

ولكنهم فوجئوا بأن هذا محض سوء فهم وخيال، فالسائق الملاك يطلب أجرًا يتعدد بعدد أفراد الأسرة، وهذا معيار للسوق أعلى كسبًا.. وأصر على ألا يستثني الهلال الصغير وهو يكاد يصرخ قائلا:

- خلصني.. لا تضع وقتي.

فركب الأب أولا في المقعد الأمامي ومن خلفه ركبت دنيا والفتاتان والولد بالمقعد الخلفي وفي سرعة انبرى السائق ليصل إلى أقرب مكان في شارع مجاور للساحة الكبرى المحيطة بالمسجد الحرام ليلفظهم ويلتقطه غيرهم للركوب معه.

- لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. قولوا معي.

ودخلوا المسجد الحرام بعد أن اجتازوا الساحة الخارجية المكسوة بالرخام الناعم الزلق الذي يقف على نظافتها في تحفز وتنمر لأية نفاية تشوه رونق ونظافة المكان عمال أقوياء من منسوبي شركة الصيانة التي تستخدم العمال القادمين من البقاع الفقيرة لدول آسيا.. الذين لا يكلون ولا يملون العمل آناء الليل وأطراف النهار، فلا يكاد العامل يلمح ورقة أو أحد الأغلفة أو الأكياس أو العلب أو الزجاجات الفارغة حتى يهرع إليها ويلتقطها ويودعها كيسًا لتجميع القمامة محمولا على عربة صغيرة تحوي خزان مياه وعبوات لمواد سائلة أو مسحوقة لغرض التطهير والتنظيف يقوم بدفعها بيد وباليد الأخرى المكنسة أو الممسحة، وبدا لآدم أن هؤلاء العمال كانوا يطمعون في ما هو أكثر وأبقى من أجر العمل من الله.. وفي الجائزة الكبرى لمن يتقن عمله.

وبعد قليل أذن لصلاة العصر فقام آدم ومن معه بأداء ركعتي السنة ثم الصلاة مع بقية المصلين، وتحول لتحية بيت الله الكعبة المشرفة بالدوران حولها سبعة أشواط بدءًا من استلام الحجر الأسود وهو يحمل ولده على كتفيه مسقطًا ساقيه على صدره ليقيه مخاطر تكالب الجموع

الغفيرة على الطواف في وقت واحد، وكلما أتم شوطًا ببلوغ الخط الأسود المرسوم على بياض الرخام المبطن للأرض نظر ناحية الحجر المنشود ورفع يده محييًا وهلل داعيًا:

- الله أكبر.

وبعد أن يبتعد بخطوات يضيف:

- ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ثم يقبل ظهر تلك اليد حامدًا شاكرًا الله على أنه أعانه حتى أفلح في إتمام شوط، وواصل مع الطائفين الذين لم يتسنَ لهم مثله رؤية الحجر من الزحام الشديد، واكتشف في غمرة إغراقه في الطواف والدعاء أنه افتقد إلى حد بعيد وجود زوجته وابنتيه إلى جانبه، لأنه فوق كل الأسباب كان يسرع في المشي بخطى متقاربة ويرمل في الأشواط الثلاثة الأولى ككل الرجال، وبدا الأمر كما لو كانوا في يوم الحشر من شدة اهتمام الإنسان بشخصه المفرد أيضًا.

ونام الصغير مكبًا بوجهه على جانب رأسه وأوشك أن يقع لتدوسه آلاف الأقدام لولا أن عناية الله كانت تنبهه في آخر لحظة من غيبته العميقة في أداء المشعر وما كان يبذله من جهد لتذكر الأدعية المحفوظة والمأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن الله كان حاضرًا (جل شأنه) مع الجميع يعينهم ويأخذ بأيديهم ويزهو بهم.

ثم ها هو ينتهي من الطواف ويتسمر بعد أن اجتاز بصعوبة بالغة دوائر وحلقات الطواف التي تتلاحم فيها الأجساد دونما فرصة لثغرة.. وخرج بعيدًا عند أول درج الأعمدة الدائرية التي تصنع بدورانها هي الأخرى طوافًا آخر في تحديد دقيق لأبهاء المسجد التي تدور فلا تعرف أولها من آخرها.

مكث غير بعيد ينتظر حبيباته في هذا المكان المشرف على ساحة الطواف، ولما تذكر حاول أن يقترب من مقام إبراهيم قدر إمكانه ليصلي فلم يستطع، عندئذ اكتفى بالوقوف في مقابله وبدأ يصلي ركعتين استشعر إبانهما أن صغيره الذي استماتت أصابعه العشرة في قبض القطعة السفلية لثوب إحرامه حتى يوشك أن ينزعها عنه لولا لطف الله ثم إحكامه رتاجها بالحزام المتعدد الجيوب، قد أفلته لأن ثمة من جذبه إليه خلفه فتعجل، ولما انتهى والتفت رأى دنيا وابنتيه في أروع صور الإذعان والخشوع وقد أخذ منهن التعب كل مأخذ ينتظرن الخطوة التالية.. آنذاك تبسم في سعادة استنار لها وجهه.. ووضع الهلال على كتفيه ثانية وهب واقفًا في حمية ونشاط وصاح:

- قولوا معي.. الله أكبر.. رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم.. إنك أنت الأعز الأكرم.

فقلن معه عندما كرر الدعاء وسرن خلفه إلى حيث دخل من «باب الصفا» للسعي بين الصفا والمروة الذي يتطلب أداء سبعة أشواط تبدأ من تبة الصفا التي ترتفع عدة أمتار ارتقاها آدم وانحرف إلى شمالها حتى رأى الكعبة وردد وهن يفعلن مثله ويرددن في أعقابه:

- الله أكبر ولله الحمد على ما هدانا.. لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.. لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.. لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

ثم نزل وسعى مشيًا وهن في أثره، وعندما بلغ المنتصف نظر فرأى علمين خضراوين بينهما مسافة، مطبوعين ومتغلغلين بفاصل التمدد بالسقف المرتفع والجدارين المتقابلين ورخام الأرضية فتحول مشيه إلى

obeikandl.com

هرولة حسب ما يقضي النسك بين هذين العلمين.
ثم توقف لدى العلم الثاني حتى لحقت به رعيته الرهيفة فعاد يمشي مشيته المعتادة إلى أن بلغ تبة المروة هذه المرة فلم يكتف باستلامها بأطراف أصابعه وارتقاها هي الأخرى ووقف ووجهه إلى الكعبة حتى رآها ثانية على يمينه وردد وهن يرددن خلفه:
- «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».
ثم نزل ومشي دون هرولة في شوط الإياب من المروة إلى أن بلغ تبة الصفا حيث البداية لشوط آخر، وثابر على ذلك مواصلا دون راحة حتى تمام السعي.
آنذاك نظر خلفه فرأى ثلاثتهن واقفات.. صاغرات.. ساكنات.. في انتظار أن يخرج بهن إلى مكان يعمر بنصيب من الهواء وحرية الحركة أوفر.. فخرج من باب الصفا وكل همه أن يعثر على هذا المكان النادر لفرش حصر على هيئة حقيبة تطبق كل يد على واحدة منها صغيرة.. وبعد طول بحث حانت منه نظرة إلى عطفة.. فرأى ممرًا طويلا في ظهر المسجد له حائط عالٍ وكبير (ينتهي في ما يبدو باستراحة رسمية لكبار رجال المملكة وضيوفهم)، فسار إليه وهن خلفه، وعند نقطة قصية منه بجوار حائط مصمت لا أبواب به توقف، وعلى الفور تم فرش الحصائر وانبرت دنيا (بمجرد جلوسها إلى ابنتيها) تنوي قص بعض أطراف خصلات شعرهما تكملة للمناسك، على حد علمها، فتحول إليها وهي رافعة المقص ومنعها وأفهمها أنه في «الحج المفرد» لا قص ولا تقصير للشعر بعد الطواف والسعي وإنما يواصل الحاج أداء المناسك محافظًا على إحرامه، فهو ليس متمتعًا بالعمرة قبل الحج.. فأسرعت تخفي المقص في طيات ثيابها وكأنها قد أتت فعلا مشينًا دفعها إليه حبها لممارسة هوايتها المفضلة ووجوده

معها في كل مكان تطرقه، ورفعت محياها إلى السماء بتوفز تتبتل إلى الله أن يغفر لها ما كادت ترتكبه من الخطأ عن جهالة (وما لم تنثره على الأرض من ذنوب) بينا نهض هو قاصدًا سبيله إلى حيث السوق ومحال بيع الأطعمة والأشربة مستغفرًا يردد مذكرًا في أثناء ذهابه:

- لبيك اللهم لبيك.. قولوا معي.. قولوا حتى أعود.

***

وغاب عنهم وقتًا طويلا لأن الإقبال على محال البيع والمطاعم كان على أشده، ولأنه عندما وقف في صف طويل ينتظر دوره في الوصول إلى مائدة البيع لمح سيارة في جانب الشارع توزع مجانًا أطعمة خفيفة ومشروبات غازية وعصائر، فأضمر أن يمر عليها لاستيفاء نصيبه ونصيب آله بعد أن يبتاع دجاجة مشوية وما يكفي عددهم من «أرز الكبسة»، وإذ هو في وقفته المملة ينتظر بصبر نافد لمح سيارة أخرى توزع أرغفة مملوءة باللحم وأطباقًا بلاستيكية خفيفة من «أرز الكبسة»، فخرج من صفه وخرج كثيرون في أعقابه كل يبغي الوصول إلى السيارة قبل الآخر وانقض الجميع في هجمة اختل لها توازن القدور وأصحابها وموزعيها، ووقع الطعام الطيب على الأرض منزلقًا فهرسته أقدام ملتقطيه واستحال زلقًا انزلقوا فيه هم أيضًا وكان خطأ مبكيًا مضحكًا يجب ألا يقع فيه الناس في الأيام الأخر فكيف بأيام الحجيج!

دمدم آدم وهو يؤنب نفسه:

- هذا نذير شؤم.. رباه غفرانك.. غفرانك.. هذا نذير لمن يعرف أنه «لا رفث ولا فسوق في الحج» أن يستفيق وإلا لم يجنِ من حجه إلا المشقة والتعب مثلما لا يصيب الصائم الذي لا يصون لسانه غير الجوع

والعطش.. رباه حنانيك.
وسمع رجل بهي الطلعة كلماته فهتف به:
- لا تنح باللائمة على نفسك يا رجل، أنت مثل غيرك.
وزاده قوله وربما سماحته البادية تضجرًا لسبب لا يفهمه، فشمله من أعلاه لأسفله بنظرة غير ودودة وسأله:
- من أنت حتى تعترض على أمر قلته لنفسي؟!
افترت أسارير الرجل عن ضحكة يسيرة وقال بدماثة وتبسط:
- أنا حنفي.
عاجله قائلا بتهكم:
- حنفي بتاع النورماندي تو.. اللي كلمته أمام زوجته ما تنزل الأرض أبدًا؟
قال مواصلا بساطته:
- ثم ما أسرع ما تنزل حين تنهره قائلة: حنفي. لا طبعًا فأنا زوجتي تعمل لي ألف حساب وتحبني وتهوى فنون التجميل.. ولذلك اسمها دنيا.. ولتمام التعارف، ولي بنت اسمها شمس وأخرى اسمها قمر.. أما آخر العنقود..
قاطعه قائلا كالمأخوذ:
- ولد اسمه هلال.
سأله بفضول:
- كيف عرفت؟!
فأجابه غير مصدق:
- كأنك سرقت أسرتي.
اختفت من محيا الرجل كل أمارات النور والسماحة وحلت محلها أمارات عدم الفهم والحيرة الشديدة وطفق يمطره بنظرات حذرة متوجسة كأنه

في مواجهة مع رجل به مس من جنون.. فضحك آدم وأخرج له من حافظة أوراقه المعلقة في رقبته جواز سفر دنيا زوجته المثبت به الصور والأسماء لها وللأبناء.. وغابت عينا الرجل في التأمل هنيهة ثم ضحك بغتة وأعاد الجواز لآدم الذي شاركه الضحك وبعدها تسارا وتبادلا حديثًا وديًّا وتواعدا على اللقاء ليتم تعارف الأسرتين التوأمتين إبان تلك الأيام المباركة، فإن لم تسمح الشعائر بلقاء قريب فسيكون الوقت كله تحت أمرهم في المدينة المنورة أو حتى في ضبا وعلى ظهر العبارة التي ستنقلهم عبر البحر إلى ميناء سفاجا.

وافترقا، وهكذا من جديد وبعد عودة طلاب الطعام إلى الاصطفاف بوقت ألفى آدم نفسه يقف بعيدًا عن منضدة البيع، وقد كان قاب قوسين منها أو أدنى في المحاولة الأولى، وأحزنه ذلك بعض الشيء لكنه أقسم ألا يعاود العدو في ركاب أو طليعة أي زمرة أو جماعة نحو أي هدف مهما كان يبتغيه، ثم إنه كان لديه ما يفكر فيه من الأدعية المأثورة عن الرسول الكريم ومن التلبية، فتشاغل عن واقعه المر بها.. وما هو إلا أن ألفى نفسه وجهًا لوجه أمام البائع فأخذ مبتغاه وعاد إلى حيث زوجته وابنه وابنتيه فوجد أنهم استسلموا للنوم من شدة التعب لما تأخر في إتيان الطعام، إذ كانت حاجة الجميع إلى النوم والراحة أكبر.. فوضع لفائف الطعام إلى جانب الجدار واستسلم للكرى بدوره وهو يتثاءب ويهمس بصوت خفيض متقطع:

- لبيك اللهم لبيك.. لــ... ك.

وعندما صحا هاله أن يتلفت حواليه فلا يرى من آله أحدًا، وانتفض جالسًا وهو يحملق في الأرض وفي السماء كأنه يطلب منها النجدة والمعونة لإيجادهم فورًا.. ونظر في الساعة فأدرك أنه غرق في النوم - من شدة الإرهاق والتعب - ساعات طوال ولعل استيقاظه المفاجئ هو

السبب المباشر لتلك المخاوف على زوجته وذريته.
وتذكر الطعام فمد يده يتحسس مكانه، وعلى الفور أدرك أنهن والصغير قد أصابوا نصيبهم منه، فلم يبقَ غير القليل الذي يمثل نصيبه، وراح يعالج قلقه بمضغ قضمة هنيئة منه دون شهية، ثم بغتة انكب عليه يلتهمه التهامًا وقد شعر بالجوع ينهش معدته نهشًا على حين غرة.. ولما انتهى منه تناهى إلى سمعه صوت محبب إلى نفسه يعرفه، حانت منه التفاتة سريعة ليرى دنيا تشق طريقًا لنفسها ولابنتيها بما عرف عنها من حلو اللسان والأدب الجم في الأيام العادية، فما بالك والساعات الأولى من فجر يوم التروية الذي تنتظره تلك الجموع الغفيرة التي أتت رجالا ونساء من كل فج عميق على وجه الأرض، أرواحهم على أكفهم يلبسون من الثياب أقلها لا خيط فيها، تشبه الأكفان، وألسنتهم تلهج بتلبية نداء ربهم سبحانه ولا تمل ولا تكل من تكرار ترديد: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.
وأخذ يتابع بعينيه ويتعجل لحظة وصولهم إليه لا لسؤالهن والصغير أين كانوا، فإنه لا ريب يمكنه بكل يسر أن يحدس أنهن كن والهلال في الحمامات بـ«الميضة» المخصصة للنساء للاستعداد بقضاء الحاجة والاستنجاء والوضوء لصلاة الفجر التي يدنو أوانها حثيثًا.. وما إن نجحوا في بلوغ المكان حتى ابتدرهم مغمغمًا:
- لبيك اللهم لبيك.. قولوا معي.
فرددت ابنتاه في حماسة تنبع من السويداء بيد أن دنيا أشارت إلى أنه من الأفضل له أن ينشط للاغتسال والوضوء، لأن الزحام يجعل هذا العمل البسيط يستغرق وقتًا وعنتًا كبيرين، فعمل بنصيحتها وهب واقفًا وهو يدعو الله أن ييسر الأمر له، موصيًا زوجته وابنتيه الرشيدتين اللتين كانت هذه الحجة بمثابة الحجة الأولى التي تحتسب لهما عند

الله.. بعد البلوغ.. بمواصلة التلبية والدعاء لنفسيهما وله ولكل من يعرفان من الأهل والأصدقاء والمعارف.. بل لكل أمة الإسلام والمسلمين.. بصلاح الحال في الدنيا والآخرة وبالغفران، وبأن يحرم لحومهم على النار ويدخلهم الجنة مع الأبرار العزيز الغفار.

وغاب الأب ثانية.. غاب طويلا، لدرجة أن دنيا تخوفت ألا يلحق صلاة الفجر في يوم التروية الذي يتوجه فيه جميع الحجاج إلى منى لصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعد أداء صلاة الفجر في اليوم التالي يتوجهون إلى يوم الوقفة الكبرى في عرفة.

كانت تعلم مدى حرصه على ألا يتجاوز دوره في صفوف الانتظار لدخول الحمامات، ومن ثم التوجه «للميضة» للتطهر والوضوء حتى لا ينال حق غيره ويرتكب مخالفة تبطل حجه.

ولذلك دعت الله أن يوفقه وييسر له أمره ويأوب إليهم وقد اجتاز اختبار التطهر والارتواء في يوم التروية.

وهي تستعجله بنظراتها الملهوفة ولسانها يردد في رتابة ودعة:

- أذن الفجر وزوجي الحبيب لم يظهر.. الحياة دقائق قصيرة والوقت على صلاة الارتواء الأكبر للروح أقصر.. ولكن حمدًا لك يا رب قد ظهر.. حمدًا لك.. وجهه يضيء بأجمل أيام العمر.. قد أحب وشكر.. يتهلل بالبشر متفوقًا بتقواك على كل البشر.. لبى نداءك ربنا الذي يذكرني بدعاء الكروان في السحر.. لنردده معه بصوت يرن كالأجراس.. كالطبول.. فهو عنا أمامك مسئول.. تسليم.. خشوع.. وصول.. مثول في بيتك المحرم المأهول.. وحجيج يتبتل بكل ذهول.. عن الدنيا وما فيها من زينة وعقول.. والمسلمون في شتى أرجاء المعمورة يتسحرون للصوم في يوم عرفة المأمول.. يراقبون عن كثب وهم بين سائل مغلول ومسئول غول.

- ١٠ -

أضاء الله مكة بضوء أبيض شفيف وبما أفاضه على الحجيج من الرحمة نوره الذي لا يأفل.

واستولى الضياء على مجامع القلوب فصفت حتى شفّت واستغفرت لربها ودمعت الأعين، تلتمس العفو واللطف مما ارتكبته الأنفس الظمأى للري بالنور لحظة الاعتراف لافظة الذنوب سم القلوب، وتشتد الرغبة في النحيب والتأنيب وهي ترى كرسي العطايا الوافرة والرحمات المهداة خاليًا منها، ومع اشتداد الضياء والتفاف الكون بغلائل وردية يعلو سراج الأمل في النفوس فتخال أنه يدعوها للجلوس آمنة مطمئنة إذ الشمس وقد أمرها الله أن تبزغ صفراء فاقع لونها كلون تلك البقرة.. لم تعد حمراء قرمزية في مهد الكرى وغفلة من لا يفعل شيئًا.

غفلة من نام يخور فاتته صلاة الفجر يغط على بحر الارتواء وزمزم سقت الطمأنينة بالقسط.. تلك الفياضة بالرحمة بلا نهاية ولا شط في يوم تفجرت فيه من دق قدم وليد صغير على قلب أم لهفى تركض حيرى بين الصفا والمروة.

- الماء.. الماء.

قد أحضرها رجل عرف ربه واطمأن قلبه من بلاد نهر صاف من أنهر الجنة إلى واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

تركها ومضى داعيًا ربه.. أن يبعث إليهما أفئدة من الناس تهوي إليهما..

obeikandl.com

لكن فؤاد الأم اللهفى.. الحيرى.. هو الذي هوى بين قدميها وهي تركض وتصيح:

- الماء.. الماء.

ومع ذلك لم تتذمر أو تشكو انعدام الرزق، بل قبلت واستسلمت لأنها كانت تعلم أنه نبي الله وأنه سبحانه أمره.. ومن كان رزقه عليه فلا يخاف أو يحزن.

ولتتفجر يا نبع الماء.. تفجر يا فيض الرحمة التي تحقق غاية من يرتوي منها بالطهر والنقاء.

وجاء القوم واستجاب الله الدعاء.. ونما الزرع وغطى بالسندس العفر والقفر، فكان بيت الله المحرم وكانت مكة.. وكان رسول الله الكريم محمد الذي ما بعثه الله إلا ليتمم مكارم الأخلاق.

وارتفع صوت الرحمن في السماء يقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..».

وقال وقوله الحق: «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ».

وسطعت الشمس فملأ الضياء الأعين واستقر في الأفئدة ولهجت الألسن بحرارة التلبية لحجيج لا يحدهم بصر في موكب رهيب مهيب، أوله في منى وآخره عند بيت الله الحرام ينظر إليهم سبحانه وهو راضٍ عنهم، يغدق عليهم من رحمته ويعفو ويغفر.

وكان آدم ودنيا وشمس وقمر والصغير الهلال من هؤلاء الذين تاهوا في ركب المخلصين وتناهوا على درب الموعودين واستشعروا رحمة الرحمن وغفرانه تسري حيوية ونشاطًا وشوقًا وحبًا في أبدانهم، وتأتي بهم أمام

الواحد الأحد كأرقام لا يحدها حصر أو عد.. إذ الحسنات فيض والباقيات الصالحات مد.

وبالطبع لم تكن لهم خيمة في منى يأمنون بها حرارة الشمس نهارًا وبرودة الساعات الأخيرة قبل الفجر، لأنهم لم يجيئوها من الخارج ضمن أفواج منظمة، بل دخلوها آمنين فرحين بحريتهم كما يدخلها أهل البلاد.. وكل الذي يعرفونه أن سيارتهم جاءت بهم فتركوها وديعة لدى حراس «موقف كدي».

ودون قصد من الأب (فالقصد على الرب الذي ادخر لهم في ما بعد مفاجأة كبرى) ألفى آدم أن تدبيرًا خفيًّا صنع لأسرته الصغيرة ذات الأغلبية الأنثوية مثوى أشبه بخيمة صغيرة لو أنه تغطى بالملاءات التي كانت دنيا قد أعدتها وأحضرتها لمثل هذا الموقف، وفي نيتها الاستعانة بما تصنعه الفراغات بين الخيام الكبيرة للحجاج (الذين هم في أفواج نظامية) من عزلة تعين على إقامة مثوى وإحكامه ليجعل من بداخله وراء حجاب يستره عن الأعين.

وقد بدأ الأمر عندما هبطوا المكان الذي كان خاليًا تمامًا واشتموا له روائح مواد احترقت مما جعلهم يرجحون أنه لمخيم خلوه راجع لحريق نشب به في يوم سابق، وتوًا فرشت المعنيات بالستر والفرش دومًا الأرض بالحصر البلاستيكية الصغيرة التي اشتروها لهذا الغرض، أما الوسائد تحت الرءوس فاستعضن عنها بالحقائب التي تحوي الحاجات الشخصية لكل منهن أو هما.

لكن سرعان ما حضر عمال وقاموا في حضورهم بتنظيفه وتطهيره ونصب خيامه بالدوران حول فرشهم دون أن يمسوها عن قصد منهم لما سال في قلوبهم وفاض حتى طفر من أعينهم ذلك التعاطف التلقائي بين الفقراء، لا سيما أن الإناث تمثل في الأسرة المسكينة أغلبية.. وعليه ظهر هذا

المثوى الحصين المفرح الذي، لحسن حظهم، لم يدم طويلا لأن رجلا يرتدي عقالا وغترة شاهدهم فنادى على آدم صائحًا:
- إيه أنت.. ماذا تفعلون هنا؟
وتحير صاحبنا بماذا يجيبه، وتبادل مع آله والعمال نظرة قلق مما أتاح الوقت للرجل أن يرمقه بنظرة متفرسة ثم يتنقل بناظريه بين الأم والفتاتين والولد، ويبدو أنه فهم أمرهم واستجدى عطفه حالهم فاستطرد بلهجة رقيقة لا غلظة فيها وحاسمة:
- أنتم ضيوف خادم الحرمين الشريفين.
- صحيح.
نطق بها آدم غير مصدق فأردف الرجل:
- أي والله.. فهذا مخيم لضيوف خادم الحرمين الشريفين.. تخير لأهلك أي خيمة من هذه الخيام الكبيرة وأقم معهم بها.. ولكن بعد مجيء الضيوف عليك أن تقيم في خيمة الرجال.
- طبعًا.
- وإذا سألك أحد ماذا تفعلون هنا فقل نحن هنا بأمر المدير.. هيا تخير أي خيمة تعجبك وتعجب أهلك.
وخطا يبغي الذهاب لحال سبيله والعمال في أعقابه لا يصدقون مثلهم ما سمعت آذانهم.. وتحير صاحبنا على الرغم منه ثانية بم وكيف يشكره، فلم يجد غير النداء بأعلى صوته:
- لبيك اللهم لبيك.. قولوا معي.
وأعاد ترديدها وهم يرددون معه داخلين أقرب الخيام إليهم بعد أن جلبوا متاعهم.
كان المخيم تقع بجوار دورة مياه فانتهزوا فرصة خلوها إلا منهم وقاموا بقضاء حاجاتهم والوضوء من جديد، وصلت دنيا الظهر إماما لابنتيها،

أما هو فقد لاحظ وجود نفر من حجاج المخيمات الأخرى يحضرون حصائر لصلاة الجماعة فاصطحب ابنه وصلى معهم.

ثم توجه إلى مستوصف قريب اكتشف وجوده، وأحب أن يستفيد منه بأية عقاقير أو مخاليط تعوضهم عما فقدوه في يومهم القائظ من أملاح، وهم يسيرون الهوينى بعد نزولهم من الحافلة الكبيرة التي استقلوها في هجير الظهيرة فوق طريق علوية مسافة كبيرة، حتى بلغوا هذا الشارع الذي يقع به المخيم المخصص لضيوف خادم الحرمين الشريفين.

وقد استقبله أخصائيو العلاج بالمستوصف مرحبين وأخذوا يوقعون الكشف الطبي عليه، وإبان ذلك يداعبون ابنه، ثم أجروا عليه الكشف هو الآخر دون أن يكفوا عن مداعبته لدرجة ضايقته منهم.. وفي النهاية أعطوه خمسة أكياس صغيرة لمخلوط الأملاح المعدنية النادرة التي يهبط بها ضغط الدم إذا ما فقد الكائن الحي كمية كبيرة منها.. وفرح بها كثيراً وعاد لزوجته وابنتيه طالبًا صنع شراب له من أحد الأكياس ففعلت له شمس ما يريد.. شربه وشعر لتوه بالحمية والنشاط، وما لبث أن اصطحب الصغير معه ثانية وذهبا لصلاة العصر، ولما عاد للمخيم وجد حافلة كبيرة تقف أمامه، دلف مع ابنه فألفى المخيم قد امتلأ عن آخره بضيوف خادم الحرمين الشريفين.

كانوا عبارة عن فوج من حجاج الجزائر والمغرب المقيمين بالدول الأوروبية، بلجيكا بالتحديد ينتمي أكثرهم ثم فرنسا بصفة أقل.. وعرج ناحية الخيمة التي يقيم بها مع آله فوجدها تغص بنسوة فرحات.. مرحات غير متحفظات على غير ما عهد منذ حطت أقدامه أرض السعودية.

وجاء المدير وأمره بأن يبحث له عن خيمة أخرى يقيم بها فهذه الخيمة التي وقع عليها اختيارهم مخصصة للحريم، وفي لحظة تراجع عن الخيمة

ومعه حصيرته.. إلى خيمة الرجال المقابلة وهو يردد التلبية بكل شوق وحب ومناجاة للبارئ الكريم الذي أسبغ عليهم من العطف والعناية ما أعجز لسانه عن التوقف وظل يرددها حتى صلى المغرب.. ولولا الصلاة ما أنقذه أحد، وجاءت صلاة العشاء لتتم عليه نعمته فصلى ثم نام قرير العين بعد أن تناول مع أسرته وهو يقف خارج الخيمة التي يقمن بها طعام العشاء لئلا يثير حفيظة أحد وتقع منه مخالفة تحبط عمله فتذهب المشقة التي يتجشمها في الفوز بالجائزة الكبرى هباء منثورًا عندما لا يقبل الغفار سعيه مبرورًا مشكورًا.

***

أنوار شفافة أخرى وإشراقة للشمس أبهى وأنور.. في بكرة الصباح الجميل الذي لا نظير ولا مثيل لجماله في يوم عرفة، وركب الحجيج يتمدد بالحرارة.. حرارة الانتظام في الحضرة القدسية طولا وعرضًا في بطن الوادي النوراني صاعدًا جبل الرحمة، والأعلام والبيارق المتباينة الألوان والأشكال لمختلف الطوائف والشعوب، والشماسي الناصعة البياض من الخارج والخضراء الفيروزية من الداخل، تعلو الهامات وتضع علامات غير فاصلة وغير محددة لوجوه البشر، رسل وسفراء مليار ونصف مليار مسلم في أكثر من خمسين دولة وشعبًا مسلمًا، يغطون وجه الأرض ويملأون سماءها الدنيا بأدعية وصلوات تشتد لها أشعة الشمس ضياء وحرارة وترف لها أجنحة الملائكة المتخفية بين أسراب الحمام الناصعة البياض التي تهدل وتغني للسلام وتسبّح بحمد الله تبارك وتعالى وهو يزهو في علاه ويباهي الملائكة ويقول: «انظروا إلى عبادي جاءوني شُعثًا غُبرًا من كل فج عميق يرجون رحمتي.. أشهدكم أني قد غفرت لهم».

ويردد رجع الصدى في القوابل والشعاب هتافات التلبية التي انهالت

على صدور الجبال ورنت في قلوبها فانتفضت من جلال قدرها وردتها على أعقابها في رفق غير متحملة ما تخفيه في طياتها من أثقال الأمانة.. وتتسمع آذان من تأهل بلسانه لتلقي هذا الرجع في سويداء فؤاده فيتمتع بحلاوة لحن الخلود يردده مع الملائكة الشجر والحجر والطير في ما يشبه الإنشاد:

- لبيك وسعديك.. يا أحباب الله ما أبدع أصواتكم وما أجمل وجوهكم.. نشهد أنكم حافظتم على الأمانة التي لم تتحملها الأرض والسماوات والجبال.. ورعيتم الطائر الذي طوق الرب سبحانه أعناقكم به وأنكم (حتى الآن.. كما نراكم) خير رسل لخير أمة.

ويتجاوب عباد الله الفرحين المستبشرين لدى سماعهم تلك الكلمات فيزداد الوادي الضيق تمددًا بحرارة الإيمان، ويتسع بالخشوع والتقوى، وخطابات بيضاء تتطاير من القلوب وتتعلق بأغصان النيم في عرفة وأغصان التين والزيتون في طور سينين وكل بلد مسلم أمين قبل أن تعلق بخوافي أجنحة وأرجل حمائم السلام (سعاة البريد في العهود المنصرمة) صاعدة من أسفل أرض إلى أعلى فلاة وأقصى عنان قاصدة غزو قلب سدرة المنتهى بكلمات رقيقة وحروف جر وعطف وكسر ورفع بلا نصب أو استثناء.

أجل.. أجل.. فاليوم يوم التقرب إلى الله زلفى، والتماس الأنس والرضا واستجداء البركة والرزق الحلال.

ها هنا ملايين من شحاذي الغرام والحب الحقيقي، لا مجرد شحاذ متيم واحد بين أريج البساتين وعبق الأنفاس العطرة لشجر النيم الذي يهابه ذباب الرياء وبعوض النفاق.

ها هنا ترفع أذرع العباد عدد الرسائل القلبية إلى الضعف وعشرة أضعاف أعدادهم بأنامل الأكف التي ترف كأجنحة الحمام رسل السلام

الحقيقي الذي ظاهره العدل وباطنه الرحمة.

سلام الفوارس والشجعان الذين لا يهابون غير خالق الخلق سبحانه.. ولا يقيمون وزنًا لدعوات الخنوع والركوع لغيره.. مالك الملك.. أمر العباد الواحد الأحد الذي قال ويقول وقوله الحق: «.. أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..». تلك الآية الخالدة من سورة «المائدة» التي أعجبت - أيما إعجاب - رئيس الدولة التي تقف «ألفة» على العالم بما تمتلكه من أسباب القوة والقهر دون مراعاة للعدالة (للأسف) في هذا الزمان، فقرر أن يأخذ بها ويعاود استعمالها.. لا إيمانًا، وإنما لأنها تخدمه وتحقق غايته من استقطاب خلق الله جميعًا في حربه الشعواء ضد الوحش الذي صنعه لنفسه ليتمكن من رقاب وأرزاق البشر.

- المرحمة.. المغفرة.. لبيك اللهم لبيك.

- خاطبوهم بالتي هي أحسن.. وأتقنوا الأعمال كما تتقنون الأقوال.. فالله سبحانه يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه.

- ها هي الملائكة تعزف مقطوعة الأمان والسلام وتضبط عقارب منبه ساعة الحوار مع الآخر في هذا اليوم الذي يشبه يوم الساعة.

- فالكل عراة إلا من لفائف بيضاء كالأكفان، مع فارق وحيد «أن عرض اليوم كفن وعمل»، أما العرض في اليوم الآخر «فقد فات فيه أوان العمل»، ولم يبق إلا عمل الله.

هكذا بح صوت خطيب مسجد نمرة في عرفة:

- اهتبلوا يا عباد الله فرحته.. ما تبقى لكم من وقت لعمل صالح في هذه الدنيا.. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان.. أجل.. أجل عمل خالص أبيض.. تشترون به أنفسكم من سوق الحشر المزدحمة.. فما الدنيا إلا متاع الغرور.

الدنيا باب تدخل منه وآخر تخرج خالي الوفاض إلا من العمل الصالح.. رفيقك في القبر يا ابن آدم، فما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك.. في أي صورة ما شاء ركبك.. وأنت تصر إصرارًا غريبًا على ركوب خلقه.. عباده.. تسب هذا وتشق جيب تلك.. وتصفع ذاك على قفاه وتضع لهذا قرنين على رأسه جازًا عنق شرفه شاربًا منه الدماء.. وتأكل لحم الميت.. أتحسب يا صاح أن الدنيا ستدوم لك وأنت تكنز المال وتقتنص الثروات أنت وأولادك وأتباعك وتخبئها معهم في حسابات سرية في بنوك من يهزأون بك وبنبيك خاتم الأنبياء والمرسلين الذي ما بُعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق؟

- المرحمة.. المغفرة.. لبيك اللهم لبيك.

قال الخطيب:

- يقول الله قد غفرت لهم.

وتنهد ثم استتلى:

- تقول الملائكة ولكن بينهم هؤلاء الأخسرين أعمالا يا رب العزة.. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.. وهؤلاء الذين لم يقوا أنفسهم وأهليهم نارًا وقودها الناس والحجارة.

تنفس الخطيب بعمق واسترسل:

- يقول الله.. إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك.. قد غفرت لهم.

- المرحمة.. المرحمة.

وأشاح الخطيب بوجهه من فوق المنبر وهتف بمرارة كأنه يبكي:

- تتباكون.. تذرفون الدمع مدرارًا.. كنت تعرفون أن رحمة الله واسعة فتركتم لأنفسكم حبل الفساد على الغارب.. حسنًا يتسلل بينكم النشالون و«الصيع» والشطار فاحذروهم.

من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.. تلك الجائزة الكبرى في سباق التجويد، فاحذروا عباد الله زبانية الشيطان الذي أقسم أن يغويكم بعصيان الله والبعد عن طاعته ودينه.. إنهم يندسون بينكم لينتشلوا قلوبكم ويضعوا مكانها دمى وأحجارًا صماء.. يا عباد الله احذروا.. هذا يوم الفتنة.. تنبهوا لكل فتنة وبخاصة اليوم، ليعلمن الله من صدق منكم وليعلمن الكاذبين.

- المرحمة.. المغفرة.. المرحمة.. لبيك اللهم لبيك.

- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، واحذروا النكوص على أعقابكم بعد عودتكم لدياركم.. إن الله قد غفر لكم فلا تقتلوا الأطفال.. ولا تحصدوا أرواح الزرع يا عباد الله.

وكأن الزرع مجموعة خلايا تتراص الواحدة منها بجوار أختها بلا رائحة.. أو روح.. ثم بعد ذلك تصفون أولادكم بالبذور.. كيف ينتج النبات بذورًا وهو لم ينل فرصة التلاقح بسبب استشراء العنوسة.. حصدتموه ببطالة منع دوامها ري البادرات الصغيرة يا عباد الله الأوفياء الذين لا يعرفون حق قدرهم ويندس بينهم زبانية الشيطان الأحمر.

- سنرجمه غدًا.. سنرجمه غدًا.. الله أكبر.

- وماذا بعد الرجم؟

تساءل الخطيب باكيًا فعلا، فتطايرت أنفس الحجيج شعاعًا وتهاتفوا في بطن مسجد النور وعلى ظهر جبل الرحمة وكل مكان داخل وخارج عرفة:

- المغفرة.. المرحمة.. لبيك اللهم.

زفر الخطيب زفرة حرى وقاطعهم حاسمًا وجازمًا:

- عباد الرحمن.. في يوم الوفاء العظيم.. يوم الرحمة.. تأخذكم الغصة بأعمالكم السيئة التي إن لم تفعلوها نلتم عليها حسنات.. تنشق أصواتكم

وتحتبس الأنفاس في صدوركم.. حسنًا سنوزع عليكم رحمات الله فيضًا لا ينتهي، لكننا لا نقصد بالغد «يوم النحر وأيام التشريق والرجم فقط».. نحن نحملكم إلى بعيد.. إلى أيامكم القادمة.. ماذا عساكم فاعلون بعد أوبتكم إلى دياركم؟ أستنقصون الميزان وتأكلون لحم اليتيم وتحاسبون من يحتج عليكم حساب الملكين متذرعين بسلطان الحج وبأنكم رأيتم نور الله هنا.. ووضعتم أياديكم على شبابيك الرسول هناك؟

- المرحمة.. المرحمة.

- والوعد والعهد لمن؟

- لله الواحد القهار.. المرحمة.. لبيك اللهم لبيك.

- وإن عدتم إلى سابق عهدكم.. وخطف الشيطان نور بصيرتكم وأغرقكم في دمها المسفوح لري حدائقه الخلفية.. فماذا أنتم قائلون؟

- نقول المرحمة.. المرحمة.

- ثانية.. تحجون ثانية.. وكأنها لعبة.. لكم الحق.. المرحمة.. أجل لكم الحق.. فإن الله يحب من عبادة التوابين الأوابين.. وأنتم تدركون هذا الحب الحقيقي، فلا تكف ألسنتكم عن التوبة.. يا تواب.. نتوب إليك.. يا الله توبة نصوحا مثل شربة ماء شربناها ولن نظمأ بعدها أبدًا.. إن خزائن مياه الرحمة فيوض عميقة بلا قرار.. أجل تعرفون خزائن الرحمة يا عباد الله والخزائن على الدوام تجذب انتباهكم.

- المرحمة.. المرحمة.. لبيك اللهم.

- المرحمة.. المرحمة.

وأنهى الخطيب اللبيب خطبته الضافية الهادية، لكن الحوارات التي تولدت عنها تواثبت كثيراً فوق جبل النور وفي سفحه وبامتداده على جوانب الشوارع المعبدة في ظل شجر النيم أو تحت المظلات الهوائية المشبعة برذاذ المياه الباردة التي تطلقها رشاشات «البلدية» فوق

الأعمدة لتلطيف حرارة الجو التي يشتد أوارها في عز الشتاء هنا دومًا في يوم عرفة الذي يشبه (في زحامه وانشغال كل حاج بنفسه وربه) يوم الحشر.. مذكرًا بنار جهنم الأشد حرًا.

وكان الطرف الثاني في كل حديث (يشب) هو الإنسان نفسه يخاطبها ويناجيها ويجلو عنها ما تراكم من آثام وذنوب ويقدمها طاهرة نظيفة لربها (بارئ كل نفس)، مناجيًا إياه تارة أخرى أو متخيلا أن رسلا من الملائكة جاءوا يناقشونه الحساب ويبشرونه بالتوبة والغفران.. في هذا اليوم المبارك يوم التاسع من ذي الحجة.

وكان صاحبنا آدم وعلى كتفيه الهلال ومن خلفه الدنيا والشمس والقمر.. قد غرق وهن إلى الرمق وتاهوا.. وتناهوا في زمرة الجميع ووقفتهم الخالدة النادرة التي لن تفوت أيًا منهم عوائد جائزتها الكبرى وشرفها الذي يكلل من حمل كأسها بأكاليل الغار إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون لو صدق ولم يرفث أو يفسق أو يجادل بغير علم وحافظ عليها بعدها فلم يغش وكان من المسلمين.

وفي مسجد نمرة وحوله استمع وهن مع الحجيج إلى خطبة يوم عرفة.. وحين حل أوان الصلاة أزمع قضاء صلاة الظهر (والعصر جمع تقديم بأذان واحد وإقامتين) مع جماعة كانت على مقربة منه أعجبه على ما يبدو فيهم هذا التآخي والترابط في ما بينهم، ولا يدري لمَ استشعر حين وقف بينهم أنهم يترددون في الصلاة معه.. وأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارًا لما رأوا منه إصرارًا هو في حقيقته حيرة منه وعدم فهم.. ولذلك أسرع بعد أن فرغ معهم من الصلاة إلى سؤال أحدهم عن هويته فأخبره أنهم «من شيعة عمان».

- آه.

ندت الآهة عن صدر آدم فعاجله بسؤال آخر:

obeikandl.com

- ولكنكم تصلون بنفس الكيفية التي نصلي بها.
أجابه الرجل قائلا بروية وتركيز:
- لا خلاف بيننا وبينكم في الأساسيات والأعمدة والأركان.
- إذن ما الحكاية؟ لماذا نخافكم؟!
- لا أدري.. لعل المراجع والأئمة يحبون أن يختلفوا.. واختلافهم كما تعلم رحمة.
- تقصد القول بأن الشيعة مجرد مذهب اجتهادي في تفسير..
ولم يكمل قوله لأن الآخر ولاه ظهره وانصرف.
ومع تمام مغيب الشمس بدأ آدم وآله النفرة مع الحجيج وأفاضوا من عرفات إلى مزدلفة تلك الأرض الخالية.. الصلدة التي يطبق عليها سكون أخاذ وظلام تشعر أنه أخف وطأة وأكثر إشاعة لطمأنينة النفس من أي ظلام آخر في الكون.. التي سمع من يقول عنها قاطعًا صوت التلبية لصاحبه الذي يمشي في الركب إلى جانبه:
- مزدلفة هي الأرض التي حسر و«أعيا» الفيل ومعه أصحابه وأبرهة ملك الحبشة عن المسير فيها إلى مكة لهدم الكعبة وصرف الحجيج عنها إلى كنيسة بناها أبرهة باليمن.
فجاوبه صاحبه مكملا:
- فمني جيشه بهزيمة قاسية ولحقه دمار ووبال، وقال الله في ذلك جل شأنه: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ».
واستحسن آدم هذا الحديث، ونبعت في رأسه فكرة أن يسأل الرجل عما إذا كانت الحصوات التي سينشغل الحجاج بجمعها بعد قليل هي حفيدات تلك الحجارة التي ألقتها الطيور على الفيل وأصحابه.. لكن

الرجل وصاحبه غابا عن ناظريه دون أن ينتبه في زحام الركب المهيب.

***

فعلا.. انخرط الحجيج كما توقع آدم في جمع الحصوات لرجم الشيطان من مزدلفة التي افترشوا فيها الأرض وباتوا ليلتهم بعد تأخير صلاة المغرب إلى العِشاء، وجمعهما معا بأذان واحد وإقامتين، وكان لا يعدم أن يرى أعدادًا غفيرة منهم.. طوال الليل الذي قضاه إلى جوار آله أرقًا مسهدًا وقد انكبوا وتكوروا على الأرض يجمعون في الظلام الذي أنارته قلوبهم.. تلك الحصوات الصغيرة التي كانت يومًا حجارة من سجيل في مخالب أرجل تلك الطيور الأبابيل.

ثم ها هو الفجر ينبلج ويتردد الأذان لصلاته في كل ربوع المشعر الحرام وتنبلج معه الأعين التي نفضت عنها ما تلاعب من الكرى، فاليوم يوم عمل وأمل وعيد.. وانتفض الجميع فاغتسلوا وتوضأوا واصطفوا جماعات لصلاة الفجر.. كل جماعة تعرف بعضها.

وبمجرد الانتهاء من الصلاة.. انبرى مئات الآلاف منهم ممن لم يسهر الليل على انتقاء الحصوات لرجم الشيطان الأكبر.. أقعى هؤلاء على الأرض واستغرقوا في ذلك.. إذ لم تكن كل الحصوات من حيث الحجم يصلح.. وأتزيد «لطفا» فأقول إن الحصوات المطلوبة في حجم حبة الترمس أو الفول فقط.. وكان كل من ينتهي يأخذ طريقه للسير نحو منى، فعاد من جديد ركب الحجيج.

ثم ها هو آدم يبلغ مع آله المخيم الخاص بضيوف خادم الحرمين ثانية بعد أن تبلغوا جميعًا ببعض ما تبقى من قرص الكعك المحشو بمفروم التمر أو على وجه الدقة والتحديد العجوة، الذي كانت دنيا قد أعدته سلفًا لغرض الإفطار السريع، مع أكواب من الشاي اشتروها من أحد

الباعة الجائلين الهنود على جانب من الطريق، ثم تركوا الصغير هلال في رعاية إحدى الحاجات الجزائريات كانت دنيا قد تعرفت إليها وائتنست بها هي وابنتيها، وشجعها على ذلك أن السيدة أحبت الصغير لدرجة أثارت خوف أمه عليه وخشيتها من أن تأخذه وتذهب، فطمأنها آدم قائلا:

- هذا سلوك لا يتفق والحج ونزغ من الشيطان الذي نحن والجميع بصدد رجمه.

كما أوضح مضيفًا بصوت لا يسمعه غيرها:

- يبدو أن سر استحواذ الصغير على مشاعرها لم يكن فقط كما قالت لقرب شبهه لحفيد لها.. ولكن لأنه دقيق الملاحظة.. يؤكل.. وهو يصدر أحكامًا طفولية بريئة على الأشياء وبكثير من الفراسة والذكاء لا يتفقان وسنه الصغيرة.

وتتوالى أيام التشريق بعد ذلك يومًا بعد يوم على وتيرة واحدة رتيبة دون حوادث من قبيل «الكوارث»، ولله الحمد، هذا العام.. ليس فيها غير رمي الشياطين الثلاثة الأصغر والأوسط والأكبر إلى جانب أداء الصلاة جماعة مع رفاقه من المغاربة الذين كانوا العنصر الغالب في مخيم الرجال.

وبالطبع كان في صبيحة العاشر من ذي الحجة قد تحلل من ملابس الإحرام بعد أن قص الرجال شعورهم وقصرت النساء شعورهن.. وبعد رمي جمرة العقبة.

وكانت دنيا التي انبرت تقص له ولابنتيه.. قد وقعت موقع اهتمام المحيطات بها اللائي اكتشفن حذقها في تقصير الشعر فانكببن عليها، وراحت هي تعمل مقصها على سبيل التطوع والأجر والثواب عند الله سبحانه، وقد أكبرنها كثيرًا لتلك الروح الطيبة وعوضنها وأغدقن

عليها بعض الهدايا الرمزية من مشغولات بلادهن البسيطة مثل العقود والأساور والأقراط المصنوعة من خامات معدنية وبلاستيكية غير ثمينة. واسمحوا لي، على سبيل «العلم»، أن أذكر أنه يتم التحلل من الإحرام والتوقف عن دعاء التلبية في صبيحة يوم العيد بأداء نسكين أو ثلاثة من المناسك التي تجيزه.. وهي النحر ورمي جمرة العقبة للشيطان الأكبر فقط.. وقص أو تقصير الشعر والاستحمام.

وفي الأيام التالية تطوع آدم لما رأى تزايد أعداد أكياس القمامة السوداء التي ألقاها رواد مخيم «خادم الحرمين الشريفين» عند وحول مداخل الخيام بجمعها وصنع كومة كبيرة منها عند المدخل الرئيسي للمخيم ريثما يأتي عمال البلدية لرفعها في عربتهم كما يفعلون مع فضلات باقي المخيمات، لكنه لاحظ لأسفه ودهشته عندما جاء الدور على مخيمهم أن العمال تجاوزوه إلى المخيم الذي يليه، وخال في البداية أنهم لن يلبثوا يعودون إليه غير أنهم لم يفعلوا، وتكرر نفس التصرف في اليوم التالي، الأمر الذي أدى إلى تصاعد الأبخرة والروائح غير المستحبة من كومة القمامة، فصاح بهم معترضًا، وكانت دهشته أعظم عندما تأكد له أنهم يهملونه عمدًا، فهذا المخيم يتبع إشراف الإمارة لا البلدية، والإمارة هي المخولة بنظافته.. وألفى نفسه على غير رضا يشيح لهم بوجهه زاعقًا ويلوح بكلتا يديه محتجًا.. ولما لم يأبهوا له فكر أن يحتال عليهم بحيلة «بيضاء ماكرة»، فأنشأ يقول مصطنعًا الجدية والحسم في لهجته:

- المدير يأمركم برفع الزبالة وإلا سيعرف شغله معكم.

وتصايح العمال في الحلل البرتقالية اللون:

- المدير.. المدير.

كانوا مجموعة بائسة من العمال الهنود لا يعرف أكثرهم من العربية غير بضع كلمات أظهرها في ما بدا كلمة المدير التي ما إن وقعت على

آذانهم حتى كان لها فعل السحر فانكبوا على الأكياس يحملونها ويلقون بها في عربتهم بحماسة وحرارة وجدية بالغة، وعبثًا حاول واحد منهم يجيد العربية أن يثنيهم عن العمل، لكنهم كانوا في شغل عنه وعن حتى أنفسهم، لا يسمعون غير صوت المدير المزعوم يأمرهم ويهددهم.

وضحك آدم في أعماقه وعجب متسائلا:

- كيف لم أكتشف هذا السلاح الناجع ضدهم مبكرًا؟

وكانت تلك أول وآخر مرة يرفع فيها العمال القمامة من المخيم.. إنهم قاطعوا حتى باقي المخيمات ولم يعودوا لهذا الشارع ثانية.

وكان قد مر يومان من أيام التشريق الثلاثة، ولاحظ آدم حركة غريبة في كل الشوارع، وجاءت حافلات كبيرة ووقفت صفوفًا أمام المخيمات من بكرة الصباح.. وكان معنى ذلك أن الحج قد انتهى «لمن أراد التقصير في يومين»، وبدا له أن جميع الحجاج قد قرروا التقصير، إذ سرعان ما ركبت أعداد غفيرة منهم الحافلات.. وتعاظمت الحركة إبان عودته وأسرته من رمي الجمرات.. ولاحظ أكثر أن المشرفين على المخيمات ومديريها كانوا يحثون الكل على مغادرة منى قبل المغرب، لئلا يضطرون للمبيت بها لليوم الثالث والأخير.. بل إن أحدهم لكزه بكوعه قائلا حين رآه يقف على ناصية المخيم دون أن تبدو عليه سيماء من عزم على الرحيل:

- لماذا تقف تحملق في الآخرين هكذا؟! هيا خذ أهلك وبارحوا قبل المغرب، ألا تعرف شعائر الحج؟!

كان ذلك مدير المخيم الذي أكرمه وآواه هو وآله فألقى على كاهله ما ينوء بحمله من الشكر والعرفان فلم تكن لكزته إلا تعبيراً عن الود والمرح الذي يسود غالبًا مثل هذا النوع الدافئ من العلاقات، وصافحه بمزيد من الإجلال والتودد لحسن صنيعه معه ومع جميع أفراد أسرته.

ذلك الجميل الذي سيطوق أعناقهم جميعًا إلى يوم الدين.. فربت الآخر

obeikandi.com

بأنامله على كتفه مهونًا بلطف وعاد يسأل:

- هل أديتم طواف الإفاضة بعد العودة من عرفة ومزدلفة؟

فأجابه بتلقائية وتبسط:

- لا.. قررنا جمعه مع طواف الوداع.

قال وهو يشد على يده:

- ليكن.. وداعًا.

فأمسك كلتا يديه بحرارة وأوشك أن يلثمهما، وغمغم ونبرة صوته تتهدج من شدة انفعاله كأنه يجهش بالنحيب من وطأة العرفان الذي يشعر به تجاهه، أو ربما لشدة إحساسه وقناعته بأن الرجل لا مثيل لطيبة قلبه:

- نعم.. وداعًا.

وعندما توقف ليرى حبيباته اللائي قبعن بالخيمة لما رأينه توقف يحادث المدير الطيب اكتشف أن المخيم قد خلا تمامًا إلا منهن، فأسرع وهو يداري عينيه عنهن لما اغرورقتا بدموع الشجن، يجمع ما تناثر من مشاعره متظاهرًا بانشغاله بجمع حاجياتهن ففعلن مثله.. إنهن حتى كن مثله يدارين عنه أعينهن لما شعرن بما يعتمل في نفسه، ولعظمة وجلال موقف وداع المشاعر المقدسة في تلك البقاع الطاهرة التي لا يعلم الإنسان إن كان سيعود إليها ثانية أم لا.

وبعد أن انتهوا ألقوا جميعًا نظرة أخيرة على المكان يتزودون منه بالعزم على مجابهة قابل الأيام.. وبالطبع توسد هلال كتفي والده ومضوا إلى الشارع الذي أسلمهم بعد بضعة أمتار إلى الطريق العام ومن تحت أحد المحاور العلوية التي تميز المكان ركبوا وسط الزحام حافلة عامة إلى أم القرى، مكة المكرمة، يقصدون الصلاة وطواف الوداع حول الكعبة الشريفة بيت الله الأول وقبلة المسلمين أجمعين.

كانت خطتهم أن يتخلصوا من متاعب الزحام في الحرم الذي بلغ أشده

بعودة الحجيج إليه في وقت واحد لأداء طواف الوداع قبل مبارحتهم إلى ديارهم.

وبدا لآدم أن الغالبية العظمى منهم وضعوا نهاية مبكرة لحجهم لما واجه وآله صعوبة كبيرة في اختراق الحشد لأداء الطواف.. ولم يتسنَ لهم ذلك إلا بعد جثوم الليل وانتصافه بالطواف فوق سطح المسجد في مشوار لا يقل محيط دائرته عن الكيلومتر، ولذلك استغرق وقتًا طويلا ولم ينتهوا منه إلا قرب أذان فجر اليوم التالي.

كان التعب والنصب قد أخذ منهم كل مأخذ، فانتحى الأب بهم جانبًا من سور السطح بجوار غرفة كبيرة تشع الدفء لسبب لم يعرفه، فالناظر إليها لأول وهلة يظن أنها تستعمل لحفظ بعض أدوات وآلات الصيانة، ثم لا يلبث أن يغير رأيه للدفء الذي يشع منها والذي يتحتم أن يكون له مصدر في الداخل، غير أن أحدًا لم يقف عليه، فالحجرة محكمة الإغلاق.

إنها غرفة تشع الدفء ولا ضرورة لذكر سبب ماذا في ذلك.. قد جعلها الرحيم هكذا دافئة زيادة في راحة ضيوفه واحتفاء بهم، ولا سبب أهم من ذلك.. ولم يفيقوا من نومهم إلا على حرارة أشعة الشمس وهي تلسع أقفيتهم برفق فقاموا وعالجوا أمر الاغتسال والتبلغ ببضع لقيمات من بقايا الطعام التي كانت لديهم، ثم استقلوا سيارة أجرة إلى «موقف كدي».

كانت سيارتهم الوفية هناك قابعة تنتظر أوبتهم، وتمم آدم عليها وأدارها ثم تركها تسخن قليلا حتى تفرغ دنيا من تمام آخر قامت بإجرائه على متاعهم الذي تركوه منذ ما يقرب من خمسة أيام.

ولما اطمأنوا جميعًا إلى أنه لم ينقص شيء قصد آدم جندي الحراسة الذي كان يقف بالقرب منهم ومد يده إليه ليعيد إيصال أمانة السيارة «وما

عليها»، ولحظ الجميع أن الجندي الهمام تناول يده ليصافحه لا ليتناول الإيصال وكأنه لا يعنيه (فالدار أمان)، وأعطاه ظهره مبتعدًا وهو ينظر إليه من وراء كتفه ويتبسم.. فبادلته الأعين الذهبية المنيرة التبسم تعبيراً بكل سرور واعتزاز عن أن «الرسالة التي عناها وصلت»، ثم ركبوا في أماكنهم المعتادة وبارحوا الموقف والمدينة المقدسة ومشارفها الحبيبة وأصبحوا على الطريق الرئيسي للمدينة المنورة.

obeikandl.com

- ١١ -

كما كان الطريق إلى مكة (من حيث كان يقيم وأسرته) معتادًا ومألوفًا.. كذلك كان الطريق إلى المدينة المنورة، وقد بدأ يغزوه بعد أن قطع بالسيارة العديد من الشوارع الفرعية التي يعرفها جيدًا في نهايات مكة، التي أسلمته بدورها إلى شارع رئيسي ظليل بأشجار باسقة على الجانبين من أشجار «التين البنغالي والسرسوع والبوانسيانا والكاسيا»، تلك التي كان لنموها طبيعة خاصة هنا، حسب ما تخيل أو توهم، فجذوعها وفروعها أقل سمكًا وأكثر استدارة واعتدالا وميلا إلى التلاقي والتعانق والتشابك نحو الشارع صانعة ما يشبه المظلة الطبيعية.

كما كان لأوراقها المستديمة الخضرة لون أقل دكنة، ولا يدري إن كان ذلك بسبب سطوع أشعة الشمس فيها ومن خلالها، أم لأن أنامل المبدع العظيم الذي خلقها فسواها، حرصت على أن تضيف إليها من الفوسفور الأصفر ما يجعلها وضاءة لألاءة ليشعر الداخل إلى المدينة أو الخارج منها أنه مع الظلال والأضواء الفوسفورية والهدوء والسكينة (داخل مع الحب أو خارج مع الأسف) من الجنة.

ونظر حواليه فرأى دنياه وهلاله (على صدرها) وشمسه وقمره قد غلبهم النعاس والأحلام الجميلة من الجمال البادي والسكون المسيطر والهدوء الذي افتقدوه جميعًا منذ وطأت أقدامهم أرض مكة في عرسها السنوي الذي يرفل فيه مدعوون محظوظون من جميع الفجاج العميقة

في العالم.. ومن شعور بالرضا الباطني والفرحة الكامنة في أعماق من اجتاز بنجاح باهر اختبارًا صعبًا.

كانت مسافة الطريق طويلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة.. بيد أنها أقل قليلا من المسافة بين محل إقامتهم الذي غادروه.. ربما إلى غير رجعة.. ومكة.. فهي تستغرق وقتًا أقل بنحو الساعة إذا ما سارت العربة بالسرعة المنتظمة التي تحض عليها اللوحات الإرشادية للمرور، كما أن رتبته كانت كطريق دولي من الدرجة الممتازة، لتعدد الحارات التي تضمن تحقيق رغبة قائد السيارة في السير بالسرعة التي يبتغيها، مع مراعاة أن حجم السيارة وعملها إن كانت لنقل الأفراد أو البضائع والحاويات، أو مجرد سيارة ركوب صغيرة، من العوامل المهمة في تحديد أي حارة تسير عليها السيارة، وهو كذلك مؤمن جيدًا حيال الحيوانات السائمة التي غفل عنها أصحابها فخرجت من البوادي القفراء إلى الطريق السريع تهطع أو تتبختر فيه مسببة المكاره المفاجئة، بإحاطته بسياج من الأسلاك القوية المدعمة تدعيمًا متينًا على طول الطريق ومن الجانبين المتعاكسين للسير.

وكانت الأعمدة القصيرة التي تحمل لوحات مرسوم عليها مثلث أحمر بداخله جمل تنافس مع باقي اللوحات الإرشادية الأخرى الأعمدة الطويلة الخاصة بإنارة الطريق بمصابيح فوسفورية قوية ليلا، بما يغني قائدي السيارات عن استعمال الأنوار العالية الباهرة لسياراتهم التي تؤذي كثيراً نظر بعضهم، مما يضطرهم إلى التوقف في المواقف الطولية التي تم نشرها بكثرة وانتظام شأنها في ذلك شأن محطات الوقود والصيانة والاستراحات العامرة باحتياجات المسافرين.

وإذا كانت طبيعة الأرض المترامية الأطراف على جانبي الطريق تميل إلى تغليب العنصر الصحراوي الرملي فإنه كان يتخلله في مواضع كثيرة

مناطق صخرية تأخذ بخناقه، وتبدو كأنها توشك وتضمر الانقضاض عليه.. هذه الصخور كان يعرف آدم نوعيتها جيدًا فهي ليست صخورًا عادية..

- إنها نارية.

ولا بد أنها تكونت في عصور غابرة وسحيقة من براكين صغيرة ولكنها تتعدد وتتزايد على طول الطريق وتخفي الطبيعة الحقيقية للأرض تحتها وفي ما وراءها حتى تكاد تكون العنصر الغالب عليها.

فهل كانت أعداد البراكين بالمئات فتكونت تلك المسبحة المتسلسلة من الهضاب السوداء اللامعة، التي لها نعومة الزجاج من صخور البازلت التي يتم تكسيرها إلى قطع صغيرة لتستعمل «كالزلط» في خلطة بلاط المباني بجميع الأنحاء، التي لم يكن لديها مانع من ظهور أنواع أخرى هنا وهناك ذات درجات متعددة من اللون البني من صخور الجرانيت والرخام لتتبادل معها الوجود وتنافسها اللمعة والنعومة.. والله ما أعجب طبيعة أرض هذه البلاد وأقدمها وأوضحها في عين ونفس المتأمل الحاج، وما أحبها أيضًا إلى فؤاد الحاج آدم الذي أعان أسرته على الحج من دنياه الكبيرة إلى هلاله الصغير ذي الأربعة أعوام الذي سيكتب له أجر عنها وإن كانت لن تحسب له حجة لسنه الصغيرة.. فهنيئًا له أجر ما عمل لنفسه وأسرته.

إن بشائر القبول عند الله تسطع بادية في ما يشعر به من رضا ودعة ونشاط وثاب.. وفي ما تطالعه وتحوطه الطبيعة من هدوء وسكون وتحنان.. بل في ما تبديه السيارة (رفيقة غربته وأنيسته) من طاعة واستجابة لكل ما تأمرها به لمسات أنامله أو دواسات رجليه، التي تتفوق على زوجته دنيا في هذا المضمار تفوقًا لا نزاع فيه قطعًا.. فأين هي الزوجة المطيعة التي تستجيب لأمر لمسات الأنامل أو دواسات

obeikandl.com

الأرجل؟!

تالله إن السيارة هي زوجته الحقيقية، ولكنها الزوجة الثانية لأسباب كثيرة لا تخفى.

***

توالى انقضاض السيارة على مسافات الطريق في انفتاح سرعة وشهية كما لو كانت ليثًا أسطوريًا يلتهم فرائس ظبيانية حية.. وانتهز آدم فرصة استغراق الجميع في النوم وترك الليث التواق للحرية ينهش ويلتهم ليعوض أيام الجوع والحبس في كدي التي عاناها وحده.

لم يتوقف بذريعة التزود بالطعام أو الشراب أو الوقود إلا عندما فاجأه أذان الظهر وجاءت صلاته مع عدد كبير من المصلين ينشدون المدينة المنورة مثله، فقدموا صلاة العصر مع الظهر جمعًا وتقصيراً حتى يواصلوا طريق السفر الطويل بلا انقطاع.

ومع مغيب الشمس بلغت الحليلة غير المعترف بها مشارف المدينة وأصوات الأذان لصلاة المغرب ترتفع من مكبرات الصوت بمآذن المسجد النبوي وغيره من المساجد وتخترق آذان النائمين من آله فاستيقظوا من سباتهم ليفاجأوا بأنهم يدخلون بالسيارة من إحدى بوابات الساحة الكبرى المحيطة بالمسجد، التي اقتطعت منها قطعة كبيرة لوقوف السيارات.

كان لا يزال على وضوئه فأوقف السيارة ونزل منها وشمس وقمر في ركابه، أما دنيا فقد تباطأت قليلا لتشاغلها بتعديل وضع الهلال الذي تدلى على صدرها.

وافترق عنهن فقد كان للنساء أبواب دخول وأبهاء خاصة بهن للصلاة، على عكس المسجد الحرام، الذي تدخله المرأة مهما كان جمالها حرة

obeikandl.com

آمنة مطمئنة كاشفة الوجه.. والسبب واضح وجلي، وهو أن وجه الخالق أجمل وجه في بيته المحرم.. وإن جاز لآدم (أو أي إنسان) أن ينسى تلك الحقيقة.. فإنه لا يملك النسيان في هذا الزمان وذاك المكان.

وتذكر آدم (وأنى له الذكرى) المرة الأولى التي شاهد فيها المسجد النبوي من الداخل وشعوره غير المبرر وقتها بالغيرة والرغبة في الاحتجاج، فبمجرد ولوجه والنظر إلى أعمدته وسقوفه وجدرانه اهتزت أعصابه واضطرب كيانه كله مما توهمه لمسة الجمال المقصودة من الأيادي التي عملت - بخبث - في تصاميم وإنشاءات الملاحق الضخمة التي تمت إضافتها للمسجد الأصلي القديم، والتي تذهل العقل والنفس من روعة إبداعها وتفردها على المسجد الحرام.

حقًا قد فوجئ بغابة من الأعمدة الضخمة العالية المكسوة بالرخام الأبيض الناعم كالبللور التي كادت تشف لتسر إليه (وإليه وحده) ما بداخلها من عجائب صنع الإنسان الذي أبدع أحسن الخالقين خلقه، وفي نهايتها قلنسوات وطنافس شك لشدة صفائها ولمعتها أنها ذهبية خالصة، بل قد سأل عن ذلك فقال له أحد رواد المسجد:

- فعلا هي ذهبية.. وإن بداخل الأعمدة مجاري من الحديد الصلب اللامع الذي يسمى «ستانلس» الذي لا يصدأ، لطرد المياه التي تتجمع فوق الأسطح مثل مياه الأمطار وخلافه.. وأخرى لمرور الكابلات الحاملة للكهرباء مخفية لا يراها أحد.

وسكت محدثه لترتيب أفكاره وتهدئة خواطر الشخص الغريب الأطوار الذي بدا له كأنه تائه في عالم آخر، وأضاف وهو يرفع يده مشيراً بسبابته:

- وتلك القباب الضخمة التي تراها بين الأعمدة عددها يربو على مائة وسبع وعشرين قبة تتحرك على عجلات فوق قضبان كالقطارات.. وبحيلة ذكية لا يمكنك أن ترى العجلات أو القضبان أو الآلة التي تحركها، إلى

جانب التهوية وتجديد الهواء في باطن أبهاء المسجد الكبيرة المساحة.. التي لم تكن هناك وسيلة لتهويتها إلا بإزاحة السقف في العديد من المواضع.

ودون مناسبة أطلق المتحدث ضحكة واسترسل:

- وكله كله إلا أعمدة المنتصف التي تشبه نهاياتها زهرة اللوتس والتي تحمل مظلات مصنوعة من مادة سميكة لكنها طيعة وشفافة يتم إحكام غلقها فتحجب كل ما عدا الضوء إذا ما أقفلت.. أو تفسح لأشعة الشمس الدافئة والأنسام العليلة بالدخول إذا ما انفتحت عند هذا الفاصل الكبير للأعمدة الذي تراه في الوسط.

وسكت مرة أخرى ثم واصل وهو شارد كأنه يحادث نفسه:

- وإذا كانت تلك النقوش الإسلامية المتميزة وهذه الخطوط الكوفية وغيرها التي كتبت بها الآيات القرآنية على السقوف قد أبدعتها أيدي عمال مهرة سمعت أن غالبيتهم كانوا من باكستان.. فإن هذا التصميم العبقري للأعمدة ومحتواها وللقباب ووسائل تحريكها وللمظلات الشفافة فوق أعمدة أجمل وأكبر فاصل في مبنى عرفه علم الهندسة الإنشائية وفن التصميم المعماري أبدعه علم وخيال مهندس معماري مصري مؤمن يضرب علمه في أعماق تاريخ بناء المعابد والأعمدة.. وقد نال هذا التصميم شهرة عالمية تجاوزت حدود المكان فتم تقليده في العديد من دول العالم المتقدم.. وفي حفل أقيم في ألمانيا لهذا المهندس العبقري المؤمن وصف وزير الصناعة الألماني تصميمه هذا.. بأنه يعتبر فتحًا أضاف صناعة جديدة في ألمانيا.

تعجب لما يسمع وخيل إليه أن صوتًا يسأله في أعماقه:

- يا صاحبي كيف لا تستشعر تلك الغيرة مما رأيته في المسجد النبوي من جمال أخاذ أفقدك اتزانك ومن إبداع خلاق خلب لبك لدى رؤيتك

له أول مرة؟
فسأل بدوره محدثه يومها أو ليلتها (لا يذكر) مغمغمًا:
- كيف توفرت لك تلك المعلومات؟
فأجابه محدثه وهو يفتعل التواضع:
- محسوبك أحد العاملين في بيت الخبرة المملوك لهذا المهندس النابه.
قال مشغول الخاطر:
- كل مسجد له جماله الخاص وتفرده.. كلها بيوت الله، والمسجد الحرام أول بيت.. وأنا أرى بعد الذي أوضحته لي يا محسوبي أنه لا مبرر لما أنا عليه من شعور غريب، فتبارك الله أحسن الخالقين.
اغرورقت عينا محدثه بالدموع بغتة وتهدج صوته وهو يردد:
- نعم.. تبارك الله أحسن الخالقين.
ثم أولاه ظهره وذهب، وما زالت ذكرى صوت الرجل ترن في أذنيه إلى اليوم للصدق الذي تهدجت به نبراته.. آه.. ما أشد شوقه لرؤية صاحب الصوت.
شعر آنئذ بيد تربت على كتفه من الخلف بلطف.
التفت وراءه ليرى من صاحب اليد (ولدهشته وذهوله) رأى محدثه وصاحبه.. رباه.. وكأن الزمن قد توقف من يومها أو ليلتها (لا يذكر) هتف وهو يعانقه:
- محسوبي.. أهذا أنت؟ مستحيل.. كأنني كنت أحلم بذكراك وانقلب الحلم حقيقة.
بادله صديقه العناق وهو يغمغم:
- لا حلم ولا يحزنون.. كل ما في الأمر أن الدنيا صغيرة، ومصير الحي يتلاقى.. كيف حالك يا أخي أما زلت تعمل هنا؟
تنهد آدم ثم قال مداعبًا:

- بخير.. وأنت هل عدت ثانية لتروج لمكتب الخبرة الهندسي الشهير الذي تعمل به؟!

ضحك رفيقه وقال:

- لا.. يا أخي أنت لا تنسى شيئًا.. إنما كنت وزوجتي وأولادي نحج ونؤدي الفريضة.

تمتم آدم:

- إذن فقد جئتم اليوم فقط من مكة مثلنا.. أين سيارتكم؟ أهي هناك في الموقف؟

قال الرجل:

- ليست معنا سيارة، نحن ضمن فوج للحجاج نركب حافلة تابعة لإحدى الشركات السياحية وهناك برنامج مرسوم لنا كلفنا الكثير.

- وأين تقيمون؟

- في أحد الفنادق القريبة.. وأنتم؟

- لا أعتقد أنني سأعثر على غرفة لنا.. جميع الفنادق والبيوت محجوزة من زمن كما هي العادة.. إنه موسم الحج يا أخي.

- طيب وماذا ستفعل؟

سأله رفيقه بقلق.. لم يُجب آدم وسادت بينهما لحظة صمت.. وبغتة برز في عقله سؤال مهم جدًا فضرب يد صاحبه وهمهم متسائلا:

- ما اسمك؟ تصور أن نصبح أصدقاء قدامى ونتعانق دون أن يعرف أحدنا اسم الآخر.

- سلامة سالم سليم.. وأنت؟

قهقه آدم ويبدو أنه عثر على شيء يثير الضحك في اسم صاحبه أو لعله (على العكس من ذلك) لم يجد شيئًا وإنما تذكر اسما آخر هو ما جعله يقهقه ضاحكًا (فالمثل يقول الشيء بالشيء يذكر)، وأربد وجه صديقه

obeikandl.com

ظانًا أنه سبب الضحك وشعر بالإهانة فأسرع آدم موضحًا:
- لا.. لا.. بالله لا تذهب بعيدًا.. فقط تذكرت صديقًا لي من المنيا اسمه رجب شعبان رمضان كريم.
فانفجر سلامة ضاحكًا وانقلب حاله إلى النقيض وهو يرد على ضربة يد صديقه بضربات أشد مرحًا وغمغم مداعبًا بدوره:
- والله.. ذكرتني يا أخي.. ذات يوم كنت أقرأ صفحة الوفيات في جريدة و...
قهقه أكثر حتى دمعت عيناه، وبصعوبة بالغة عب من الهواء نفسًا عميقًا رفع بعده عقيرته بالصياح مقلدًا صوت المنادي:
- فقيد بنها (السيد أحمد الأسيوطي) وفقيد أسيوط (أحمد السيد البنهاوي)
ولا يدري آدم لم تكدر فجأة وأصابه شعور دفين.. غريب.. بحزن غامض عندما جرت سيرة الموت وصفحة الوفيات على لسان صاحبه.. لقد رأى قطة سوداء تجري.. لكنها لم تكن تجري على أرض طيبة ترفل بأناس أطهار يتنسمون أريج السيرة وعبير الذكرى لمن كان سببًا في استدعائهم من كل بقاع الأرض من خير البشر.. ولكنها كانت تجري في رأسه وتثير في نفسه ما هو أبعد من الحزن.. وعبثًا حاول صاحبه أن يسأله عما ألم به وهو يهز ذراعه مرتبكًا:
- ما لك يا أخي؟ فيم تفكر؟
لأن الآخر أجابه وهو يسترجع بصعوبة جادة نفسه متظاهرًا بالمرح والتظرف:
- اسمي آدم.. آدم خليفة.. ويمكنك أن تناديني «حنفنف».
واستشعر سلامة أن رفيقه يتمزق تحت وطأة شعور من يعرف أنه يمثل، وأن خفة ظله المدعاة لن تنطلي على أحد، ولذلك لم يتحمل وأسرع

يشد على يده مستأذنًا في الانصراف، وتابعه بعينين آسفتين وهو يفكر أن يلحق به ليعاود سؤاله، لكنة آثر أن يتركه يذهب، ولعله فكر في أن لـ«حنفنف» هذا أطوارًا غريبة، فقد تعرف إليه وهو يرتعد تحت نير مقارنة عقدها في دخيلة نفسه بين المسجد الحرام والمسجد النبوي لدى رؤيته أول مرة، متهمًا اليد التي عملت في تكثيف كل هذا الكم المخيف من الجمال بالمكر، وظن أنها يد أجنبية ذات أهداف خفية، وإذا به يفاجأ بأنها يد مسلمة عريقة في التوحيد والإيمان، وأن الحب تكفل بتفعيل ما في الإيمان من جمال باطن، فزاوج بين رصيد المعرفة وإبداع الخيال، وكان من نتيجة هذا التفاعل الخلاق ميلاد صناعة معمارية جديدة، اعترف بها وزير صناعة من هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم طليعة وحراس المدنية في العالم، ومن الأوصياء على طائر السلام الذي يحمل غصن الزيتون بين جماجم من يتطلعون لعبادة الله الواحد الأحد ولرغد الحرية والنماء في ديارهم دون وصاية من أحد.

ثم لماذا يذهب سلامة بعيدًا؟ ها هو يتذكر أنه وقع له بالأمس بل منذ قليل مثلما وقع لصاحبه، نعم عندما قال له: «تبارك الله أحسن الخالقين»، ألم تغرورق عيناه بالدموع؟ وتركه وذهب دون صوت.. إذًا فليس أحد بأحسن من أحد.. وما دمنا نحيا فعلا.. فلا بد أن نلتقي.

***

كان للكبوة النفسية التي استولت عليه فوق الخوف من المجهول الثابت الذي تمثله فكرة الموت ومصاعب الإقامة في تلك الحياة الدنيا لا في هذا البلد الأمين فحسب، سبب آخر.. فمنذ افتراقه عن آله بعد الوصول لصلاة المغرب.. مضت على آخر صلاة أكثر من ساعتين دون أن يتذكر تلك الأسرة المعذبة التي كان يحب كراعٍ وحيد لها هنا أن يضعها في «نني عينه».. فكيف حدث ذلك ولماذا تتبدد نفسه بكل همومها وأحزانها وواجباتها كلما دخل هذا المسجد الخلاب الآسر وسيطر عليه جماله الأسطوري مسدلا ستائر النسيان؟! مباعدًا ما بينه وبين رعيته، وهن والصغير «أعز أحبابه» في هذه الدنيا، بعد حب الله عز وجل ورسوله الكريم.

هرع إلى أبواب دخول النساء كافة وفندها بحثًا عنهن فلم يعثر لهن على أثر، وقال في نفسه:

- يبدو أنهن والصغير قد نسوني مثلما نسيتهم، ولهم الحق، فالله ذاته جل شأنه يقول: «وكذلك اليوم تنسى»، انتظرهم طويلا وحار كيف يتصرف وولوج المسجد في هذا القطاع ممنوع قطعيًا.. وفكر أن يصفهن والصغير لإحدى الداخلات، فهن كثيرات، لمعاونته، ثم تردد؛ فالحديث مع أي امرأة غير مستحب إذا لم يكن هناك سابق معرفة.

- إن النساء محصنات تمامًا في هذا البلد الكريم.. محصنات جدًا.. فلكل امرأة محرم، ولكن.. أليس محتملا أنهم يقفون هناك عند السيارة في انتظاره؟ لم لا أذهب هناك لأرى؟

سأل نفسه ثم اندفع من فوره يخطو في ما يشبه الجري إلى موقف السيارة، ولم يكن بحاجة لبلوغها، فقد لمحها على البعد وحيدة، وعاد أسيفًا كسيفًا إلى موقفه الأول أمام الأبواب متشوقًا إلى وسيلة يتوسل بها إليهن.. وما هو إلا أن سمع لدهشته صوتًا نسائيًا ينادي عليه.. ونظر

وهو لا يصدق نفسه إلى صاحبة الصوت التي غطت وجهها فلم يعرفها وفغر فاه صامتًا، وهذا أقصى ما قدر على فعله.. وقدرت هي موقفه فأسرعت وكشفت له عن محياها لحظة كي يتعرف عليها ثم غطته في لمح البصر.. وفي التو أصابته شبه لوثة رقص لها فؤاده وتهلل وجهه، بل خلايا جسده كله، طربًا، وألفى نفسه يهتف بصوت عالٍ دون أن يعي:

- هذه هي.. هذه هي من أريدها الآن.. حمدًا لله.. حمدًا لله.

ثم توقف هنيهة يتنفس الصعداء واستطرد بعين الطريقة:

- السيدة نورا.. معلمة الرياضيات ابنة رفح المصرية.. وزوجة حداد الأبواب والشبابيك الفلسطيني الذي أنجب منها ولدًا وبنتًا.

لم ترد عليه لما اكتنفها من الحرج الذي اشتد بنظرات الفضول التي ترامت عليهما من بعض المارة، وكان بوسعها أن توليه ظهرها وتذهب لولا أنها كانت من الحساسية والفطنة بحيث خمنت أن شعوره وقد انقلب من النقيض إلى النقيض وراءه مشكلة هي حتمًا منقذته منها لما بدر منه بمجرد رؤيته لها.. ثم أنه أسرع بلملمة نفسه والاعتذار، وأكثر من ذلك وجد في نفسه المقدرة الواجبة على تحيتها وسؤالها عن زوجها وابنتها وابنها، فشكرت له حسن تأدبه ولطفه وسؤاله، وكانت لحظة النجاة التي انتظرها على أحر من الجمر عندما سألته بدورها عن دنيا وشمس وقمر وهلال، وفوجئت به يسألها قائلا كأنه ليس على بينة أو ثقة:

- إنهم في الداخل.. ألم تقابليهم؟ أليسوا بداخل المسجد؟

حدجته باستغراب لما استشعرته من الخشية والجزع في صوته، فأنشأت تقول بسرعة:

- على مهلك.. يخيل إلي أنني رأيتهم كما لو كنت أرى حلمًا.. فلم أكن أتوقع رؤيتهم وهم على هذا الوضع.

هتف مستثارًا ومتلهفًا يسأل:

- أي وضع؟

قالت بلهجة من تذكر أمرًا مهمًا فجأة:

- نعم.. الآن تأكدت.. إنهم.. هم.. وليسوا أشبه بهم.

وسكتت لحظة ثم ألقت الكلام كما لو كان قنبلة:

- إنهم نائمون.. نعم نائمون في أحد الأركان.

غمغم بعذاب حقيقي:

- رباه.. نائمون وأنا هنا أحترق قلقًا وخوفًا؟ ما هذا النوم الكثير الذي حط عليهم؟ ألم يكفيهم النوم في السيارة ساعات طوال.. كنت فيها أقود السيارة متعبًا وهم نائمون.. مستريحون و..؟

- مهلا لحظة.. سأتفقدهم لك.. معك حق والله.

قالت مقاطعة بلهجة عاطفة ملؤها التقدير لشعوره، ودخلت المسجد وغابت بعض الوقت.. لم تغب طويلا دقائق ثلاثًا معدودات، لكنها كانت أطول ثلاث دقائق في تاريخ البشرية على نفس آدم، الذي ما إن أبصرهم حتى أوشك أن ينقض عليهم ليحتويهم بين ذراعيه تغمر فؤاده فرحته لعثوره أخيرًا على أحبائه بعد طول يأس وضياع، وفي ذات الوقت همته في نفض دقائق كغبار أسود تخلف عن حريق هلع واضطراب نشب بلا رحمة في نفسه وقتًا لا يقاس بمقاييس الزمن العادية.. وبعد هذا تطارده الأنظار ليتمهل ويكون عاقلا في تبادل الأحضان مع ابنه وحليلته وبنتيه أمام المسجد النبوي.

والغريب أنهم - في ما أدرك - لم يستشعروا مقدار الجزع الذي أسال أعصابه كلها و«سيبها» حتى كادت تنثال من مخارجه، ووجهوا جل اهتمامهم إلى صاحبتهم يحدثونها في آن واحد، فقد انتهوا من الأحضان والقبلات على عجل وهم الآن يجتازون وقت الحديث وتبادل دفء

المشاعر الرقيقة العطوف تاركينه وحده يعاني برد وغلظة العقاب الذي يستحقه على نسيانهم بسبب هذا الولع بعمارة المسجد المعروف.. رباه.. ماذا حدث لآله وهم من جنس لطيف، إلا ولده؟ إلام هذا الجفاء وعلام هذا الاجتواء يا دنيا؟ وماذا علمت بذورنا حتى لا يشعر أحد بوجوده بعد أن افتقدكم سبع ساعات كاملة؟ أية قسوة تنبثق وأي نبع حب جف؟! لشد ما يشعر بالوحدة.. أكل هذا لأنه كان يطوف ويشوف في جنة ربنا وروضة رسوله؟

- آدم.. آدم قد ذهبت السيدة نورا فيم تفكر صامتًا؟

- في قطة سوداء.

- ماذا؟ ماذا؟

- معذرة.. أقصد في القطط السود.

- أية قطط سود؟

- تلك التي لا يرى المرء منها غير الأعين.. أعين خائنة ومع ذلك تتظاهر أنها لا تشعر بأحد.

- ولماذا هي إناث.. لم لا يكون بينها ذكور؟ مستحيل.. قد تغيرت كثيراً يا زوجي العزيز ولم أعد أعرفك.

تبسم بمرارة وقال:

- ولا أنا.. هيا بنا نأكل أو ننام.

سألته باستغراب:

- نأكل؟ ننام؟ أين؟

أجاب باقتضاب وتركيز وهو ينظر إلى أبعد ما يستطيع بصره الوصول إليه من هذا الجبل «أحد» الرابض في عرينه كالليث خلف المدينة المنورة كالحارس الأمين:

- في السيارة.. بيتنا.

ولا غرو أن تطول نظرته عامدًا متعمدًا.. لتذكره آنذاك شيخًا أنهى إليه في زمن مضى أن النظر إلى «جبل أحد» طويلا يقوي النظر.

وسكت بعض الوقت ثم قال كأنه تذكر أمرًا مهمًا:

- سبحان الله يا دنيا.

- مالك؟

- نسيت أقولك.

- ماذا؟

- ثمة أسرة تمكث بالمدينة تشبهنا في كل شيء تمامًا.. الزوجة دنيا غاوية تجميل.. شمس وقمر ابنتان لهما نفس عمر حبيبتي قلبك.. في نفس الصف الدراسي.. أكاد أقول نفس الشكل والاهتمامات.. والولد تصوري هو أيضًا آخر العنقود واسمه هلال.

تساءلت بفضول:

- والأب؟

- آدم.. هو الوحيد المختلف.. لكنه اختلاف في الاسم فقط.

سكتت هنيهة تفكر باستغراب في ما قال، ثم بغتة سألت كأنها تذكرت بدورها أمرًا مهمًا:

- أهي أسرة عائدة مثلنا؟

أجابها بنبرة غير الواثق:

- ربما.

ثم سكت وغمغم بعد لحظة على حين غرة:

- دنيا.

كأنه في عجب من صروفها وأحوالها.. وفي ذات الوقت غاية في الحب والرضا والخنوع لمقاديرها.

obeikandl.com

بوكاشيو

obeikandl.com

- ١ -

لم يدم.. مكث حنفي وآله بالمدينة المنورة كثيرًا مع رغبتهم العارمة في التقرب من الروضة الشريفة والصلاة في جنتها وزيارة قبر سيد الخلق وصاحبيه الكريمين أبي بكر وعمر.. بيد أنه - كما يقولون دوما - ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد تكفل الزحام الشديد بالقضاء على أطماعهم في اقتناص غرفة في فندق أو نُزُل، وبطردهم من مدينة النور مبكرًا.. ولأن الأسعار كانت في هذه المناسبة «الدينية القيمة»، التي لا تتكرر في العام الواحد، تخضع لمنطق «موسم الربح الكبير»، وكانت مرتفعة، لكنها لم تكن، كعادة قانون البشر، فلكية، فالغريب يشعر لأول وهلة أن أهلها يتسمون فعلا بما عرف عنهم من سماحة ودماثة خلق توراثتها الأجيال، فهم بحق أحفاد «الأنصار» الذين استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه الجديد بأحضان الحفاوة والحب البالغين، فهو البدر الذي طلع عليهم من ثنيات الوداع، كما تشدو بذلك على مر الزمن مأثوراتهم الشعبية.

وهكذا اكتفى حنفي وآله بما نهلوه من بركة الصلوات التي قدرت لهم بالمسجد النبوي، وبالصلاة مرة واحدة في المساجد الأخرى المباركة التي يحرص الحجاج على زيارتها، فهي مزارات دينية لها أهميتها ومنزلتها في التاريخ الإسلامي مثل: مسجد «قباء»، والمسجد «ذو القبلتين»، والمسجد الواقع في حي «أحد» بين جبل الرماة وساحة مقبرة الشهداء العظام في

obeikandi.com

تلك الموقعة، وعلى رأسهم سيدنا حمزة عم رسول الله وكبير حراسه. وفقط فاتتهم الصلاة في مسجد الصحابة، لأنه مع توالي وصول الحجيج إلى المدينة والبقاء فيها أطول وقت ممكن للتمتع بها ولحين بلوغ موعد أوبتهم إلى بلادهم، قد تكفل بزحام أشد مما كان في مكة لسبب بسيط هو أن الحجاج يغادرون مكة بعد السعي والطواف والصلاة لأداء باقي مناسك الحج في المشاعر المقدسة الأخرى.. أما في المدينة المنورة فليس من سبب يدعو للعجلة والمبارحة السريعة لأن الصلاة وحدها في المسجد النبوي هي غايتهم المنشودة.. والتبرك والتملي برؤية قبر رسول الله وصاحبيه أكثر من مرة هي عين مناهم ومنى أعينهم.

كانت المسافة بين المدينة المنورة وميناء ضبا السعودي لا تزيد كثيرًا على المسافة بين القرية التي كانوا يقيمون بها ومكة المكرمة.. وإن كانت تزيد بمقدار ملموس بين مكة والمدينة.. ومع ذلك استغرقت تلك المسافة من حنفي يومًا كاملا في قيادة السيارة، لأنه كان مكدودًا منهكًا.. ولأن حديثه مع نفسه لم ينقطع طوال الرحلة لسبب غامض (لم يفهمه) وكان له بالغ الأثر في القيادة بتراخٍ وتردد.. ولولا أنه كان محتمًا عليه مغادرة البلاد في مهلة محددة لتراجع عن السفر.

كان ميناء ضبا محليًا محدود النشاط التجاري ويكاد يقتصر على حركة سفر المصريين بينه وبين ميناء سفاجا المصري الذي يقابله على الجانب الآخر من البحر، وكانت الرحلة تستغرق نحو سبع ساعات بالعبَّارات العادية البطيئة، ونحو ساعتين إلى ثلاث ساعات بالعبَّارات الحديثة السريعة في الظروف المواتية من المناخ ومزاج البحر! وكانت تلك الرحلات لشباب مصر وأهلها لا تنقطع طوال العام لغرض العمل أو أداء فريضة الحج أو واجب العمرة.. ولذلك كان الكثيرون من السعوديين الذين يتصادف وجودهم بالميناء يحلو لهم التندر «بأنهم في مصر» في إجابة

obeikandl.com

بالهاتف عن سؤال ذويهم «أين أنتم؟»، ولحساسيتهم الشديدة المبررة من تلك الناحية.

وتعي ذاكرة حنفي جيدًا أنه قرأ في تحقيق مصري بإحدى الصحف، التي كانت تصل في مواعيد ثابتة ومنتظمة لكبريات المدن السعودية، أن أشهر شركة للنقل البحري بين مواني البحر الأحمر هي شركة «السلام».. وأنها قد جنت من وراء تشغيل العبارات أرباحًا هائلة، حيث قيل إن العبارة كانت تلد عبارة في غضون أشهر! وأنها تأسست، على ما يذكر، في ربيع عام ١٩٩٢، وكيانها القانوني «شركة مساهمة مغلقة».

وفكر حنفي كثيرًا في كلمة «مغلقة» هذه، لكنه لم يرهق نفسه في البحث عن مغزاها لأن المعنى جاءه جاهزًا في إحدى مرات عبوره البحر حينما جالس أحد البحارة، الذين لا يكفون عن البصق والثرثرة، وهو يشد أنفاسًا عميقة من غليونه ويطلق الدخان فيملأ رجيعه من التبغ الرخيص فراغ المكان، ووجه جليسه بصفة خاصة! حتى يفعم خياشيمه وجيوبه الأنفية فيعطس وتدمع عيناه ويتميز غيظًا، بينا هو يقهقه بحبور قائلا لطالب المعلومة الذي عليه التحمل ودفع الثمن في سبيل العلم:

- هي مغلقة بنظام الاستثمار الداخلي على أصحابها المؤسسين، ونشاطها طبعًا امتلاك وإدارة وتشغيل عبارة بحرية تبلغ طاقتها ألفا راكب وثلاثمائة سيارة وسبعمائة طن بضائع.. وفي غضون سنوات لا تتجاوز أصابع اليد صارت العبّارة عائلة كبرى مكونة من إحدى وعشرين عبّارة!

وسكت هنيهة وجذب نفسًا آخر ونفث الدخان كالعادة في وجه مستمعه كأنه يبصق عليه ممارسًا هوايته بطريقة أخرى أكثر فاعلية ومشروعية بزعم ممارسة حقه في التدخين الحر على سطح المركب، وتحمل صاحبنا ثانية في سبيل العلم، على حين استرسل هو مكملا، وفي أثناء ذلك يتأمل بخبث وسرور تأثير سحائب الدخان في عيني وأنف صيده:

- على قدر علمي.. ثلاث عشرة عبارة منها ترفع علم دولة بنما، وثلاث فقط ترفع العلم السعودي.. وعبارتان ترفعان علم الأردن.. وعبارة واحدة ترفع علم دول جزر البهاما!

- وعلم مصر؟!

- عبارتان فقط ترفعانه هما باقي العدد..

- وما السر في فوز علم دولة بنما بنصيب الأسد؟

- الله أعلم!

قالها البحار وولى الأدبار متعثرًا في خطوه ومغتصبًا ابتسامة وفي خبيئة نفسه هاجس مخيف من أن يكون قد وقع ضحية مكيدة أو وشاية! وتضاحك حنفي الخبير بهواجس الأنفس لطول ما استعشر واعترك الحياة وضرب أخماسًا في أسداس لما أصبح عليه الناس من سوء ظن وفطنة عكسية هي من فعل الوسواس الخناس! وسره بعض الشيء أن ينصرف البحار بتلك الكيفية المزرية بعد أن أوسعه نفخًا وتباهيًا بما يطلقه غليونه من الأذى، وتمتم معجبًا:

- أمًّا والله!

ثم ها هو يضحك بينه وبين نفسه ويردد «أمّا والله» وحوله آله غرقى في السبات إبان قيادته السيارة، وشعر بوحدة قاسية في الطريق الصحراوي الخالي، ينوشه القحل والقفر من كل جانب ففتح المذياع لعله يشاغله بترتيلة أو ترنيمة أو سلوى تؤنسه وتبدد وحشة نفسه وتخرجه من حالة الابتئاس إلى حالة الائتناس فسمع ما يلي:

- سجل التاريخ البحري المصري في المدى القريب حادثتي غرق وقعتا للعبارات المصرية على الخط الملاحي بين الموانى المصرية والموانى السعودية بالبحر الأحمر.. الأولى كانت عام ١٩٩١.. عبّارة مصرية اسمها «سالم إكسبريس» غرقت أمام السواحل المصرية بعد الارتطام بشعاب مرجانية

ولقي ٤٦٤ مصريًا حتفهم في هذه الحادثة.. والغريب أنْ نعلم أنَّ الحطام الغارق للسفينة الآن أصبح معلمًا لرياضة الغوص! والثانية كانت في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٥ العبارة «فخر السلام ٩٥» المملوكة لشركة «السلام» غرقت بالبحر الأحمر بعد الاصطدام بالشاحنة القبرصية التسجيل التي تسمى «جبل علي»، في تلك الحادثة أعلن عن مقتل شخصين وإصابة أربعين، بعضهم في التدافع لمغادرة العبارة الغارقة بعد إخلاء كل ركاب وطاقم العبارة المصرية.. جنحت الشاحنة «جبل علي» بينما غرقت العبارة «فخر السلام ٩٥» في ثلاث دقائق ونصف دقيقة!

غمغم حنفي لنفسه وهو يصفق في ما يشبه الفرح بعد أن استمع لتلك المحطة الأجنبية الناطقة بالعربية:

- حمدًا لله.. الحادثتان وقعتا في سبتمبر وأكتوبر، أما الآن فنحن في النصف الثاني من شهر يناير!

ولا يدري أي توافق وأية صدفة عجيبة وقعت بتوقف أنامله على المؤشر عند موقع تلك المحطة حتى تبخ في أذنيه تلك المعلومات القليلة المقلقة عن شركة بحرية لم يتأكد بعد موعد سفره وآله على إحدى عبّاراتها.. لظروف الحج.. فإنه حسب ما سمع من الموظف المسئول عن قطع التذاكر في وقت سابق إبان قيامه بترتيب أمور المغادرة النهائية للسعودية بأن الشركة، نظرًا للضغوط الشديدة للحجاج الحاجزين التي لم تتحملها لتأكيد حجزهم، توقفت عن بيع التذاكر على جميع العبّارات التي تملكها من منافذ البيع المنتشرة في جميع الأمصار.. وأن التأكيد بأسبقية الوصول إلى مكتب الشركة بميناء «ضبا»، وكذلك شراء التذاكر لمن لم يشترِ من أحد الفروع.

جالت هذه الأفكار في رأسه على هذا النحو، ولأنه كان، كراعٍ مسئول، أقل أفراد أسرته نومًا وراحة، فإن ذلك جعله - فيما يبدو - يفكر بصوت

مسموع ويحدث نفسه بصوت مرتفع أو يصفق أو ينفخ الهواء من فيه ليخلص صدره مما ران عليه من وطأة التعب، الذي تجمع من جميع أعضاء جسده في تلك الأيام الشاقة التي انقضت منذ ارتحلوا عن القرية، فاستيقظت دنيا وسألته جزعة مأخوذة:

- ماذا حدث؟

أجابها وهو يهدئ من خواطرها إزاء الضجة التي صحت عليها وهو يشير بإصبعه إلى بعيد وفي ما أمامه:

- لا.. لا شيء.. كل ما في الأمر أنني مسرور ومبتهج لأننا وصلنا مشارف ضبا!

وتتبعت الزوجة إصبعه متأملة ما يشير إليه فرأت مباني المدينة الصغيرة تتراص بجوار بعضها على البعد كالعهد بها قائمة في وداعة ووحدة وسكون.. فصمتت وأوغلت في التأمل طويلا دون أن تشاركه فرحته وسروره.

بل لم يشاركه في ذلك أحد من ذريته، لأنهم بعد أن دبوا بالسيارة في شوارعها القليلة المحدودة شهدوا زحامًا من نوع آخر أشد وأنكى.. فالزحام هنا لا يضبطه ضابط.. بينما في مكة المكرمة والمدينة المنورة كان يضبطه إيقاع حرص جميع المؤدين للمناسك على الإيثار والتراحم لتحاشي الهنَّات والهفوات التي إن وقعت وكانت من قبيل الرفث والفسوق والجدال فليس لهم من حجهم إلا التعب في السفر ومشاق الانتقال والإقامة وإضاعة الفرص المواتية للحج على الوجه الصحيح وهي عسيرة المنال وثمنها غالٍ.. لا يقوى عليه إلا كل ذي إيمان شديد وصبر أيُّوبي عالٍ.

أما هنا فقد انتهى الحج وفاز من فاز وأخفق من أخفق.. ورجع كل إنسان لأصله.

هنا.. اصطياد فرصة حجز مكان على إحدى العبَّارات (بأيه وسيلة) أهم وأبقى هدف، وكأن أحدًا لا يعلم أن سلوك الحاج بعد انتهاء المناسك..

له عين أهمية سلوكه قبلها وفي أثنائها، لأن الدين ليس مناسك وطقوسًا فحسب.. وإنما الدين المعاملة، والمعاملة تمتد لنهاية عمر الإنسان ولا تنتهي بنهاية مرحلة من مراحله.

على تلك الوتيرة، كما اعتاد هذه الأيام، حالت الأفكار في رأس حنفي وهو جالس على الأرض بجوار السيارة التي وجد لها مكانًا خاليًا بشق الأنفس! بالموقف الواقع أمام المحطة البحرية التي تهيمن عليها السلطات السعودية في الميناء لإنهاء إجراءات سفر المغادرين، أو على العكس دخول الواصلين حديثا للأرض السعودية.. وكذلك إجراءات دخول وخروج البضائع سواء داخل الحاويات.. أو داخل ثلاجات التبريد، والمحافظة على التجميد، التي تحملها سيارات النقل الضخمة الكاسحة التي تعمل على خط النقل البري والدولي بين الدولتين الشقيقتين.. وكذا عبور السيارات التي تحمل ركابًا، سواء الحافلات التابعة لشركات السياحة بالقطرين.. أو تلك التي يملكها الأفراد، عابرين بأنفسهم وذويهم البحر في رحلتي الذهاب أو الإياب، والذين كان عليهم أن يتحلوا بالصبر على الانتظار.

وكان حنفي وآله بالطبع ممن انتظروا طويلا - أيامًا جاوزت الأسبوع وهم في العراء بلا مأوى كغيرهم يعانون الأمرين للحصول على الطعام الذي كان على كثرته قليلا من كثرة طالبيه، وغاليًا لذلك السبب، فهم في الموسم السنوي الذي لا يتكرر.

وكان أسوأ ما في الانتظار ليس الجوع والعطش ولا عدم معرفة موعد السفر.. وإنما في قضاء الحاجة بالحمامات التي انفجرت من سوء استعمالها، أو قُل من كثرة استعمالها، رغم جهود المسئولين عن توفيرها بالقدر المعقول وصيانتها.. إلا أن الزحام لم يكن معقولا، وكانت حركة النقل قائمة على قدم وساق، غير أنها لم تكن محسوسة لما تراكم من البشر واحتشد، وكان التسابق في اقتناص التذاكر (المؤكدة موعد السفر)،

وصعود السلم إلى العبارات هو علة المشكلة وعقدتها، فقد كان يتبدد الكثير من الوقت والجهد والتنظيم بسبب ذلك، فضلا عما تسببه كثرة الحركة العشوائية التي لا تدور إلا حول نفسها من الشعور غير الحقيقي بتزايد الأعداد إلى حد الأزمة والاختناق! وإذا كان تجمع الناس في وقت واحد هو السبب المباشر لعدم المحافظة والصيانة التي تبدو غير كافية للمرافق ودورات المياه وانسداد مواسير بعض هذه الدورات من كثرة ما ألقي فيها.. الأمر الذي تحتم معه خروج الكثير من الحمامات وأحواض الاغتسال من نطاق العمل والخدمة إلى نطاق التعطل وانعدام الأداء، مما يقلل عددها، التي مهما نشطت أيدي عمال الصيانة لإصلاحها فليس من سبيل لجعلها صالحة طوال الوقت، مع هذا الطلب غير العادي لها الذي يزيد على طاقة احتمال مواسيرها، وقد ابتدع حنفي وسيلة ناجعة للتغلب على تلك المشكلة، فكان يخرج بزوجته وابنتيه من الموقف ويذهب بهن في ضاحية بعيدة ومنعزلة عن الشاطئ.. حيث يتسع السهل الساحلي هناك، وحيث مياه البحر لا نهاية لها.. أما عن الصغير هلال فلم يكن ثمة مشكلة في أن يقضي الحاجة خلف الأسوار الكثيرة الانتشار.

أما الطعام فهم (آل حنفي) بطبيعتهم جميعًا غير أكولين.. فضلا عن أن الأوضاع التي وجدوها أمامهم وانخرطوا رغم أنوفهم فيها أعدمت شهيتهم ولم يكونوا يبتهجون عندما يفلح الوالد في إحضار طعام أو شراب، فيما خلا هلال طبعًا.. لأنه لم يكن على إدراك تام بما هم فيه.

أما عن ملل الانتظار فإن حنفي بذكائه وألمعيته وما عرف عنه من خيال واسع طفق يسلي نفسه ويسلي آله بتصيد الأخبار ومختلف صنوف الأحاديث التي يتبادلها القوم الذين لم يظفروا بعد بلقب ركاب.. وليته لم يفعل.. ولم ينهج هذا النهج لأن بعض الأحاديث لم يكن مسليًا أو يدعو للضحك.. وإنما للبكاء والخوف من المصير عمومًا.. ولذلك كان كثيرًا ما

يردد دون أن يشعر المثل القائل حقيقة.. «شر البلية ما يضحك»!
ولذلك أيضًا تغيرت هوايته المفضلة والناجعة لقتل الوقت إلى البحث عن صديق، أو حتى معرفة قليلة، ويوثق صلته به، وحض زوجته وابنتيه على الفعل مثله، فكن ينتحين جانبًا ويتبادلن الحديث (أي حديث) مع النسوة الأخريات ساعات طوال، وانشغل هلال باللعب مع من في مثل سنه من الأولاد والبنات.. وبدا الأمر وكأن الأسرة عن بكرة أبيها تقضي وقتًا طيبًا! إذ تكفل ذلك البحث والفرز للأفراد والجماعات باكتشافات هائلة لأصدقاء أعزاء ومعارف قديمة.. وكانت معلمة الرياضيات المصرية ابنة رفح وأسرتها في طليعة هذه الاكتشافات البديعة.. فهي وقد أنهت عقدها مع إدارة التعليم أراد زوجها الوفي أن يخفف عنها فحصل على إجازة من عمله بورشة حدادة الأبواب والشبابيك، وهما الآن في طريقهما لقضاء تلك الإجازة في الوطن الأول بعد أداء فريضة الحج مثلهم.
كما تقابل حنفي مع المزارع رجب البحراوي.. والمزارع علي الصعيدي.. ودعاهما لصحبته..
كان الاثنان في إجازة بين مواسم الزراعة.
ثم وقعت المفاجأة الكبرى بمجيء السيدة نعمة، زوجة رجل الأعمال المقاول فارس حمزة، وابنتها الجميلة وابنها الذي لا يقل جمالا، بعد أن انتهت، أو أوشكت على الانتهاء، عطلة نصف العام الدراسي.. التي قضتها الأسرة مع الأب الذي لا يجرؤ على المجيء لتوصيلهم مخافة أن يرصده أحد أعدائه ويقتله أو يخبر طلاب الثأر منه بمكانه فيقتلوه أيضًا.. وكان مقدرًا للزوجة ولمن يرافقها أن يعودوا للوطن كما جاءوا بالطائرة.. لكن تغيرت الخطة وركبوا البر، وهم الآن في انتظار ركوب البحر، ولا أحد يعلم أهي المغالاة في احتياطات الأمان أم لغرض السياحة.. فراكب البر يتمتع بمشاهدة ما يحرم منه راكب الطائرة.. أم أن تضليل سلاح الاستطلاع

obeikandi.com

والتلصص لدى الأعداء هو السبب في التغيير غير المنطقي للخطة؟!
وفضلا عن كل هؤلاء ظهر الشاب المتظاهر بالتدين الذي تعرف إليه في شقة «مؤسسة نسيم لبيع السيارات» وزوجته التي شاء قدره أن يراها ويتعرف إليها هنا بعد أن سمع عنها هناك! وتساءل في سريرته:
- بالله.. أهذه تصلح خفيرًا؟!
وهو يتأملها ويزن بميزان حساس جوهرها فإذا هي امرأة سريعة التآلف مع الناس وقد اندمجت اندماجًا عميقًا مع دنيا وابنتيها، وكانت حلوة الحديث، وليس ما يدل مطلقًا على أنها كانت تعمل خفيرًا أو بائعة للساعات الجميلة.. وقد فاجأته دنيا عندما سألها عن رأيها فيها قائلة بلهجة قاطعة في إحدى لحظات إعجابها بحديث لها انتهت منه لتوها:
- إن بعض الظن إثم.. احذر غضب الله من رمي النساء المحصنات.
وحين وصلت حافلة تُقل فوجًا من الحجاج العائدين لمح فيهم صديقه سلامة سالم سليم فتهلل وجهه فرحًا.. وهب إلى حيث كان يقف بجانب الحافلة يشرف على عملية نزول تتجاوز أعضاء أسرته الذين كانوا جميعًا ذكورًا، فيما خلا زوجته!
- ما شاء الله.. اكتملت العصابة يا سلامة.
- غير معقول.. غير معقول.. نحن نتقابل دائمًا صدفة.. يبدو أن مصيرنا واحد يا صديقي!
- حمدًا لله على السلامة.
وتعانق الصديقان وتبادلا حديثًا طويلا به شجون عن متاعب الحياة عمومًا والسفر خصوصًا (والمتاعب في انتظار عبارة تُقلهم بوجه أخص)، واكتشف حنفي من خلال ذلك أن صديقه ليس فقط مع أسرته ولكن هناك العديد من الأسر التي يمت لها بصلات الأخوة والقرابة كانت معه.
وهكذا غرق حنفي وآله في خضم ضخم من الناس الذين سرهم التعرف

إليهم واتسعت الدائرة وصار لا يعرف لها أول من آخر.. وصار لزامًا أن يتوسل أحد إلى الطريقة التي تنجيهم من عذاب الانتظار وتدخلهم في زمرة المحظوظين الأخيار الذين دخلوا جنة العبارة، ولا يدري أحد أهو منتهى التوفيق أم «الشطارة»، حتى في هذا يصعب الحسم.. يا خسارة.

وجاء علي الصعيدي المزارع، الذي يبدي اهتمامًا كبيرًا بالأخبار العامة، وقال:

- سمعت أن الشركة التي تحتكر نقل الركاب بين الموانى المصرية والموانى السعودية بالبحر الأحمر تنتظر صدور شهادة بزيادة عدد الركاب على إحدى العبارات التي ترفع علم دولة بنما!

وتفرسه سلامة بنظرة ثاقبة لحظة وهتف مخاطبًا حنفي وعلامة استفهام كبيرة ترتسم على محياه:

- ماذا يقول هذا المزارع الصعيدي؟

أجابه حنفي بتبرم طفيف وعدم احتفال:

- دعك منه.. لا تهتم لكلامه.. إنه دائمًا يأتي بالأخبار التائهة.. ويكدر كل من يعرفه أو لا يعرفه.

صاح علي الصعيدي محتجًا:

- بل أنا آتي بالأخبار الصحيحة التي تنفع من يسمعها.. واسمعوا أيضا.. سمعت أن صاحب الشركة عضو مجلس شورى جاء بالتعيين..

قاطعه حنفي نافد الذرع:

- وماذا أيضًا يابو «العريف»؟!

استتلى أبو العريف كما لو أن أحدًا لم يقاطعه:

- وعضو بمجلس إدارة هيئة الموانى.

ساد الصمت أكثر من دقيقة.. بدا أن كل من سمع في حاجة ملحة لإعمال التفكير والنظر، وبخاصة سلامة وحنفي، وانضم إليهما الشاب المتدين،

مروج الساعات سابقًا.

كان على أحد تبديد ما ران على جو المكان من صمت كئيب.. فقال حنفي وهو يتردد كأنما تتلاعب برأسه أفكار عابثة يأبى قبولها أو التسليم بصحتها أو لمجرد الحديث وحسب، متسائلا:

- قولا لي.. ماذا في ذلك؟

رد علي الصعيدي عليه ردًا لم يكن يتوقعه أحد، فقد أنشأ يغني بطريقة مستفزة ساخرة:

- قولوا له.. قولوا له.. قولوا له الحقيقة..

وشهقت امرأة من ركاب الحافلة من مكان قريب ثم أنشجت تبكي بكاء شديدًا، ونظر حنفي إليها بانزعاج وتساءل:

- ما بالها؟!

أجابه سلامة:

- لا شيء.. إنها على تلك الحال «توقوق» منذ بارحنا المدينة.. أو على الأصح منذ اخترقنا السهل الساحلي وسار «الأوتوبيس» بجوار البحر!

هتف حنفي مأخوذًا ومتسائلا:

- يا سلام.. وماذا في البحر؟!

تداخل في الحديث أحد الركاب كان يتنصت قائلا:

- في البحر أغواره وأطرافه المترامية وغموضه.. ووحوشه!

صاح علي الصعيدي بإصرار غريب:

- خلّوا بيننا وبين هذا.. دعونا في ما نحن فيه.. أتعجبكم تلك الحال التي نحن عليها؟!

اشتد ضيق حنفي به لغير سبب.. اللهم إلا تاريخه معه في نقل الأخبار العامة السيئة، فتأفف وانتحى جانبًا على حين أدلى الشاب المتظاهر بالتدين برأيه فصاح بدوره قائلا:

obeikandl.com

- إحدى النتائج الحتمية لاحتكار البحر.

جاوبه علي الصعيدي قائلا في أعقابه، وقد سره أن يقع أخيرًا على من يسانده، والتقط المبادرة كما لو كانت أنشودة يتبادلان فيها الأدوار:

- واحتكار البر أيضًا وحياتك يا عزيز عيني.. فإن معظم المفتشين بهيئة السلامة البحرية من محاسيبه ومريديه.. وأحد المسئولين الكبار فيها من أقاربه.

تساءل حنفي مربدًا ومتظاهرًا بعدم الفهم، أو بالأصح متغابيًا لسبب غير مفهوم:

- قولوا لي.. ماذا في ذلك؟

تشارك علي الصعيدي ونصيره الشاب في نظرة تفاهم وقالا في صوت واحد وهما يتحلقان حوله ويصفقان بطريقة تمثيلية مرحة:

- قولوا له.. قولوا له.. قولوا له الحقيقة..

وتعالى نحيب المرأة بصورة التهبت لها أعصاب حنفي للغوغائية التي سادت المكان، فلم يتحمل وتوجه إليها يصرخ في وجهها:

- كفاك نعيب البوم هذا يا ست أنت.. حطمت أعصابنا.. بالله عليك كفى.

- بل كفاك ما أنت فيه من غفلة.

قالها أحد ذوي قرباها غاضبًا وهو يبدي احتجاجه على لهجته في مخاطبتها.. وفهم حنفي أنه تجاوز حدود اللياقة في معاملة الحريم، وبخاصة أنه لا يمت لها بصلة أو سابق معرفة، فاعتذر وعاد إلى أصحابه في الوقت الذي صاح فيه الشاب:

- لا تغضب أو تحزن يا أخي.. كلنا على هذه الحال.

ثم صمت لحظة واستطرد بلهجة من يقرأ القرآن:

- «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس».

وجاء سائق الحافلة الذي كان يراقب ما يدور أمامه عن كثب.. وكما لو كان جو المكان المتوتر ينقصه، أنشأ يقول بلهجة خبير عليم:

- أخبرني أحد البحارة على عبارة اسمها «السلام ٩٨» أو «بوكاشيو».. لا أذكر..

قاطعه حنفي بعنف جذب انتباه واستغراب الجميع لغموض أسبابه فعقدوا ما بين الحواجب وحملقوا فيه بشدة واستمعوا إليه وهو يرغي ويزبد قائلا:

- أنهوا تلك الندوة.. أنهوا تلك المهزلة التي تحطم الأعصاب يا صحاب.. تتحدثون كما لو أنكم من كبار الخبراء أو العالمين ببواطن الأمور.. في حين أنكم لا تعلمون إلا القليل.. بالله خلّوا بين هذا الحديث وما نحن فيه كما قال صاحبنا علي الصعيدي.

ابتسم علي ابتسامة تدل على الفخر والانتصار وانبرى يقول:

- حسنًا يا رفاق.. صديقي حنفي معه حق وليس من عالم آخر.. هيا نذهب لمكتب الشركة لنرى إن كان دورنا في الحجز وتحديد الموعد قد أزف.

- أزف؟ «أزفت الآزفة.. ليس لها من دون الله كاشفة».

أطلق الشاب المتدين لصوته العنان وهو يردد تلك الكلمات من القرآن بصورة منغمة مثيرة للغضب فزجره حنفي قائلا وهو يلكزه في ذراعه:

- من أين طلعت علينا؟! لم يكن ينقصنا إلا أنت.

احتبس الصوت في حلقه إذ وقعت عيناه في تلك اللحظة على رجل بدا من هيئته أنه سعودي، أو ربما مصري، «عامل سعودي.. وما أكثرهم».. وبحث في ذاكرته.. أين رأى هذا الرجل.. كان يدنو على مهل منهم وحين أصبح على قيد خطوة أو نحوها طالعه وجهه جيدًا وتبادل مع حنفي نظرة ضمنها الكثير من عدم الاهتمام أو الاكتراث، ثم مر من أمامه ومضى لحال

سبيله لا يلوي على شيء واختفى بين الجموع الحاشدة المنتظرة.. حينئذ فقط تذكره تمامًا واعتمل في صدره غضب لا يوصف كاد يدفعه للركض في أعقابه وإمساكه من عنقه ليناقشه الحساب ويلقنه الدرس الذي يستحقه كل رجل «قميء» مثله.. ولكن أيكون مثلهم ينتظر عبور البحر إلى مصر؟ أقلقه هذا الخاطر كثيرًا.. كما لو أن الرجل إنما أتى في أعقاب دنيا.. وأرسل عينيه إلى حيث كانت تقف مع بعض النسوة تتجاذب أطراف حديث حار.. آه.. ندوة أخرى.. ويستعجلها بنظراته أن تنتهي.. كما لو كان يستنجد بها على ما يشعر.

obeikandl.com

- ٢ -

كانت غير بعيدة عنه، ولا بد أنها لاحظت مرور الرجل من أمامه، وعجمت خبيئة صدره وما هو فيه لأنها سارعت ترد عليه رسائله الملتهبة بنظرة هادئة.. وديعة.. مطمئنة.. كلها صفاء وحنو ووفاء.. وتمتمت بكلمة واحدة سمعها بوضوح:

- تريث.

ثم أردفت بعطف متناهٍ:

- اهدأ.

فهدأ وتريث معًا لأنه كان في أَمَس الحاجة إليها.. إلى عطفها وحنانها وتعقلها في ذات الوقت.

وجاء أوان انسل فيه من الزحام خارجًا بزوجته وبنيه إلى تلك الأرض الخلاء التي كانوا يقضون فيها حاجاتهم ثم يعبون من ماء البحر ما شاءوا لغسيلهم واستنجائهم ووضوئهم بعيدًا عن الأعين.

وانتهز فرصة اختلى فيها بزوجته دنيا بعيدًا عن ابنتيها اللتين ما كانتا تفارقانها لحظة والتصقتا بها أكثر من الصغير هلال في تلك الأيام ولا يدري السبب.. وسألها:

- لماذا كانت تبكي تلك المرأة ذات الصوت المخيف؟ وفيم كان حديثك الساخن مع الأخريات؟

أجابت بصوت خفيض وهي تختلس النظر إلى ابنتيها اللتين راحتا ترشان الماء في مداعبة هنية مع شقيقهما الصغير:

obeikandl.com

- أتعرف يا حنفي.. تقول زوجة صاحبك سلامة كلامًا غريبًا..
- كيف؟
همهم مستثارًا وكله آذان مصغية لسماع الإجابة، فواصلت تهمس:
- في نحو منتصف شهر أكتوبر الماضي.. منذ ثلاثة أشهر تقريبًا.. قتل ابن أخ لها على عبارة مصرية مملوكة لشركة «السلام» لدى اصطدامها بشاحنة قبرصية!
- أعرف هذه العبارة.. اسمها «فخر السلام».. والشاحنة اسمها «جبل علي»..
- اصبر.. أنا أجيء لك في الكلام.
أصر على المقاطعة قائلا:
- يا سلام.. ولكن الذين قتلوا في تلك الحادثة.. اثنان فقط..
- كان هو أحدهما.. مسكينة أمه.. لا يدرك غير الأمهات فقط مدى حزنها.. خصوصًا أنه كان الابن الوحيد.. داسته أقدام الركاب في تدافعهم نحو الهروب إلى الشاحنة التي صدمتهم مما أدى إلى وفاة آخر كما تقول.. وإلى جرح..
- أربعين.. أعرف.. أعرف.. قد سمعت ذلك في الإذاعات الأجنبية وقتها ثم تجدد سماعي منذ أيام ونحن نقترب من هذا المكان العاري.. الكثير الرمال.. الشديد البرودة الذي تصفُر فيه الرياح.. إننا نعاني أسوأ أيام حياتنا يا دنيا.
- كفاك نواحًا حتى لا يسمعك الأولاد.
- تقصدين البنات؟!
- هلال معهما.. وللذكر مثل حظ الأنثيين.
غمغمت تداعبه لإخماد ما يقلقه وبمزيد من العطف.. وفهم هو مقصدها فشكرها بنظرة أشد عطفًا وتمتم على استحياء:

- أنت التي تقولين ذلك..
- أجل من فرط حبي له.
قالتها وهي تسترق النظر لابنتيها والصغير الذي مضى يلعب معهما ويتضاحك في بحبوحة وهناءة صباه، وكلها حرص أن يكون ذلك من طرف خفي حتى لا تفقد خيوط التواصل مع زوجها الشديد الحساسية فيخال أنها تتشاغل عنه.. ثم سكتت هنيهة وأكملت جملتها وعيناها تطرفان بدلال وخجل وذكاء فطري احمرت له وجنتاها:
- ولك..
ويبدو أنها كانت صادقة كل الصدق في ما تشعر به نحوه من الحب والرغبة.. فقد مضى وقت طويل على آخر مرة اختليا فيها إلى بعضهما.. بالتحديد قبل أن يغادروا القرية آخذين الطريق إلى مكة المكرمة، من يومها وهما يعانيان كثرة غالبة من الناس من مختلف الأجناس.. ولم تتح لهما خلوة جميلة تجدد الأمل والإحساس وحب الحياة والائتناس مثل تلك هنا.. حيث صفرة الرمال وصفرة مياه البحر المحملة برمال الشاطئ.. وصفرة ضوء الشمس.. وصفرة الوجوه التي أحرق دماءها برج الشوق والحنين الدفين إلى بعضها.. وأيضًا صفرة الريح التي تسمع لأنينها وهي تتواثب نافذة من بين جلاميد الصخور العالية المطلة في بعض المواضع على البحر الذي تهدر أمواجه رفضًا لما نشأ بين الريح والبرد القارس من ألفة وتفاهم للسيطرة عليه مستعرضًا ما ينطوي عليه من قوة، وفي ذات الوقت خفة ورشاقة، فيرتفع عاليًا ثم يهبط على صدره كما لو كان يمارس رياضة «تمرين الضغط» بعنف وتوالٍ لا نهاية له لإثبات قدراته التنافسية والتماس بعض الدفء أو بث الرعب في روح الناظرين إليه تفتيتًا لأي روابط أو تفاهم من أي نوع.. يا الله إن روح الدفع من عجين الوجود والطبيعة فإلام غضب الغاضبين؟ وهو دفع من الله للناس ولكل مخلوقاته

كي يستمر ما بينهم من تفاعل على الشد والمد وتناغم على الجذب والجزر وذلك الصراع الأبدي المطلوب بين الخير والشر.. فمن يضحي بحياته إذا لم يكن هناك ظلم؟ ومن يأخذ إذا لم يكن ثمة عطاء؟ ومن يشتري إذا لم يكن في الأسواق على مختلف أنواعها الجامد والحي من يبيع؟ إن الدفع ضمان لاستمرار الحياة.. والموت نفسه ليس شرًا كله فعلام الخوف منه.. وإلام نكرهه؟! وهو قنطرة العبور الوحيدة من الحياة الدنيا الزائلة إلى الحياة الأخرى الباقية التي وصفها الحي الباقي بأنها الحيوان.

- حنفي..

- «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»..

- حنفي..

- «خيركم من طال عمره وحسن عمله».. وإذا لم يكن عملنا حسنًا.. أليس الموت أفضل لنا؟

- يا الله.. حنفي.. فيم تفكر؟ أمّا والله.. حنفي..

- ماذا؟

- خذني في أحضانك..

- ماذا حدث لك يا امرأة.. أفيقي شمس وقمر ينظران إلينا.. هل فقدت صوابك؟!

- لا ولكن.. أتعرف..

- ماذا؟

- لم أكمل لك حديثي.. ولم أقل إن زوجة صاحبك سلامة قالت إن بفوج الحجاج امرأة يعمل زوجها مفتشًا بهيئة السلامة البحرية..

صاح مستثارًا مرة أخرى وسأل:

- صحيح.. وماذا قالت؟ لا بد أنها تعلم أسرارًا ومعلومات كثيرة عن السفن والشركات.. أعني شركة.. طيب.. ماذا قال لها زوجها؟

obeikandi.com

- اخفض صوتك وإلا سمعنا الأولاد وثارت مخاوفهم.. اسمع.. قالت إن بعض قوارب النجاة منتهية الصلاحية وإن السليم منها لا يكفي ربع عدد الركاب المقرر للعبارة حملهم.. وإنه تم التصريح لها أمس فقط بحمل ضعف العدد.

- عن أي عبارة تتكلمين؟

- وهذا سبب تأخيرنا وطول انتظارنا.. فقد كان هناك جدل لا ينتهي بين الشركة المالكة والمسئولين.

- سألت عن أي عبّارة تتحدثين؟

- قلت لك هس وإلا سمع الأولاد وخافوا.. اسمع أيضًا.. قالت إن «جواكيت» النجاة لا يتم التفتيش عليها، وإن زوجها وزملاءه طلبوا تغيير ثمانية آلاف سترة دفعة واحدة في عدد عشر عبارات قاموا بالتفتيش عليها.. أتعرف شيئًا اسمه «الرماثات»؟!

- نعم.. أعتقد أنها زوارق النجاة المطاطية!

- حالها مثل «الجواكيت».. كتبوا أيضًا مطالبات عديدة بتغيير أسطوانات إطفاء الحريق لفسادها.. كتبوا ذلك لمدة طويلة.. وكما تعلم هذه الأسطوانات أحد مكونات السلامة الأساسية على السفن.

- مستحيل.. مستحيل..

- صدق أو لا تصدق.. زوجة المفتش تتحدى أن يسأل أحد ربان السفينة عن جهاز اسمه.. شيء اسمه..

فكرت قليلا ثم استتلت بحرارة:

- أي والله.. اسمه جهاز الإطفاء المائي أو الذاتي.. على الماكينات.

- وما هذا الجهاز؟

- إنه جهاز أمان يتم تركيبه على الماكينات لتبريدها ومنعها من أن تحترق.. وهو يقف لأي حريق بالمرصاد ويحده.. ويحول بينه وبين الانتشار من

جسم الماكينات إلى باقي الأجسام.
- تقصدين أجسام الركاب؟!
- أجل.. قد جاء في إحدى مرات التفتيش على بعض السفن ما يفيد إعفاءها من تركيب جهاز الإطفاء الـ. آه.. المائي.. تذكرت.. لحين انتهاء موسم الحج العام الماضي.. بصفة استثنائية.. ولمدة قصيرة فأصبح الاستثناء قاعدة وهذا يخالف اتفاقية سلامة الأرواح، كما تقول زوجة المفتش، التي تلزم بوجود هذا النظام، متعللين بأن التكدس ليس في موسم الحج فقط.. بل طوال أيام السنة.. مع أنه كما تقول أيضًا.. في موسم الحج الماضي لم تنقل هذه السفن، وهي بالعشرات، أكثر من ٢٣ ألف حاج.. ولذلك هي تتحدى..
- من؟
- قلت زوجة المفتش.. تتحدى أن يسأل أحد الركاب الشجعان.. قبطان السفينة التي يركبها عن هذا الجهاز.
- ثلاثة وعشرون ألفًا فقط؟ نحن نرى هذا العام مئات الآلاف..
- أنت لا تعرف.
- ماذا أيضًا؟
- كل هؤلاء ليسوا حجاجًا.. الغالبية العظمى منهم من العاملين وأسرهم مثلنا بالسعودية ودول الخليج.. جاءوا لقضاء إجازة نصف العام الدراسي التي أتت في أعقاب إجازة الحج والعيد.. ثم لا تنس يا أخي حجاج العمرة.
- أي.. تقصدين هؤلاء الأفاضل الذين يأتون في أشهر العمرة للزيارة، وعلى الأخص في شهر رمضان، ثم يتخلفون مختبئين لدى أقاربهم ومعارفهم.. أو حتى بأجر لدى البعض ممن يقيمون بمكة وضواحيها لحين مجيء أوان الحج فيخرجون من المخابئ ويحجون.. ولكن في هذا مخالفة واضحة للنظام ولأمر أولي الأمر تفسد الحج وتجعله غير مقبول عند الله.

- هذه قضية أخرى.

- بل هذا خطير.. لأن هؤلاء لا تعترف السلطات السعودية بإقامتهم فتسقطهم من كشوف المغادرين وتترك أمرهم لشركة العبَّارات، هكذا قالت زوجة المفتش.. وهي أقفلت شباك قطع التذاكر بعد قطعها للعدد المسموح للعبارات بحمله لا بسبب التزاحم.

- مصيبة.

- طبعًا.. لأن هذا يفتح باب الجشع والطمع.

- المفتوح أصلا..

- كيف؟

- الله أعلم.

وهمهمت دنيا بكلمات غير مفهومة وهي تلقي بنفسها في أحضانه خوفًا وقلبها ينتفض بين أضلعها، وانتحبت بصوت هامس حبيس حتى لا تجذب انتباه شمس وقمر وهلال، الذين كانوا قد تركوا اللهو واللعب واقتربوا منهما في عين اللحظة وشاركوهما الأحضان وأغرقوا الأم والأب في فيض غامر من المشاعر العامرة بالحب والأمل لا يقدر بثمن.

وكان هذا التصرف غير المقصود منهم حسنًا وفي محله تمامًا؛ إذ أغرق شعور بالحرج كان محتملا أن يكتنف الأم بشدة وقسوة وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه على البحر كما يفعل بعض الشباب في بعض التمثيليات العربية التي تقلد الحلقات الأجنبية.. ولن يشفع لها أنها أحضان الأب.. فهو ليس أبًا بالنسبة لها.. هكذا لوعة الحب أمام أعين الذرية الصالحة.. وبركة مياه زمزم لم تزل عالقة؟! إنهم يعلمون جيدًا مقدار ما بين الأبوين من ود ورحمة، ولن تقدر مياه البحر على إزالة الآثار الخالدة للمياه المقدسة مهما بلغت ملوحة الأولى وعذوبة الثانية، لأنها لم تلتصق بسطح الجلد بل تخللته إلى أعمق ما في الخلايا اللونية من مرايا عاكسة للأنوار والأضواء،

لا سيما في منطقة الوجه واليدين، ولذلك استثناهما الله من الحجاب في المرأة.. وغلظ عقوبة من ترتفع يده لصفع الوجه مرآة أعماق بني آدم ومنارته الهادية.

إن مياه البحر الأحمر كله غير كافية للحلول محلها من نفس المسلم لو أنها أفلحت في الاختراق إلى الأعماق فستواجه حتمًا بحجاب حاجز يمنع وصولها إلى السويداء من تلك النفس التي اغتسلت وتطهرت وتشربت بريق صحوة الإيمان وترياق بركة الحب والصدق في فيضان نهر لا يعلم أحد أين مساقط أمطاره العلوية ومن أي سماء يا دنيا.. الحقيقة سبحانه أعلم بها يا دنيا.

* * *

إبان رحلة العودة من الغائط الأسري الخاص في بكرة ذاك الصباح، بدا حنفي مهمومًا شاردًا يفكر في ما يكون عليه رد فعل الناس إذا ما سرت بينهم تلك الشائعات المخيفة غير العزوف عن ركوب سفن «السلام»، وسأل نفسه السؤال الوجيه الذي يطرح عادة في مثل تلك الأحوال عن مدى الصحة والمصداقية، فألفى نفسه يردد في تلقائية الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..»، فاستراح صدره وابترد فؤاده وراح يكرر لنفسه:

- نعم.. نعم.. لا بد أن نتبين.. لا بد.. لا بد.

كما لو كان يحاول إقناعها.. وفي الحقيقة كانت الوسيلة «للتبين» تعوزه بشدة، وانشغل باله بالتفكير وهو يحملق في ما أمامه وفي الأرض فنسي تمامًا أنه يماشي أسرته في طرقات بلدة غريبة، وابتعد منفصلا عنها كثيرًا، ثم لما اكتشف ذلك لام نفسه وأبطأ من خطوه حتى لحقت به تلك الأسرة المعذبة في اللحظة التي اهتدى فيها إلى أن أنجع وسيلة هي أن يخاطب

زوجة المفتش، لعلها تملك أسانيد على صدق ما تروج له؛ مثل صور المكاتبات.. أو تقارير التفتيش والمراجعة.. وإلا وجب عليه أن يضغط عليها مهددًا بأنه سيحادث من «يهمه الأمر» في شأنها لتبوح بالسبب الذي دفعها إلى إطلاق تلك الشائعات عن الشركة التي يراقبها زوجها.. وكيف أن عجزها عن تقديم الأدلة الدامغة سيعرضها لموقف صعب، إذ سيكون من حق صاحب الشركة والعاملين بها المطالبة بتعويض عما لحقهم من أضرار مادية ومعنوية، الذي يلي الحكم بالسجن.. فضلا عن الضرر الذي يعطي أي مصري الحق في مقاضاتها للأضرار التي لحقت بالاقتصاد المصري.

وضحك في سريرته وهو يردد:

- نعم.. نعم.. وخصوصًا البورصة.

وأضمر أن ينتحي بدنيا جانبًا ليحادثها في ما يفكر به لترتب له مع زوجة المفتش لقاء «المواجهة توًّا»، فالأمر لا يحتمل انتظارًا، وبمجرد أن بلغوا مكانهم المحجوز على الأرض بأمتعتهم الشخصية كاشفها همسًا فوعدته دنيا، عن غير اقتناع، بأنها ستحاول، فأفهمها أنه سيتولى الأمر بنفسه وسيحل الشيطان محلها ويكون ثالثهما لا محالة إن فرطت.. فانزعجت دنيا للهجته لكنها اقتنعت وهزت رأسها علامة على الموافقة، ثم تركته لتبحث عن زوجة سلامة لتعاونها فتابعها.. وما وجدتها حتى رآها تسر في أذنها بشيء خبطت له الأخيرة صدرها بكفها ثم جذبتها من يدها وسارت تتخطى بها جموع الجالسين حتى بلغت مكان السيدة المطلوبة ودار بينهن حوار لم يسمعه حنفي، لكنه عرف نتيجته من دنيا حينما عادت إليه تضحك، وابتدرته ملقية إليه بآخر ما كان يتوقعه قائلة:

- إنها تنكر أنها فاهت بمثل هذا الكلام الفارغ.. وإذا كنت لا تصدق فإنها مستعدة أن تأتي بالمصحف لتحلف عليه.

obeikandl.com

- ماذا يعني هذا؟

سألها مشدوها، فأجابته وهي تلملم ضحكها وتربت على كتفيه بكفيها كما لو كان تلميذًا خائبًا لا يريد أن يتعلم:

- معناه أن تريح نفسك.. أنت لن تصلح الكون.. ماذا يا زوجي العزيز؟ لقد أتعبتنا والله وأتعبت نفسك.. ثم إنني لمست في لهجتها أنها صادقة، فهي سيدة محترمة وعاقلة وعائدة لتوها من الحج مثلنا.

أومأ برأسه لها بعلامة الفهم دون الموافقة، ودمدم يحاورها:

- منطق.. لكن ماذا قالت امرأة سلامة وهي التي أشاعت عنها أنها قالت هذا الكلام الفارغ؟!

أجابته قائلة بلهجة حاسمة وقاطعة:

- لم تقل شيئًا.. بل لم ألمح عليها أية علامة من علامات الحرج وكأنها لم تقل شيئًا.

- غريبة.. أتوجد امرأة بهذا القدر من الصفاقة والتبلد؟! إن الشائعات التي نفثتها لو صدقت لهُدمت بيوت وطارت أعناق.. وسأتحدث إلى سلامة في شأنها.

أمسكت بيديه ورفعتهما وهتفت برجاء وتوسل:

- يا رجلي الحبيب.. كن محضر خير واكفِ على الخبر «ماجور».

- ولكننا نحن الذين سنغرق في عجين هذا الماجور.

- لنغرق في العجين يا أخي فالخبز منه.. ويا ليت هموم الدنيا كلها عجين.. كنا نشبع.

تمتم مسلمًا ومستسلمًا:

- على رأيك.. العجين خير.. والكلام المدعى.. لت وعجن.

وصمت وصمتت هي على أمل أن يكون قد قنع واقتنع.. بيد أنه خذلها لما فاجأها بعد ذلك بنحو ساعتين قرب ظهر اليوم طالبًا، فيما يشبه الأمر،

أن تذهب للمرأة وترجوها أن تقدم دليلا آخر على صدقها غير القسم على «كتاب الله»، فالقسم بغير الله شِرْك.

وامتثلت لما أمرها به صاغرة دون مناقشة، فقد كانت تعلم حدته وصلادة رأيه في المناقشات، ثم ما لبثت بعد دقائق معدودة أن عادت وبيدها الدليل الدامغ الذي قطع دابر شكه قطعًا «بائنا لا رجعة فيه»، وتمثل ذلك بجلاء في جواز سفرها الذي ثبت من مراجعته لأوراقه بمجرد النظر ودون عناء أنها «أرملة».. وليس هذا فقط؛ فإن المرأة الداهية كانت مستعدة، على ما يبدو، للدفاع عن نفسها في مثل هذا الموقف، فأرفقت صورة من شهادة وفاة زوجها (وكأنه قد تصادف وجودها ضمن الأوراق التي تحملها).. صورة طبق الأصل مختومة بخاتم حي لشعار الدولة ومؤرخة بتاريخ يسبق تأسيس شركة النقل البحري، المعنية بالشائعات، بنحو عشر سنوات.

قال حنفي وهو يعيد جواز السفر والوثيقة المرفقة به إلى دنيا في ما يشبه خيبة الأمل:

- هذا يخلي تمامًا ساحة المرأة، فهي بريئة كل البراءة من ادعاءات، بل افتراءات زوجة سلامة.

وارتسمت أمارات الارتياح على محيا الزوجة المعذبة بزوجها الشديد الفضول والارتياب بالناس فتنفست الصعداء وتحرك لسانها يبغي أن يقول:

- أخيرًا.

لكنها ألجمته عمدًا لقطع دابر هذا الحديث، وابتسمت في عطف ورثاء لما آلت إليه أحواله، والأحوال عموما، وغمغمت وهي تخطو متباعدة صوب المكان الذي تقبع به المرأة لإعادة أدلة براءتها إليها.

- ألم أقل لك اكفِ على الخبر «ماجور»؟!

على أن مسعاها الحسن لتحريره من حبائل ثرثرة النسوة (وهواجسه) ذهب هباء بفعل ثرثرة الرجال عندما تصادف إبان أدائه صلاة العصر في ذات اليوم أن كان الجالس إلى جواره ذلك الرجل قريب المرأة الدائمة الجهش بالبكاء من حزن عميق، فخرجا معًا من مسجد الميناء وتبادلا حديثًا وديًا بسيطًا فهم منه أن قريبته ليس لها أدنى صلة بهذا الشاب أو ذاك اللذين ماتا على ظهر العبارة (فخر السلام)، التي قيل إنها غرقت في خلال ثلاث دقائق ونصف دقيقة من اصطدامها بالشاحنة.. فالحادثة وإن كانت صحيحة ووقعت، غير أن نحيبها الذي يتصل بين حين وآخر سببه أنها مصابة بحزن دفين عضال وغامض، وقد جرب أهلها كل فنون العلاج مع الأطباء وغيرهم فلم تبرأ.. وجاءوا بها لتحج لعل أجواء المشاعر المقدسة وماء زمزم يخففان من غلوائها.

لقد كانت زوجة سلامة مصدر تلك الشائعة أيضًا.. فلماذا هذا الإصرار الغريب على الربط بين أية مأساة تقع لأي إنسان في هذا العالم وهذه الشركة للنقل البحري لمجرد أن جموعًا من الركاب ينتظرون دورهم في عبور البحر وجدوا وقتًا كافيًا للثرثرة؟

لا بد أن في الأمر سر..

أقسم حنفي «بشرفها» أنه لا بد فاضح أمرها لزوجها، ولم يأبه لتحذيرات دنيا، وبدا وكأنه يخاطبها وهو يتلفت يمنة ويسرة باحثًا عن سلامة، وفي الحقيقة ما كان يخاطب إلا نفسه قائلا:

- في عصرنا الحالي يتولى جهاز صغير، بني على علوم كالسحر، نقل المعلومات إلى كل شبر في الأرض في سرعة الصوت والضوء.. ومنذ القدم وعلى مر العصور والمرأة لها فضل السبق في هذا المضمار بما لها من تأثير ساحر على عقل ووجدان الرجل، وكانت تتفنن في تلوين نفسها لإذابة إرادة الرجل فتخر الأسرار تحت قدميها كالماء خرًّا.

- يا زوجي الحبيب.. اعقل.

- ولم تكن تتوانى عن فعل أي شيء وصولا لما تريد، ولو اضطرت لاختراق الحجب وركوب السحب، وإذا كان المثل الشائع يقول: المرأة وراء كل عظيم.. فقد قيل فتش عن المرأة.. فهي وراء كل مصيبة أيضًا.

- اعقل يا أحب زوج.

- وذنبك على جنبك يا زوجة سلامة.. سأعرف كيف ألقنك درسًا في لغة العصر.. سأفضح سوء نفسك، وفي غفلة منك قد ينكشف المستور ونعرف الحقيقة.. قد «جنت على نفسها براقش» حقا.

- براقش من؟!

- تريدين التربع بما تروجين من بضاعة عفنة على منصة مجلس تكوين الرأي العام.

- يا إلهي!

- فيطلق صاحبك الوسواس الخناس ما بجعبته من أفاعٍ وعقارب من تحت المنصة لتنفث السم الزعاف في قلوب الناس فيضيع بينهم الحق وتطيش الأحلام وينقلبون على أنفسهم معرضين الأصول وأمجاد الأجداد إلى لت وعجن الطين فتتحطم من حيث لا يشعرون الوظائف الهامة والمسئوليات الجسام ويتدنى الجميع في عمى جهلهم فلا يرون إن كانوا قد دخلوا «السيمة».. أم أحراش الهيمة.

- أفق يا أعز الأحبة.

على هذا النحو الغريب جرى فكره وحديثه لنفسه الذي سمعت دنيا من حيث لا يشعر بعضه وهي حائرة لا تدري سببًا ولا علاجًا لما يعتمل في نفسه تجاه تلك المرأة المسكينة، فسبحت الله على ما يظهر في طبعه أحيانًا من غرابة والتحقت بالصمت.

ثم وعلى حين غرة، وكأنها نجدة من السماء أتت تنتشله من وهدته

الفائرة ومستنقعاته الخطرة، نودي على اسمه في مكبر صوت مكتب تنظيم السفر وقطع التذاكر بالشركة فهرع إليه فرحًا، ويكاد من فرحته أن ينكفئ على وجهه متعثرًا في أقدام وحقائب الخلق الذين جلسوا مفترشين الأرض، تلك الجلسة التي تساوى فيها من اتبع النظام وخنع لهيمنة شركات التسفير والسياحة على مقدراته منذ أول لحظة بارحت قدماه أعتاب منزله في بلدته، فكل شيء مرسوم ومخطط له في تلك الرحلة إلى الأراضي المقدسة؛ من إقامة كاملة أو نصف كاملة في الفنادق بمكة أو في المخيمات بمنى وعرفة.. ثم بعد ذلك الفنادق بالمدينة المنورة تتكفل الحافلات المنتظرة تحت أمره بنقله في كل خطوة يخطوها.. ومنذ البداية وهو يعلم مما هو مسجل بالتذاكر تاريخ ورقم الرحلة والحافلة وساعة القيام والوصول واسمي محطتي القيام والوصول سواء في البر أو البحر.. واسم الشركة القائمة بالنقل إلى آخره.. ومن لم يتبع النظام - أي نظام - وتسلل بحجة العمرة أو زيارة أحد أقاربه.. فكان له نظامه الخاص في إدارة شئون نفسه، خاضعًا لضربات الحظ الذي لا يخطئ أصحابه.. الذين ما إن يحل أوان الحج حتى يطفرون من المخابئ تاركين للصدفة معقود أنفسهم، ليس لهم عنوان يستدل به عليهم ولا يعرفون متى تنتهي سفرتهم ولا أي حافلة أو عبارة يركبون.

صاح به صوت كأنه يهبط عليه من ملاك في السماء:

- هذا وايم الله لا يرضي الله.. فالله يوصينا أن نسعى في الأرض ونتفكر ونتدبر وألا نورد أنفسنا موارد التهلكة.. ويدعونا إلى التماس السلامة من وعثاء الطريق وسوء المنقلب.. وبطاعة أولي الأمر منا.. وبعد هذا يأتي من حج عابثًا بتلك الطريقة ويدعي أنه أدى فرض الله الخامس.. ويقيم له آله في بلدته زفة استقبال بعد أن يعود، فقد فاز بلقب الحاج المحترم.. يكتبه على جدران منزله أو باب شقته.. أو على لافتة مقهاه أو بقالته..

يستوي في هذا البسطاء وغير البسطاء من الناس، فغير بعيد رؤساء دولة إسلامية يتفاخرون بوصف حاج فيضعونه أمام أسمائهم مثل لقب سمو وفخامة وجلالة وعظمة.. وسبحان من له العظمة الذي خلق الإنسان من «ماء مهين»، وفي آية أخرى «من سلالة من طين»، فلم يصر الطين على الجلوس على العروش.

وإلى أين تأخذين هذا الإنسان يا دنيا الغرور.. والله سبحانه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون؟ وإذا كان هذا حالك أيها الإنسان فلمَ تكذب؟ لمَ تسرق؟ لم تنهب؟ لم تأكل لحم أخيك ميتًا؟ لم تغذي جسوم أولادك بأموال اليتامى سحتًا وتضع في بطونهم النار يوم القيامة.. يوم لا ينفع مال فيه ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.. يوم يفر المرء من صاحبته وبنيه ومن أمه وأبيه.. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؟! فـ«يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم.. الذي خلقك فسواك فعدلك.. في أي صورة ما شاء ركبك».. ألن تفيق يا أخي وتثوب إلى رشدك؟!

- من؟

- أنت.. وأنت تعلم أنك لن تصحب معك إلى قبرك غير العمل الصالح.. أو الطالح.. فإن آلك ومالك وجاهك وسلطانك سيودعونك الظلمة ويتركونك وحيدًا.

- من..؟!

- أنت.. وسيعودون إلى منازلهم.. ولن يضيء لك الظلام الحالك إلا قناديل عملك الصالح.. فكن صالحًا يا بني تكتب لك النجاة وتدخل رضوان ربك برحمته التي وسعت كل شيء.. ولا حدود لها من أرض أو بحر أو سماء.. ببساطة هكذا لأنه لن يكون لهذه المخلوقات وجود يومها؛ فالله سيأتي بخلق جديد ووجود جديد وهذا ليس كلامًا مرسلا.. أو من قبيل التزيد أو الاستطراد أو الاستعراض.. بل هو كلام الحق سبحانه.. أرجوك انتبه إليه.

- من؟!
- أنت.. وأن تأخذ به طريقًا للنجاة من الموت الحقيقي.. يوم ينساك الله في الحياة الأخرى كما نسيته في الحياة الدنيا.. يا ابن آدم!
- من هذا الذي خطبني بتلك الخطبة العصماء التي أذابت مني القلب واللسان.. فلم أعد أجد ما أشعر به أو أقوله؟!
ورفع حنفي رأسه إلى وجه محدثه فرأى شيخًا طيبًا وقورًا يضاهي بياض وجهه بياض لحيته الطويلة وبياض عمامة كبيرة تعلو هامته.. يقف إلى جوار موظف الشركة الذي أبى أن يسلمه جواز سفره وسفر الأم والأولاد وأوراق «ترِبْتِك» السيارة ممهورة بالأختام والتوقيعات والتاريخ المحدد للمغادرة إلا بعد أن يقبل يد الشيخ لأنه لمس فيه إعراضًا ونفورًا!
تعجب حنفي للطلب الذي ينطوي على شموس لا يتفق مع ما يظهر على الشيخ من طيبة وورع! ولمح بحسه المرهف في وجه الموظف جدية مبطنة بتهديد سافر وهو يشير بإصبعه إلى كشف مكتوب به (بالقلم الرصاص) أن تاريخ مغادرته وأسرته الخميس الثاني من فبراير عام ٢٠٠٦ الساعة السابعة مساءً.
هتف من قلبه وعيناه تبرقان:
- الليلة الخميس.
وآثر ألا يثير المشاكل وانكب على يد الشيخ الذي اختطف فؤاده بكلامه المؤثر يلثمها مستردًا ما تهاوى على الأرض بين أرجله من دقات هذا القلب وانبرى إلى الشيخ وقد استنار محياه بفرج الله يناقشه في إجلال وتوقير متمتمًا:
- بالله.. من أنت يا سيدنا الشيخ؟ ولماذا تخصني بتلك الخطبة العصماء؟ ألا يوجد في هذه الجماهير من الناس من يستحق أن تعظه غيري؟!
رد الشيخ بكثير من التؤدة والتريث إزاء السؤال الذي ينطوي على خطورة

مستترة ظاهرها القبول والاحترام، وبنوع طفيف من الاستعداد للمواجهة والتحدي:

- بل أنت المقصود وحدك!

وانقلبت سحنة حنفي إلى النقيض، وغمغم مأخوذًا وقد جحظت عيناه من فرط شعوره بالتخوف من ظلم يوشك أن يحيق به:

- كيف؟ أنا.. وحدي.. كيف؟

أجاب الرجل الوقور بتركيز شديد ولهجة حازمة قديرة:

- يا بني احترس من نفسك وأنت تتحدث عن الآخرين فالنفس أمارة بالسوء.

- كيف بالله؟

نطقها حنفي وقد بلغ به الدهش كل مبلغ من عدم الفهم واللهجة الغريبة التي يخاطبه بها الشيح فأجابه:

- أقولها لك.. كل شيء إلا شرف الآخرين.

صاح مغضبًا بغتة:

- وحياة الناس.. أليس لها من ميثاق شرف عندكم؟!

- ما زلت تتحدث في غير ذكاء.. ولسانك لا يكف عن اللعب داخل فمك.. وكما قال أحد الحكماء في زمن أجمل من الزمن الذي يحلو للبعض أن يسميه الجميل لأنه أبعد.. إنك إن نطقت الكلمة ملكتك ولم تملكها.. والحكيم لا يندم على الصمت قدر ما يندم على الكلام!

وتداخل الموظف الذي سلمه التذاكر وجوازي السفر قائلا:

- يعني بالبلدي لسانك حصانك.. إن صنته صانك.

وتوقف وحدج الآخر بنظرة ذات مغزى فأسرع هذا مكملا:

- وإن أهنته أهانك.

وسكت كلاهما بعد أن تبادلا نظرة تفاهم وشعور بالانتصار.. وحنفي

غارق في عرقه الذي راح يطفر من جبينه.. بل ومن كل خلايا جسده.. من وطأة الانفعالات المتعارضة التي تكاثرت عليه وتنازعته وأشعرته بالضآلة والاستخذاء.. فقد وجه المسئولون في شركة النقل البحري بين موانى البحر الأحمر.. تحذيرًا إليه.. وعليه إن تغابى أن يتحمل وحده الوزر.. فعلى الباغين تدور الدوائر.

obeikandl.com

- ٣ -

وجاءه رفيقه المهندس سلامة سالم سليم يهتف وهو يكاد يطير فرحًا:

- أبشر.. الربان.. اسمه نوح.

فتفحصه بنظرة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وأوشك أن يصرخ في وجهه هاتفًا بسقوطه والأزواج الذين يتركون زوجاتهم ينفخن بأفواههن في الجمر تحت الرماد بما ينفثنه من هواء الكلام فتضطرم النار في ممتلكات وبيوت الأبرياء دون توقف حتى تطولهن النار فتحرق وجوههن من فوق أعناق اشرأبت لإحكام النفخ.

ثم ماذا في أن يكون قبطان العبارة اسمه نوح؟!

أجل ماذا في ذلك؟

هل في الاسم المبارك ضمانة للسفينة ولهم من الغرق؟

وعليه أن يكون منصفًا ولا يفكر بهذا التشاؤم فإن مئات.. بل آلاف رحلات عبور البحر تمت بسلام، وما هي إلا سفينة واحدة.. أو اثنتان.. عدت غارقة خلال أعوام خمسة عشر انصرمت.

بل تعد واحدة فقط في تلك المدة، فإن الأخيرة غرقت في الآونة الأخيرة.

سأل صاحبه:

- لماذا تغرق السفن؟

أجابه:

- سؤال هام.

obeikandi.com

صاح به مغضبا:
- أرجوك.. لا تقاطعني.
واستطرد بعد صمت:
- لماذا لا يسأل مصممو السفن ومهندسوها أنفسهم هذا السؤال الذي وصفته بالهام.. أليس مرجع الغرق خطأ في البناء؟! مثلما يحدث للعمارات التي نضيف إليها أدوارًا عليا فوق طاقة احتمال وقدرة أساساتها على بذل جهد للتحمل؟
أسرع المهندس قائلا بحماسة دون احتراز لما يجلبه ذلك من حنق رفيقه لمقاطعته:
- إن عبقرية الإنسان الياباني والإنسان عمومًا في الأمصار التي تقع في حزام الزلازل أدركت أهمية المرونة مع المتانة.
- هه؟!
- اسمح لي بتوضيح.
- هه؟! أعلم مقدمًا ما تبغي قوله.. فهم يدعمون أساسات العمائر بما يشبه تلك الليات الحلزونية فوق عجلات السيارات فتصبح لينة تعلو وتهبط في تعاملها مع مطبات الطرق بما يشعر الراكب بالراحة والنعومة والانسيابية.. وكذلك البناء السليم يتجاوب مع هزات الأرض.
- والزلازل.. وأمواج البحر.
- أنت تقاطعني بقسوة.
- كيف؟!
- وتسرق أفكاري.. أليست الأمواج هزات للبحر؟ وحينما تعلو بالسفن أو تهبط ألا تحدث ما يشبه الزلزال؟ فلم لا يتم تصميم السفن على هذا الأساس؟
- أي أساس؟ آه.. تقصد أن يكون بين القاع والسطح مرونة.. وبين جوانبها

طولا وعرضًا وارتفاعًا مرونة.. تجعلها ترقص مع الموج رقصة باليه الثلاث ورقات.

- نعم.. نعم فمعظم الحوادث راجعة إلى أن ما ندعم به السفن من قوة وصلابة تكون بمثابة الصلب غير المطاوع في وجه الأمواج الغاضبة.

- فتميل جانبًا وتقع وتتفكك جزاء التصلب وعدم الطاعة.

قالها مكملا في تناغم وتلطف فلم يعترض تلك المرة، وربما سره هذا التوافق الذي بدأ يوصل العرى بينهما فاحتضن كتفيه بذراعه في تواد ودفعه برفق لمسايرته بالقرب من رصيف (شمعات) ربط السفن وهو يتمتم:

- المرونة هي ناموس النجاة.. قد اكتشف العلماء في الطبيعة قوانين عدة.. حسنًا.. ليس على وجه البسيطة ما هو أقوى من المياه.. انظر ماذا فعلت خراطيم المياه بالساتر الترابي على ضفة القناة الشرقية في حرب أكتوبر؟ لقد ادعى بُناته أنه أعتى وأصلب من قوة التدمير النووية.. وقد رأيناه يخر ساجدًا أمام المياه التي جعل منها الله سبحانه كل حي.. وكانت الصلابة، أو التصلب، سر انهياره.. بل سر انهيار بُناته.. إن قوانين مثل صراع المتناقضات.. والتراكم الكمي.. تفضي لتغيير نوعي.. والجديد ينبع من القديم.. التي كانوا يدرسونها للكبار من الإخوة والآباء في المعاهد الاشتراكية ومنظمات الشباب.. وقانون المرونة لم يكن في الاعتبار كأنه لم يكن قد تم اكتشافه.

- رباه.. المرونة تسري في جميع أوصال الحياة الناجحة.

- والقائد الماهر هو القائد المرن الذي يطفو ويعلو فوق الأحداث.. راكبًا موجات الغضب من تابعيه، إن كانوا شعبًا أو حتى عمال نظافة في شارع غضب.

- إن الأمواج تنقلب أكتافًا لمواليه يحملونه عليها.. يدرسون هذا في معاهد الإدارة العليا.

وأسرع الرفيق المهندس يؤكد نقطة هامة بجدية مفرطة فغمغم:

- ألم أقل لك اسمه نوح؟

ولا يدري لم ساء صاحبه أن يذكّره بذلك ثانية.. ربما لطريقته في الكلام ومغالاته فدمدم بتبرم:

- تعني.. آه.. تحدثني عن سفينة نوح إذن.. تلك التي طفت فوق الطوفان إلى أن بلغت قمة الجبل الجودي الذي أعتقد أنه يمتد بين العراق وتركيا.. أيها المهندس المدعو سلامة؟

وتهدج صوت سلامة وهو يتمتم باستهجان وتألم:

- بل أيها المهندس الذي عمل في بيت خبرة لمهندس عربي عالم.. جليل.. اعترف بعبقريته وزير صناعة ألمانيا فسلم بأنه أضاف مبتكرًا لبلاده صناعة جديدة.. بما نقله من إبداعات تصاميم ذلك المهندس للإضافات والتوسعات التي جرت لتعظيم منافع المسجد النبوي.

كان في رنات صوته دلالة واضحة على ما يعانيه من صاحبه الذي لا يدري له برًا يرسو عليه، فهو حائر تتنازع سفينه أمواج الصفاء والجفاء، والذي سارع بالرد قائلا في توفز وسأم:

- سمعتك تردد تلك الأسطوانة حتى شُرِخت.

فتزايد شعوره بالاجتواء وتهدج صوته أكثر وهو يتساءل متحيرًا:

- رباه لم انقلبت علي في لحظة؟!

وبشدة بلغت الرسالة صاحبه فتأثر لانفعاله وألقى بكل جسده عليه يعانقه بكثير من العطف والشفقة وفي أثناء ذلك يتمتم قائلا:

- حسبك.. حسبي.. أتعلم يا صاحبي أن سفينة نوح كانت مرنة طيعة.. تسير باسم الله مجراها ومرساها؟

* * *

obeikandi.com

- يا شمس.. يا قمر.. يا هلال.. تعالوا إلي أقبلكم وأضع في قلوبكم وعقولكم نصيحة غالية.. التحقوا جميعًا بكلية الهندسة قسم العمارة البحرية.. ادرسوا فن بناء السفن وأضيفوا إليه عامل المرونة.. أقيموها صلبة ومرنة.. قوية وطيعة.. مثل قطرة ماء من نهر في «كنانة الأرض» أصله في الجنة.. تعرف رياضة الوثب العالي والطويل والحواجز والتجمع مع الموج لرقصة البجعة الطروبة مع الريح المحترم.. أجل البجعة.. فإن السفينة مؤنثة تسحبها عبارة.. فرقاطة.. باخرة.. جارية.. نسميها حتى مدمرة.. فهي أنثى.. أنثى.. وما دامت أنثى فلا بد أن تكون متماسكة ولدنة.. طيعة وطائعة للموج ذي الغضب الضاري.. الذي لا تصمد له أعتى المدمرات.. بالله عليكم.. أيصح أن نقول أنثى مدمرة؟! إن العلة في إصرارنا على نعتها باسم ينأى بها عن الجمال والحب والوئام والسلام.

- زوجي الأعز.

- زوجك وقع فريسة أفكار سود.. بدأت شرارات صغيرة، ثم مع التسلط واستمرار توالد الهواجس في برج عقله وخلايا أعصابه.. انهار في عز النهار يرى نجوم الأفكار.. ينثرها على أسماع أحب خلق الله إليه فتتفطر أفئدتهم خوفًا عليه ويقتربون منه يجذبهم إليه.. فوق الحب.. الغريب والطريف من الأفكار التي تمدهم بمادة للفكاهة تبدد.. ولو قليلا أو إلى حين.. واقع الحياة العصيب عندما تتزايد وعورة مسالك الغربة حيث نحن بانتظار عبارة بحر البحار.

- بابا سلامتك!

- اسمعوا أولا أجمل خبر.. فزنا بكل فرحة وهناء وسرور بتذاكر مؤكدة الحجز للسفر.

- معك حق هذا خبر يخبل العقل.

- على العبارة «بوكاشيو» أو «السلام».. واسمعوا أيضًا؛ لسنا وحدنا من

ظفر.. معنا الكل من علي منسوب الصعيد إلى رجب منسوب البحر.. إلى معلمة الرياضيات سحر وأسرتها.. والمهندس سلامة وقرينته وبنيه والشيخ الشاب وزوجته خفيفة الظل خفير الساعات في شقة فوق سلم ظهر.. ولا أنسى السيدة نعمة زوجة المقاول القديم فارس وابنتها منه وابنها عمر.. ثم ركاب حافلة الحج وأشهرهم المرأة الباكية باتعة ومن معها المدعو صقر.. والأرملة الغامضة لمفتش هيئة السلامة البحرية الذي توفي قبل تأسيس شركة النقل البحري الشهيرة بعشر سنوات.. العصابة كلها ويبقى الرجل القميء علي بابا الذي تحرش بدنيا.

- خصمك اللدود يا حنفنف.

- رأيته يمرق كالشيطان راكبًا مقشة حاملا مقطفًا.. عبر من أمامي لانفكاك مفاصلي وانعقاد لساني غير عابئ بي، وكأن وجوده في هذا المكان محض صدفة.. فلماذا هو هنا؟ أيلاحق زوجتي؟! ولماذا حرص على ارتداء العقال والغُترة؟ أللوقيعة بين من بيننا وبينهم تاريخ ونسب أم للتعمية؟! بالله كفانا هجرًا وتصفية بعوامل التجوية والتعرية.. أسئلة زاعقة تاهت واندثرت في رمال الفكر المتحركة لأني أخيرًا ألمح بوابة المحطة البحرية الرئيسية بضبا تنفتح معلنة عن استعداد «بوكاشيو» (السلام ٩٨) لاستقبال روادها من الركاب.

وبمجرد دخول الطلائع الأولى لهؤلاء الركاب يحملون الحقائب في أيديهم، والأحمال على ظهورهم والأطفال في حنايا صدورهم، أو كل هذا داخل أو على ظهور بعض السيارات (الربع نقل) الصغيرة، أو بداخل وفوق شبكات سيارات الركوب الخاصة، أو الحافلات ناقلات أفواج الحجاج وغير الحجاج من العاملين المصريين بالسعودية.

وبدت «السلام» «بوكاشيو» لأقلية مدققة من الأعين راقدة بيضاء.. نظيفة.. يشي ما تراكم من طبقات الطلاء الكثيفة فوق بدنها وما تقاطع

obeikandi.com

من خطوط طويلة ومستقيمة من الصدأ البني في أماكن لحام رقائق الحديد، المكون الأعظم لمادة هذا البدن.. بشيخوخة طال أمدها لا تعرف النَصَبَ والكلل والحنين وتباريح الشوق للتقاعد والكسل.

أما الأكثرية فقد بدت لأعينهم غير المدققة كالبطة البكيني أو الإوزة على صدر الماء.. الآسن.

عين واحدة فحسب رأتها «بجعة» لراع مسئول أصابته ضربة من عين شمس حمراء.. حمراء؟! لا.. لا ليس بعد.. لن تغيب الآن.. ليست على وشك المغيب وأفراد طاقم «البوكاشيو» بزيهم الشتوي الرسمي في حركة دائبة على ظهرها، حيث العمل كثير لتجهيزها للمسير.. بعد نحو ثلاث ساعات.

قد رآها إذن بعين الشمس الحمراء راسية على الرصيف الذي اكتست أطرافه السفلية القريبة من سطح الماء بطبقة من الطحالب الخضراء التي تصفر وتضعف كلما دنت من الماء من أثر المواد البترولية.. التي تجعل سطح هذا الماء لامعًا يعكس أشعة الشمس.

رآها في مثل طول عشر عمارات مما وصف لا تقل واجهة إطلال العمارة الواحدة منها عن خمسة عشر مترًا، ولا يقل ارتفاعها عن أربعة طوابق، هذا بخلاف الطابق الأرضي وهو في حال الباخرة يمثل الطابق البحري أو المائي، أو إن شئنا الدقة في تمثيل أسافل جسم العبارة وغاطسها بجميع غرف الإدارة والمخازن وعنبر المحركات البحري و«الجراج» موقف سيارات الركاب والبضائع والحاويات الكبير.

وثابر حنفي على رفع رأسه إليها يديم النظر ويغترف منها ما شاء من الصور، ولاحظت دنيا استغراقه في تأملاته وهي جالسة إلى جواره، هلال على حجرها وكل من شمس وقمر في مكانهما المعهود من الأريكة الخلفية.. ومن خلفهم جميعًا صندوق نقل مقتنياتهم من الأجهزة والأدوات المنزلية

obeikandl.com

التي آثروا الاحتفاظ بها ونقلها لبيتهم الذي يقع بين أضلع إحدى بنات الكنانة التي تغسل شعرها على ترعة من بنات نهر النيل.

كانت بحاجة لتجاذب أطراف الحديث معه.. وبها رغبة ملحة في ذلك لاستيضاح بعض المعلومات التي استقاها عن «بوكاشيو السلام»، والتي أصابته بانفعال شديد أقرب إلى «اللوثة» بعد ظهر اليوم وهو عائد من مكتب خدمة الركاب بالشركة بعد تسلمه التذاكر وأوراق نظام التأمين الدولي للسيارة وتصاريح المغادرة.

غير أنها آثرت أن تتركه لتأملاته ونظراته المتقدة.. عله يهدأ أو يطمئن ويصير سهل المعشر والتواصل مثل بقية الركاب الذين ارتسم على محياهم تعبير واحد بعدم الاكتراث واللامبالاة.

وكان ثمة تفتيش ومراجعة نهائية للأوراق عند مدخل «الجراج»، فكانت السيارة تخطو بلغة السائقين «عجلة» ثم تتوقف لحين إتمام الإجراءات مع السيارة التالية لتلك التي جازت المعبر المتدرج الصعود.. ويصل الرصيف بالجراج الكبير الذي يقع في عقر باطن العبارة.. ويسميه البحارة وطاقمها «البطن»، مما أتاح له بهذا التوقف المتكرر.. الطويل.. الفرصة كاملة للتأمل.

وكان الركاب الذين لا يصحبون سيارات على الجانب الآخر فوق سلم صاعد إلى سطح العبارة المحيط بالطابق الأول الذي تقع على جوانبه ممرات تحوي غرف الركاب الشهيرة باسم «الكبائن» أو عنابر الكراسي الجلدية ذات الظهر المتحرك لتؤهل للراكب الجالس ما يشبه السرير إن أراد النوم.

وفي جانب مميز تقع قاعة كبرى لسمر الركاب ملحق بها مجالس مطعم، بلا مقعد خالٍ، وآثار بار بلا كئوس أو زجاجات ينعى مع حمام سباحة بلا ماء أيام شباب المنشأ الإيطالي الآهاتي الذي ولى بالبحر الأدرياتي!

وأمام التجهيزات البنائية فراغ كبير (مشاية) محاط بسياج حديدي يلف العبارة كلها، مغطى سطحه العلوي بخشب الزان الناعم الأملس ليتكئ الركاب عليه بعد «التمشي» للتمتع بجمال الكون المتمثل في البحر والطيور البحرية البيضاء والأسماك أو الأمواج التي تقفز فوق سطوحه المحدبة أو المقعرة، والأفق البعيد الذي يمعن في اللانهاية جاذبًا العقول المفكرة.. كما تتناثر عليه العديد من الأرائك الخشبية والمقاعد ذات الظهر المتحرك للاضطجاع تحت الشمس أو القمر لتأمل الماء والوجه الحسن والسماء النيرة.

وهناك على جانبي العبارة وفي المنتصف تقريبًا.. سلالم حلزونية (حتى يبدو منظرها بحريًا) لصعود وهبوط الركاب من وإلى الأدوار الثلاثة الأخرى العلوية.

- إنها عبارة عملاقة.

وابتهجت دنيا أيما ابتهاج.. إذ أخيرًا نطق حنفي.. وبدت على محياه سيماء الرضا والطمأنينة، وكان معنى ذلك في عرفها أنه انتهى من دراساته وفحوصه، وأن العبارة البيضاء الجميلة حقًا عجوز غير أنها حية وعملاقة، كما همهم، واجتازت بنجاح الاختبارات التي أجراها لها وعليها.

وعمدت إلى جرجرته إلى حديث له أهمية قصوى لديها، فغمغمت بلهجة أقرب للتساؤل:

- تبدو كالبطة البكيني الضخمة في جمالها وبياضها الناصع.

أجابها وقد استنار وجهه بابتسامة عريضة لم ترها دنيا منذ وقت طويل فقررت ودمعة تطفر من عينها غضبًا وسعادة في ذات الوقت مرجئة استدراجه إلى هذا الحديث.. ريثما تبقى ابتسامته الحبيبة أطول وقت ممكن مرتسمة على محياه وفي أعماقها أيضًا:

- بل مثل الإوزة العراقية الكبيرة الأجنحة في حقل أخضر للأرز أو القمح.

obeikandl.com

وسكت لحظة واتسعت ابتسامته أكثر ودنيا لا تصدق عينيها لما تراه من جمال مفقود لهذه البسمة العزيزة التي تفتح أبواب الرزق وتكثر من خميرة الخير في البيت.. التي تذكر أنها كانت لا تفارق شفتيه عندما كان شابًا صغيرًا فرحًا بها وبزواجه.. ومع توالي السنين وهموم الحياة ومصاعب العمل في الوطن الأول أو الوطن الثاني، ومعاناة الغربة في «أيهما»، أخذت تتضاءل إلى أن تلاشت.. ولا تقول ماتت.. بل تقول إنها كانت تغط في النوم الثقيل.. وإنها كانت تصحو كالشمس بين وقت وآخر.. ليس يوميًا.. وإنما كل ستة أشهر كما في أصقاع الأرض الشمالية القريبة من القطب.

ثم إظلام تام ولا نور (بعد نور الله جل في علاه) إلا نور باهت مشكوك في أمر شروق شمسه!

سنوات طوال خلت.. قبل أن ترى بسمته الحبيبة تطل عليها شمسها من جديد وهو يرنو إلى العبارة والبحر ويمني نفسه ويمنيهم جميعًا بما يبزغ فيه وينتقل تلقائيًا إليهم من عواطف ومشاعر وأمنيات برحلة آمنة.. سعيدة.

وإذ تناهى إلى سمعه صوت أحد ضباط الباخرة يخاطب زميلا له من خلال بوق يدوي قائلا بهدوء ورصانة:

- سرعة الريح ٢٤ عقدة.. درجة حرارة الماء ٢٥ درجة مئوية.. ورؤية الأفق جيدة لمسافة ١٠ كيلومترات.

تبادل مع زوجته نظرة تفاهم وشعور بالثقة والانتصار.. بل قد ترجم هذا الشعور عمليا برسم علامة الانتصار بإصبعي السبابة والوسطى والتفت خلفه لبنيه راسمًا نفس العلامة، وتوًّا بادلته فلذات كبده شعوره دون أن يسأل أحد «النجاح في ماذا؟ والانتصار على ماذا؟»، فقد كان التوحد مع الأب المعذب أهم لديهم من فهم ما يدور حولهم وإدراك ما يراد بهم، حتى الصغير هلال شارك والده وصفق له بأنامله ثم رسم العلامة وصاح:

obeikandl.com

- برافو.

وهي عين الكلمة والحركة التي ألف أن يراه يؤديها متجاوبًا مع شخوص بالتلفاز لا يعرفهم في الإعلانات المصاحبة لمباريات كرة القدم.. ورد عليه بابتسامة طروب لم ترَ دنيا أعرض وأعمق منها، حتى أن خطوطها ظلت مرسومة ولم تسقط عندما ولج بهم الجراج وأتى دوره في التفتيش وسأله الموظف المنوط به العمل الذي يحوي قدرًا من اقتحام الأمور الشخصية لما رأى مقدار عرض ابتسامته:

- لماذا تلك البسمة؟

فسأله بدوره متلطفًا:

- أتعرفني.. أرأيتني من قبل.. أتعرف بسمتي؟

أخذ الرجل سؤاله على محمل الجد وارتبك قليلا فعاجله حنفي منقذًا شعوره من مواجهة لا ضرورة لها وكل شيء جميل حولهم قائلا:

- أنا هكذا دائما أبتسم عندما أرى عملا ناجحًا.. إن إدارة ميناء ضبا.. وكل العاملين بلجنة التفتيش وشركة النقل.. كل أولئك يستحقون التهنئة على حسن النظام ودقته.

قال الرجل متخابثًا لسبب ربما يعلمه حنفي:

- أنت يا رجل تبالغ كثيرًا.

وربما لم يكن الرجل يقصد أي معنى آخر لقوله غير المعنى الظاهر الذي مس من قريب، على ما يبدو، وجيعة في صدر حنفي، فأجفل بعينيه وماتت ابتسامته، فامتعضت دنيا منه ولم تجب تحيته التي أومأ لها بها عندما وقف إلى جوار بابها يتطلع إليها وإلى «بنيها» كأحد إجراءات التفتيش.. وخال الرجل المتلطف أنه تجاوز حدوده فأسرع يأمر حنفي بالدخول وهو يسلمه أوراقه بعد أن انتهى تفتيشه.

وفي لحظة مرق حنفي بهم من فوق حصير المعبر الحديدي الذي يطوى

داخل العبارة قبيل المغادرة مع دخول آخر سيارة.. وبعين الطريقة يطوى سلم الركاب على الناحية الأخرى مع صعود آخر راكب.

وترجلت دنيا وابنتاها من السيارة عند بداية الجراج عندما لمحن سلمًا يصعد لسطح المركب، في حين تعمق حنفي مستجيبًا لإشارات سيَّاس الجراج ولحق بهن بعد أن أوقف السيارة في المكان الذي خصص لها من بطن العبارة.. وهو يمسك بيده ابنه الصغير الذي اتفق أن يكون بصحبته على الدوام منذ هذه اللحظة حرصًا على أمنه وسلامته؛ لشقاوته.

* * *

كان على الركاب جميعًا أن يسلموا جوازات سفرهم، ولم يدرِ أحد العلة في ذلك والرحلة لا تستغرق أكثر من سبع ساعات، وكان ممكنًا أن يختزل الوقت إلى أكثر من النصف لو أن العبارة من النوع الحديث السريع إلا هؤلاء الذين اعتادوا العبور ذهابًا وجيئة بين السعودية ومصر.. فقد كانوا يعلمون أنه على مشارف الميناء الآخر يصعد ضباط الجوازات لمراجعتها وإثبات تأشيرة الوصول عليها لجميع الركاب قبل أن ترسو بسلام برصيف الميناء.

فكر حنفي في هذا وهم يصعدون السلم ليجدوا الضابط الموكل بالتسلم على رأسه في استقبال جميع الركاب، وبعد تسليمه المطلوب جلسوا على إحدى الأرائك يتنفسون الصعداء ولسان حالهم يقول: «آن لنا أن نستريح بعد أن وفقنا أخيرًا في ركوب البوكاشيو.. بعد طول معاناة.. أيامًا وليالي».. وراحوا يطالعون وجه البحر الهادئ وقرص الشمس البرتقالي يوشك أن يغيب ويلون هذا الوجه للبحر وخط الأفق الساجد عليه للخالق المبدع بجميع ألوان شفق التعبد.. في أروع منظر طبيعي، قبل أن يسجد هو الآخر ويسقط في الماء ويتوارى عن الأعين الساهمة في منظوره الذي خلب

obeikandl.com

الألباب وسحر الأنفس التي لن تلبث تسعى بعد قليل للسجود بدورها راضية مرضية.

وتبقى أضواء الشفق بعض الوقت زاهية.. ثم تبهت رويدًا وتعتم وتتبدد لاحقة بصاحبها ودنيا ترنو لزوجها بنظرة فاحصة.. عاطفة.

- حمدًا لله.

رأت الابتسامة وقد علت وجهه ثانية.. فابتهجت وتبادلت مع شمس الجالسة إلى جوارها بسمة دعت الله ألا تغيب مثل تلك التي غابت خلف الماء.. ومع قمر الجالسة على الجانب الآخر بسمة البدر في ليلة اكتماله لا ذاك الهلال الذي قنع ببعض النمو ويفكر في هبوط آخر مدارات السماء في اليوم الرابع للشهر العربي.. ناشرًا على استحياء ووناء ضياءً فضيًا به زرقة خفيفة تجعل الفضة أقل جلاء.. وإن كانت أكثر تألقًا في المنطقة القريبة من الأفق الأكثر تأثرًا به، التي هي كل وجوده الآفل.

وفعلا ما لبث أن سمع الجميع أذان المغرب يدعو عباد الله للصلاة والذكر، يزجيه أحد البحارة من فوق سلة في صاري المركب، فتهلل وجه حنفي واستبشر خيرًا.. ثم ما لبث إلا أن حضر رجل أنيق في منتصف العمر في حلة بيضاء وأوسمة ونياشين وعلامات على كتفيه وأكمام سترته.. كل هذا ونظرته التي لا تنظر إلى شيء محدد فهو ينظر إلى الكل، يدل على أنه ربان السفينة.. و«نوح» اسمه كما يزعم المهندس سلامة.

ليكن اسمه ما يكون.. المهم افترش البحارة الحصائر للصلاة في لحظات على سطح باحة واسعة في مؤخرة المركب خلف ما كان حمام سباحة، وخلع نوح نعليه ومشي يقصد أول حصير ليقف إمامًا، وأسرع رجاله من طاقم المركب المكون من الضباط والمهندسين والبحارة؛ وعددهم ستة وتسعون، في صفوف خلفه.

كان المنظر يدعو للانشراح، وسرعان ما اصطف المصلون من الركاب

خلفهم، ومر بعض الوقت قبل أن يستدير الإمام القبطان ليصلح أمرًا أقلقه من عدم اختلاط رجاله بالركاب وتفردهم بصفوف بعينها، فراح يقدم بعض الركاب ويؤخر بعض رجاله حتى ذاب الجميع وغاب التفرد. وتهلل حنفي لهذا الإجراء السمح أكثر مما تهلل لأي عمل آخر رآه أو سمعه لراع مسئول في السنوات السالفة.. بل في كل سني حياته.. وانتفض يهرول بين جنبات وطرقات السفين ويفندها بحثًا عن الميضة في عصبية من فرط قلقه على ضياع الصلاة مع هذا الجمع الذي لا فرق بينهم في عبادة الله الواحد إلا بالتقوى.. خلف إمام تقي عادل هو اسم على مسمى! وحاكم أعلى لكل العاملين والركاب في ما بعد الصلاة.. وربما لذاك السبب عجلته ولهفته فلم يرَ إلا بعد فوات أوان صلاة الجماعة الميضة التي كانت يومًا حوض سباحة.. فتوضأ وصلى مفترشًا الأرض العارية بعد أن لملم البحارة الحصائر.

* * *

شاهدت دنيا بقعًا من الزيت علقت بذيل ثوبه من الخلف ولوثته فسألت:

- ماذا بالسيارة؟

وهي تشير إلى ما تراه وتلفت نظرة إليه، فأجابها غير مكترث:

- السيارة بخير.. وكذلك الحاجيات.. لكن الجراج هو الذي يغطى ببراميل كثيرة ممتلئة بالزيت والشحوم ووقود العبارات.. وأعتقد أن هذا التكدس يثير غضب المسئولين السعوديين عن السلامة بالميناء.

تمتمت متسائلة بفضول شديد:

- كنت أبغي التحدث إليك في مثل هذا الشأن.. كيف عرفت أنهم غاضبون؟

أجاب بهدوء:

- بالصدفة سمعت بحارًا يتذمر غاضبًا من العمل في إعادة رص وتدوير تلك البراميل ليتسع المكان لسيارات الركاب وسيارات البضائع.. كان المسكين يحادث نفسه وهو يدعو الله أن يتوب عليه من تلك الشغلة، ومرة يحادث زميلا له يقوم بنفس العمل.. وفهمت من الكلمات التي تناثرت أنهم طلبوا في تقرير تفتيش سابق رفع هذه البراميل اللعينة من الجراج وإنزالها من العبارة قبل أن تبحر.

عاودت السؤال وقد تخلى عنها حذرها مفكرة في ما يمثله ذلك من خطورة، دون أن تقصد إثارة ضيقه.. أو تبدو متغابية:

- المفتشون السعوديون.. آه.. ماذا يدعوهم إلى..

قاطعها محتدًا وكأنه أدرك تكملة سؤالها:

- ألا تفهمين؟ إنها مواد بترولية سريعة الاشتعال.. أمَّا والله.. انظري.

وأشار بإصبعه نحو مقدمة السفين وقد هدأت نفسه فجأة مما ضاعف اهتمامها بالنظر إلى حيث يشير.. واستطرد:

- القبطان يدخل قمرته وبرفقته الضابط الأول المسئول عن إمساك «الدومان».. نحن على وشك الإبحار.. ولكن أتعرفين ما القمرة وما الدومان؟

ولم ينتظر ما تتم عليه إجابتها وافترض أنها لا تعرف شيئًا، وواصل مثرثرًا:

- القمرة بمثابة غرفة العمليات التي يتم منها الإشراف وإدارة جميع الأعمال التي تدور عليها وينفذها طاقم العمل كل حسب التكليف المنوط به.. كما أن بها حواسب خاصة وأجهزة لرصد الاتجاهات وتحديد المواقع بأرقام مساحية بحرية بالنسبة للاتجاهات الأربعة الجغرافية.. وكذلك تلقي الإشارات الأوتوماتيكية والساتلية.. أتعرفين معني ساتلية؟

توقف هنيهة واستتلى دون أن يلتفت إليها:

obeikandl.com

- إنها إشارات الأقمار الصناعية.. المهم.. تصدر الإشارات من غرف المراقبة والتوجيه البحري.. ومن السفن الأخرى.. أو على العكس؛ إرسال إشارات إليها.. فضلا عن تحديد سرعة السير للسفين وسرعة الريح ودرجة الرؤية.. والحرارة في الجو والماء.. وعمق الغاطس ودرجة ميل العبارة على أحد الجوانب إن وجد.. وكثافة المياه وبعد سطحها عن القاع.. والعوائق، وبالذات الشعاب المرجانية.. أتذكرين؟

توقف ثانية ليختطف أنفاسه من زحمة معلوماته، واسترسل دون أن يهتم بما إذا كانت ستجيب سؤاله:

- تلك التي تسببت في غرق العبارة «سالم إكسبريس» سبتمبر، على ما أذكر، عام ١٩٩١.. عندما اصطدمت بها وأحدثت قطعًا كبيرًا في مقدمتها وأحد جوانبها مما ترتب عليه اندفاع المياه وغرقها.. أتذكرين؟

- نعم.. الدومان هو عجلة القيادة.

- في يد الضابط الأول المتخصص في دراسة الملاحة البحرية.. وله من الخبرة والدراية ما يعينه على تسيير العبارة في خط السير السليم وبأمان.. كما يقوم بتنفيذ أوامر الربان إذا ما طلب منه العودة بها للميناء الذي غادره.. أو تغيير مسارها إلى طريق بحري آخر.

وأدار رأسه ملتفتًا إليها وهو يقول:

- نعم.. فالبحر ليس كله طريقًا.. وإنما.. هناك.. طرق ملاحية.. محد.. دة.. ومعـ.. روفة.

وتقطعت كلماته إذ اكتشف أنه يحادث نفسه.. فقد تشاغلت عنه دنيا، ولها الحق لتجاهله قدر معلوماتها، قائلة لنفسها:

- سأوجه كل همي لإطعام كتاكيتي أحسن.

فتغيظ وكاد يعلن سخطه وتبرمه، لولا أن خرج في تلك اللحظة رجل يبدو من سيمائه أنه أحد رجال الميناء السعودي وهو يرغي ويزبد ويهمهم

obeikandi.com

بكلمات غير مفهومة ضاربًا أخماسًا في أسداس.
كان بقمرة القبطان، وهذه إشارة جاذبة لاهتمام حنفي الذي أسرع إليه يسأله ما به.. وعلام غضبه؟ ولدهشة حنفي انبرى الرجل يشكو له ويجاوبه بغير احتراز أو تقدير للموقف وكأنه يحادث أحد زملاء العمل عن حالة الجراج غير الآمنة.. وعن الحالة غير المرضية للرماثات وسترات النجاة.. كمًا ونوعًا.. بعد صدور تصريح جديد بتاريخ أمس ٢٠٠٦/٢/١ يتم بموجبه قيام العبارة بحمل عدد إضافي من الركاب يزيد على الضعف. ولا يدري لم استشعر حنفي أن المسئول السعودي يتعمد إفشاء الأسرار، فقال لنفسه:
- ربما بعد أن ضج من عدم تجاوب الربان.. يتعمد خلق حالة رأي عام بين الركاب للضغط عليه لإنزال البراميل وعدم السماح بركوب أعداد إضافية. وتيقن من حدسه من الطريقة المسرحية الهزلية التي تدارك بها المسئول السعودي بميناء ضبا نفسه وهو يسرع بغتة بتكميم فمه بجمع يديه كما لو كان يمنع هذا الفم من الكلام دون أمر منه.. ثم دفع صاحبنا في صدره زاجرًا وموبخًا وهو يختتم حديثه، أو بالأحرى إعلانه الفاضح، قائلا:
- وانت مالك.. أمرك عجيب والله.. تَنَحَّ عن طريقي.
- ولكن يا صاحب السعادة.. أيعني كلامك أن ثمة..
وكاد ينطق بكلمة «خطر» بلهجة مفعمة ببرود مصطنع، فازداد ضيق وحنق المفتش السعودي، وهتف بغيظ مكتوم حقيقي:
- قلت لا ابتعد عن طريقي إلا.. إلا.. إلا.
فالتحف حنفي بالصمت ولم ينطق بكلمة ليدع للرجل فرصة الانسحاب دون مشكلة معه، أو مع غيره وهو بتلك الحال من عدم الرضا المفهوم المقاصد، فللعمل أصول ونظام إداري وقيادات، وهناك جهات رسمية نلجأ إليها لتقديم بلاغات أو تقارير للبحث والتحقيق، ولا يسيغ مطلقًا

إشراك الأعصاب في الأداء والعمل، لا سيما إن كان الشريك جهة أجنبية لها أن تنفذ أو تبدي رأيها أو تمتنع.

- وهذا أضعف الإيمان.. ولا بد أن كارثة يتوهم المفتش السعودي حدوثها هي سبب كل هذا البوح الصاخب.

قالها حنفي محدثًا نفسه، وأضاف وهو يتنهد بصوت مسموع:

- رجل عجيب.. ماذا يبغي؟ هيه.. ماذا يبغي ثورة على «السلام» «بوكاشيو»؟!

وصمت هنيهة ثم غمغم بصوت خفيض كأنه في حلم أو يخشى أن يسمعه أحد:

- آه.. ما أشبه الأوطان بالسفن.. والحياة بالبحر.

وصمت مرة أخرى وهو يفكر.. حتى بدا كالتمثال أو كأنه تجمد من طول صمته.

obeikandl.com

- ٤ -

وتثاءب وتأوه جارحًا وقفته الصامتة.. واسترقت دنيا النظر إليه، وتمتمت لنفسها:

- والله أمرك أنت أعجب.. لماذا تدس أنفك في ما لا يعنيك؟

ودنت منه على مهل ثم أمسكته من كتفة وأدارته برفق وواصلت التحديق في وجهه كأنما تفكر في أن تضمه إلى صدرها.. ضمة أم.. آه.. تبغي أن تلقي في سويدائه عن طريق بريد العينين رسالة عطف وحنو مؤثرة.

واستسلم لها تمامًا كالطفل، غير أنه واظب على صمته.. ولم يقل شيئًا يرد به على رسالتها.. وساءها ذلك منه، فقالت محتجة بلطف:

- ألا تقل لي كلمة واحدة يا زوجي العزيز؟

وجاءها الجواب في سرعة البرق رسالة شكر وعرفان من عينيه.. ولعلها كانت موجودة قبل أن تعاتبه بقولها هذا وليس في الأمر سرعة خاطفة.. جال ذلك في خاطرها فانتعشت وأينعت وتوردت وهي تنظر إليه بحب صريح هذه المرة.. ثم بعين النظرة إلى ابنتيها وابنها وهتفت بمرح:

- يا أحباب.. أريد عصيرًا أو مشروبًا حلوًا.. أليس بالمطعم عصائر؟ لا بد أنكم لم تشبعوا من الشطائر، أليس كذلك؟ ما زلتم جوعى وعطشى.. أليس كذلك؟ من فورنا هيا إلى المطعم.

وجاوبتها أصوات محببة إلى نفسها معًا:

- إلى المطعم.. لنذهب من فورنا.

بمن فيهم صوت حنفي الذي نطق فجأة من انفعاله بالجو المرح..

الطروب.. الذي أفلحت تلك المرأة دنيا في إطلاق طيوره متظرفًا كأنه يمازحها أو يغازلها من طرف خفي:

- يوجد عصير قصب خد الجميل.

ثم أضاف كأنه يغني مناديًا كبائع القصب:

- خد الجميل يا قصب.

- إلى خد الجميل لنذهب من فورنا.

وتدافعوا إليها جميعا كل ينشد خدها ليضم إليه خده بعد أن مست رسالة الأب الخافية شغاف القلوب ولم تعد خافية مداخل «غيطها» العامر بقصب «خد الجميل» الغني بعصير السكر.. وأعجبتها الصورة التي ارتجلها زوجها الحبيب، فخطرت في ذهنها من مستودع ذكرياتها صورة أمها تهش الدجاج فوق سطح بيتهم القديم ليدخل «عشته» وهي تصيح بنبرات أقرب للغناء:

- بيتك.. بيتك..

فاستخفها الجذل من حرارة الذكرى وغمغمت قائلة بعين النبرة الحبيبة:

- بيتك.. بيتك..

وأشار حنفي إلى القاعة الكبرى لسمر الركاب.. فدخلوها معا كتلة واحدة.. وهم يصحبون بعضهم بعضًا بأذرع التفت خلف الظهور.. واتسع باب القاعة الكريم لوحدة أجسادهم فدلفوا إلى الصالة التي تعج بالركاب بيسر.. وهناك التقوا المعارف والأصدقاء جميعًا حول الموائد يأكلون ويشربون ويتبادلون الأحاديث الفكهة والنكات.. إنها بهجة المشاركة وتواصل الأخوة وروح الجماعة التي فوجئوا بها وأدرك حنفي مدى التقصير الذي ارتكبه برعونته نحو جماعته.. وتعمق إحساسه هذا لما شاهد جميع الموائد عامرة.. بل مكتظة أكثر مما ينبغي، ورصد واحد من معارفه حيرتهم فوسع لدنيا مكانه بدماثة وتلطف، متذرعًا بأنه قد

استوفى حاجته وانصرف وهو يداري وجهه «القميء» عن حنفي، الذي رأته دنيا في تلك اللحظة أجمل وجه.. وربما هو أيضًا رآه، لكنه هجع مضطرًا وتضاعف وخز الإحساس بالتقصير لهذا السلوك النبيل الذي لا يتفق والتاريخ الذي ربما لم يتم قراءته على حقيقته في حينه.

ثم ما لبث أن غادر آخر كان يجالسه وتوارى وهو يلاقي بابتسامة حيية حمرة الخجل التي صبغت وجنات شمس وقمر، لا سيما عند غور «الغمازات»، وهما واقفتان كل على جانب من أمها التي كانت أشد حرجًا منهما لسهولة التقاء الأعين البريئة وتشابكها في الجو الصاخب الخانق، وسهولة تداخل الأرجل أسفل المناضد عفوًا أو بقصد مخدوعة بتداخل أرجل أخرى من خشب، وتشاطرت الاثنتان الكرسي وراحتا تفران بأعينهما من مطاردة الأعين الفضولية بالتشاغل بتأمل شقيقهما الصغير على حجر أمه يغالب النعاس سأمًا.. وفي خضم هذا الضجيج والتزاحم غير المعقول، الذي ينسج للأوهام والمخاوف بيوتا أوهى من بيوت العنكبوت، مال حنفي، الذي كان يقف وراءهن، على أذن دنيا وهمس:

- لشد ما فرطنا في حق أنفسنا.. إن القوم أجمعين يعيشون ما وسعهم دون تعقيد للأمور.. معك حق، لم نفكر كثيرًا في مسائل تعني الغير؟ أليس للقبطان الحق في إدارة دفة عمله بأسلوبه؟ ربما يكون في احتفاظه ببراميل الوقود والشحوم والزيت مصلحة عليا.. نراها نحن ومفتشو السلامة السعودية بميناء ضبا من قبيل الخطورة ويراها هو من قبيل السلامة.. سالمة.. يا سلامة.

وارتفع نداء حنفي زاعقا فوق رأسها وهو يتباعد عنها متجاوزًا الرءوس حتى بلغ صاحبه فجاوبه بعين الصوت الزاعق، حتى يسمعه من شدة الزحام والضجة:

- أنا هنا.. أنتظرك.. وأعلم ما يدور برأسك.. زوجتي غير مذنبة وسأقول

لك كيف.. لا تجد مقعدًا.. حسنًا.. تعال نتقاسم مقعدي.
- تعال أنت بمقعدك فها هنا مجلس الشعب.
- تقصد الحكومة رئيسًا ووزراء.
كانا يعنيان دنيا وشمس وقمر و.. هلال (الذي غط في النوم هربًا من هذا الجو العاصف) وتضاحكا لخفة ظلهما.. وتضاحك كل من سمع قولهما، وجاء سلامة بمقعده على مهل يشق طريقه بصعوبة وطلب حنفي له ولنفسه شايًا.. وطلب لزوجته وابنتيه طعامًا ساخنًا وعصير برتقال وماء، حيث كان الوقت مساء ٢ فبراير.. عز الشتاء.
وفي حين تشاغل أفراد أسرته بالتهام الطعام والشراب.. دار بينهما الحديث ورشف الشاي بصوت عال لكنه ضاع في الضجة التي وفرت لهما (على ما ظننا) تغطية فريدة يبدوان معها وكأنهما يسران، ولمح حنفي أن دنيا كانت تكف عن المضغ وتشنف سمعها لما يقوله سلامة فلم يكترث وهتف كأنه سمع خبر كارثة متسائلا بصوت لم يبذل جهدًا للتخفيف من طبقته وجرسه:
- تقول إن زوجة المفتش كاذبة.. وشهادة الوفاة التي أوردتها له لا تخص زوجها فهو حي يرزق.. ويعمل أيضًا؟ غير معقول!
- اخفض صوتك.. وإلا سمعنا.
- سمعنا.. أهو قريب منا أيضًا؟!
- نعم.. تستطيع أن تراه جالسا بجوارها بجانب النافذة هناك في أول منضدة إلى اليمين وأنت داخل من الباب.
وحملق بعينيه بشدة حتى كادتا تنخلعان إلى حيث يشير، فرأى ما قاله حقًا وصدقًا.. آنئذ لم يملك زمام نفسه وصدع لأمر منها صوبه كالسهم أو القذيفة حتى بلغ مكانهما متخبطًا بالخلق ومتلقيًا الضربات واللعنات التي كانت تنهال عليه ممن تذمروا منه لقلة احترازه.. لكنه كان يركز

العقل والإحساس في أمر هذين الزوجين اللذين فوجئا به يقتحم عليهما مجلسهما المتمتع بالقليل من العزلة في أقصى أطراف القاعة بعيدًا عن حمأة باطنها.. ويوجه حديثه إلى المرأة غير عابئ بوجود رجلها معها (إن كان حقًا رجلا)، لم يأبه له وكأنه افترض حياده، أو على الأقل نشوب خلاف بينهما يفصم العرى.. فدمدم مبتدرًا إياها بقوله بكمد وغضب:

- وتجرؤين على الكذب.. مثلك مكانه هناك.. في الجحيم يا آنسة.

صاح الرجل محتجًا:

- آنسة؟! من أنت يا هذا؟

صرخ:

- قد حكى صديقي سلامة قصة غريبة لي.. عن سيدتك.

ولاذ الرجل بالصمت وكأنه آثر السلامة بالتهدئة.. في حين تمتمت هي ببرود متناهٍ وتحدٍ:

- هو صادق.. وأنت تدس أنفك في ما لا يعنيك.

زمجر متسائلا:

- أدس أنفي؟!

أجابت بعين البرود:

- كثيرًا.

زأر:

- وسلامة هؤلاء الناس ألا تعنيك؟

- وقف عندك.

هتف به الرجل وهو يقوم واقفًا ليحول بينه وبين ما توهم أنه مقدم عليه من اعتداء على المرأة.. ثم توقف وفغر فاه وهو يستمع لحنفي يرفع عقيرته بالصياح قائلا على رءوس الأشهاد:

- اسمعوا يا إخوان.. العبارة فيها من أسباب الخطر ما يجعلنا نغادرها

obeikandl.com

فورًا.. الجراج به أطنان من براميل قابلة للاشتعال السريع.. سولار.. وشحوم وزيوت.. أية شرارة من أي مصدر قريب يشعلها في لحظة.. وقوارب وسترات النجاة منتهية الصلاحية وعددها لا يكفي.. قد تعطلنا أياما عديدة.. وما أظن هذا إلا حدث عمدًا من مُلاك السفينة، فقد كانوا يسعون وراء استصدار قرار وتصريح يسمح بزيادة عدد الركاب بمقدار يزيد على ضعف ونصف ضعف العدد الآمن المسموح به في التصريح الأول.. لنغادرها من فورنا قبل أن تستعرض بنا البحر ونجد المياه تحوطنا كالجبال من كل جانب ولا مهرب.

تطايرت أصوات تجادله:

- من قال لك هذا؟ - هذا فعلا أمر خطير - بل الرجل هو الخطير - يبدو أن به مس من جنون - قل يا باسط ربك هو المنجي - نعم الأعمار بيد الله..

فأجابهم مشيرًا بإصبعه السبابة:

- هذا الرجل زوج هذه المرأة جالس يراقب.. سلوه إن كنت كاذبًا أو بي مس من جنون كما تزعمون.. إنه مفتش السلامة.. قل لهم يا سلامة.

قهقه الجميع ضاحكين للطريقة التي تكلم بها وللموضوع ذاته الذي من العسير أن يتفهمه أو يصدقه عقل.

وهنا تدخل الرجل لما شعر بقرب حدوث مصيبة تحل على الجميع مما يثيره هذا الرجل من قلاقل وخيالات لا وجود لها.. فقال موضحًا:

- يا سادة.. يا سادة.. اسمعوا.. وعوا.. الرجل صادق.

ساد الحضور صمت مطبق يدعو للخوف والدهشة فاستطرد:

- كنا قد حررنا بعض التقارير عن ذلك.. في العام الماضي.. وقد تم تلافي المخالفات ويستطيع أي منكم أن يستأذن سعادة القبطان.. وأنا على استعداد أن أصاحبه إلى المخازن.. وسيرى بعينيه أن كل أدوات الإنقاذ

سليمة، وأن الطبيعة تطابق شهادات الصلاحية.. لكل شيء.. من الرماثات إلى الجواكيت.. مرورًا بالطفايات.. والبالوعات.. وهي صادرة من شركة صيانة محترمة ومعترف بها في مصر والعالم.
هتف أحدهم متسائلا:
- والأعداد..
أجابه بكل حسم وحزم:
- كافية.. حتى الأعداد التي تم التصريح بها في الآونة الأخيرة للركاب.. فقد كانت الشركة تتوقع الموافقة.
وفي تلك اللحظة ظهر سعادة القبطان، ويبدو أنه أبلغ بما يجري هنا فأتى يهرول تسبقه أنفاس لاهثة.. لكنه ما لبث أن استعاد رصانته وهدوءه مبتسمًا.. وسار بخطو واثق نحو حنفي الذي انتابته حالة من التشوش والارتباك شديدة.. وتسمر لا يدري ما يقول أو يفعل، وجذبه الربان من يده بهدوء قائلا:
- تعال معي..
لاحظ تردده فاسترسل:
- هيا معي.. ألا تريد أن تقتنع وتهدأ؟!
تلعثم حنفي قائلا وهو يسايره:
- يا سيدي.. من واجبك.. أن تدرب الركاب على كيفية استعمال وسائل النجاة..
وحاول أن يبدو لطيفًا ودودًا وهو يخطو إلى جواره فأردف:
- معظم هؤلاء الناس لن يعرفوا اسمها عندما يرونها.. صدقني.. صديقك من صدقك الرأي..لا من يجاملك بحلو القول.. صدقني أنا رجل مخلص أمين وفاعل خير.
همهم القبطان وهو يضعه كله تحت إبطه؛ فقد كان طويلا فحل الجرم

عنه بصورة كبيرة والمسكين يسايره ويخنع له:
- بالتأكيد سيحدث هذا.. ولكن ما بك يا صاح.. لماذا نتشاءم هكذا؟ أذان العشاء اقترب.. تعال نعد الحصير للصلاة.. أما زلت على وضوئك؟
غمغم حنفي مبتمسًا وقد زال فجأة من نفسه كل أثر للمخاوف التي زلزلت كيانه كله.. وكأن شيئًا لم يحدث:
- نعم يا سيدي القبطان.. نوح.
وضاعت كلمته الأخيرة عندما تعالى في تلك اللحظة صوت أذان العشاء وفوجئ الركاب فوق السطح بالربان القدير يتأبط ذراع راكب مشكوك في قواه العقلية، فعلت الابتسامات أفواههم، ولكز بعضهم بعضًا لرؤية صورة بديعة للتفاهم ومقدمات الصداقة بين من يمثل الصفوة والسلطة ومن لا حول له ولا طول!
ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فبعد أن قضيت الصلاة التي حرص إمامها على أن يبدد الفروق بين المصلين وهو يردد:
- إن أكرمكم عند الله أتقاكم.
كما حدث في صلاة المغرب.. اصطحب إلى قمرته صاحبنا وقدم له شراب الفراولة وأسمعه مقتطفات من الموسيقى والغناء الشعبي «الفراولة بتاع الفراولة.. وللعنب والرمان والأحمر من البلح والبطيخ.. والنخلتين اللتين في العلالي.. والكوسة والقرع والخيار»، وفي ذات الوقت كان البحارة في حركة دائبة كالنحل يقلعون أوتاد وجذور المركب المتمثلة في الجنازير التي تربطها بتلك الأعناق والرءوس المنتشرة على الرصيف التي يسميها البحارة الشمعات.. وكذلك قلع «الهلالب» أو «الهلاليب» من عقر غرسها بقاع البحر على رصيف الميناء.
وكان معنى ذلك أن آخر سيارة وآخر راكب.. قد ركب.
وأطلقت العبارة صافرات تحية للمشيعين على الرصيف.. آه.. نقصد

المودعين الذين توزعوا هنا وهناك، بين مشاهد ومودع للأحباب الذين على وشك الرحيل.. آه.. نقصد السفر.. وتحية كذلك للسفن الأخرى الراسية في الميناء.. فرد الجميع عليها التحية بأحسن منها.. وشعر حنفي بتحرك السفين فهب واقفًا وهرول إلى السياج المحيط بالسطح كله وهو لا يكاد يصدق أنه الرحيل.. وحدق طويلا في الماء الذي رآه يتحرك مبتعدًا تحت العبارة ليأتي غيره وتتسع الأمتار والمسافات، ولسان حاله يصرخ إنه الرحيل.. ضاعت الفرصة.. ضاعت الفرصة الأخيرة للنجاة.. واغرورقت عيناه ولم يشعر إلا ويد القبطان الرصين تربت على كتفه من الخلف بعد أن لحق به مخافة أن يتهور إلى إتيان تصرف أخرق.. وإذا بصوته الجهور يردد:

- الجو بارد هنا.. لم لا نعود للقمرة حيث الدفء.. حديثي معك لم ينته؟

- الأوطان سفن.

- ماذا؟

- والحياة بحر.

- هيا بدلا من الثرثرة.

- ثرثرة على البحر الأحمر.

- بعد ثرثرة على النيل.

- آه.

- ليكن.

* * *

تجمهر الركاب على سطح العبارة السفلي والأسطح الثلاثة العلوية بصورة غير طبيعية، وأجال حنفي النظر إليهم بجزع ثم إلى السماء وهتف:

- يرحمنا الله.

ولم يجل بفكره مطلقا أنها مجرد تظاهرة طبيعية تقع لأحياء ذوي أعين ترى وأفئدة تهفو عندما يتحرك على رصيف مركب أو قطار في أي محطة سفر في الدنيا.. فهم يتكأكأون على الأسيجة أو النوافذ للتزود بنظرة أخيرة من الأرض الطيبة وهي تتباعد وريدًا خلف المياه أو القضبان (وكلاهما سجن مؤقت) حتى تختفي معالم الشوارع والحدائق والأبنية ويصير المنظر على البعد، إن كان ليلا، مجرد تجمع هلامي شفاف لأنوار تسطع لتدل على أن ثمة حياة متكاملة هناك.

وسأل نفسه وهو يتطلع كغيره إلى البر الآخر حيث الميناء ومدينة ضبا في تضاؤل مستمر:

- ماذا لو حدث وانقطع التيار الكهربي؟

فكر في هذا فتبدت في مخيلته أطوار عدة ترتبط درجة وضوح الرؤية فيها بدرجة تفرد أو تداخل الضوء الأبيض والمعتم في السماء وفي منازل القمر.. أو على حد تعبيره لنفسه:

- مدى نمو الجزء الذي يظهر من وجه القمر.

وكف عن حديثه هنيهة استدعى فيها كل ما في مخيلته من تصورات واستدرك ليجيب سؤاله في سريرته:

- فإن كان نمو الجزء المرئي في تزايد فإننا إزاء درجات من العتمة تتناقص في الجزء غير المرئي حتى تبيض ويبدو الضي فضيًا شفيفًا في طور البدر ليلة الرابع عشر من الشهر العربي، وأستشعر وأنا أنظر أنني لست بحاجة لأنوار صناعية ضافية حتى أميز في الليل حدود وتفاصيل الكتلة العمرانية حسب بعدي عنها..

- أخي!

وتجاهل مناديه واستنكف:

- أما إن كان في تناقص فإن العتمة التي تخفي الجزء غير الظاهر من

obeikandl.com

الوجه تتزايد حتى تسود في طور المحاق في الليالي الأخيرة من الشهر العربي، وأستشعر وأنا أنظر إلى ضبا مثلا أنني إزاء شبح بحر آخر بشاطئ من الرمال يعلوه خلاء رهيب لا نهاية له..

- يا أخ..

- أما لو أن الوقت كان نهارًا لرأيت (كما يقول الوصف الشهير) أن اليابسة تباعدت حتى أصبح أكبر مبنى في حاضرة المرفأ في حجم علبة الكبريت، وهذه الأحوال جميعها تجذب هواة استشراف المناظر الطبيعية للبحار والجبال والأفق البعيد.. والتقاط الصور التذكارية لها وللأحبة بأعين آلات التصوير أو بالأعين البشرية.

وانتهى حديثه لنفسه وانتبه قليلا، لكنه أمعن دون قصد في تجاهل مناديه، وامتدت نظرته كثيرًا إلى الفراغات التي تزخر بالمقاعد والأرائك والطرقات فرآها كلها أيضًا مشغولة وارتسمت في عينيه لذلك علامة استفهام كبرى أخرى، يبدو أن مناديه القبطان الألمعي قرأها فلم يكل أو يمل، وابتدره قائلا وعيناه عليه لا تبرحانه وهو جالس أمامه:

- هذه السفينة «أورجينال» أصلي.. ثم بناؤها عام ١٩٧٠ من قبل شركة «يبتالكانتيري» لصناعة السفن الكبيرة في إيطاليا.. وأطلق عليها اسم «بوكاشيو»، وكانت تستعمل في البداية للرحلات البحرية المحلية داخل المياه الإيطالية، وطولها كان ١٣١ مترًا وسرعتها القصوى ١٩ عقدة.. وقوة محركها ١٦,٥٦٠ كيلووات، وسعتها كانت آنذاك ٥٠٠ راكب.

واشتد فضول حنفي عندما بلغ الربان تلك النقطة الجوهرية فسأل:

- والآن؟

استطرد الربان:

- أنا آت لك في الكلام.. لا تتعجل وأرجوك لا تقاطعني..

ثم سكت لحظة اغترف إبانها أنفاسًا عميقة من الهواء وأوقد غليون تبغ

obeikandl.com

فخيمًا كان بأنامله وسحب نفسًا طويلا كما لو كانت رئتاه تتنفسان من خلاله! واستتلى كأن حديثه لم ينقطع وهو يرقب هذه المرة خلال زجاج المراقبة النظيف الشفاف ما يجري في البحر الغارق في الظلمة بعد أفول الهلال الذي لم ينفعه للبقاء وقتًا أطول كبر حجمه قليلا في طور ما قبل التربيع الذي يظهر فيه نصف القمر.. وليس ثمة إضاءة.. خارج العبارة إلا في المنطقة المحدودة المحيطة بها من انعكاس أنوارها على سطح الماء المتواتر والمتوتر في لطمه لجوانبها.

وعلى حين غرة علا صوت محركها وسمع له أنينًا أشبه بأنين ثور ذبح لتوه، فارتسمت في عيني صاحبنا الشديد الحساسية علامة استفهام جديدة يشوبها بعض الانزعاج، وبان التوتر في صوت الربان النافذ البصر وهو يستدعي أحد مساعديه ويأمره بالهبوط إلى غرفة الماكينات ويرى ما يجري هناك ثم يؤوب إليه بسرعة ليطلعه على مشاهداته ويقدم تقريره.. فامتثل الرجل له وهو يؤدي التحية الرسمية الواجبة.. التي قرأ حنفي فيها عسكرية غير مبررة، فالباخرة مدنية وليست عسكرية والقائد بحري حقًا ودرس في الأكاديمية العربية للنقل البحري وعمل طويلا في الأسطول التجاري.. بيد أنه لم يعمل ساعة واحدة في السلاح البحري المصري!

فماذا يدعو هذا المساعد الظريف لتلك التحية؟

أهي تقاليد ونظم يجهلها؟

قهقه القبطان الذي لم يفته أيضًا قراءة أمارات ما يدور بخاطره على محياه وشفتيه اللتين انفرجتا قليلا في ما يشبه فتحة فرن الخبز الذي يستوي على نار هادئة!

ولم تفلح كئوس الشراب الحمراء والصفراء والبرتقالية وفناجين الشاي والقهوة للربان نوح في تهدئة أوار هذا الفرن الذي كان ينقدح بعلامات الاستفهام بين وقت وآخر.. حارقًا أرغفة «الشبع والسكينة والهدوء» لهذا

القائد الرزين الذي أوشك على ضرب الأخماس في الأسداس وهو يجاهد لري غليل هذا الآدمي بإجابات شافية.

وللمرة الثانية يبدأ في مواصلة حديثه من حيث انتهى كأنه لم ينقطع قائلا بتؤدة:

- و٢٠٠ سيارة.. ثم في عام ١٩٩١ تم تطوير السفينة لتتسع لعدد أكبر من المسافرين، وبلغت السعة النهائية ١٣٠٠ راكب و٣٢٠ سيارة، وفي عام ١٩٩٨ قامت شركتنا بشراء هذه السفينة وأطلقت عليها «السلام ٩٨»!

- و«بوكاشيو»؟!

أضفى حنفي على السؤال بعض السخرية فأجابه قائلا:

- لا.. هذا كان اسمها الذي أطلقته عليها أمها الإيطالية..

غمغم وهو يسكب المزيد من السخرية قائلا:

- وهي بعد طفل صغير مدلل يحبو على صدر نهر البو.

هتف القبطان لأول مرة متحديًا:

- لم تكن يومًا مركبًا نهريًا.. طول عمرها سفينة بحرية.. وكبيرة.

ثم ما لبث أن أسرع وتمالك نفسه وهدأ وتبسم وواصل:

- هي سفينة مصرية تابعة لشركة مصرية.. لكنها تحمل علم دولة بنما.. أنا أعلم ما يدور بخلدك من تساؤلات، وبالذات حول عدد الركاب الذي تحمله.. أنا أقرأ ذلك في عينيك.. حسنًا يا سيدي تفضل..

وأخرج ورقة كبيرة قليلا من الورق المقوى من حافظة أوراقه فوق مكتبة الذي كان يجلس إليه وأمامه على الناحية الأخرى ضيفه وتناول حنفي الورقة وهو يتساءل:

- ما هذه؟

أجابه:

- إنها شهادة ركاب مصرية من الإدارة المركزية للتفتيش البحري لمصلحة

obeikandi.com

الموانى والمنائر مؤرخة في ٢٠٠٦/٢/١.
- يعني أمس.
- أجل.. وتجيز للعبارة حمل ٢٧٩٠ راكبًا بمن فيهم الطاقم.. انتظر لا تقاطعني.. ستجد إجابة لكل أسئلتك.. ومع ذلك السفينة تحمل الآن في هذه الرحلة ١٤١٦ راكبًا..
- بمن فيهم الطاقم؟
- أجل.. بمن فيهم الطاقم.. وكف عن التهكم.
ران الصمت عليهما لأن صاحبنا مضى يفكر ويحسب في ذهنه وأنامله وبعدما انتهى همهم:
- يعني الزيادة ٢٤٩ راكبًا فقط.
- عن أي عدد مسموح به تحسب الزيادة؟
صاح حنفي في غير احتفال وبغيظ من لهجة الرجل الذي بدا له وكأنه يمثل دورًا لا يليق به:
- بمعرفة هيئة التصنيف البحري «رينا».. «رينا».
استدارت عينا القبطان دهشًا من كم المعلومات التي يلم بها لحظة.. أو لمحة سريعة.. وتظاهر بأن سعة صدره لمناقشة الآخر والتحاور معه لا حدود لها، وسأل:
- وماذا تعرف أنت عن هيئة التصنيف الإيطالية «رينا»؟
- الكثير.. قدر ما تعرف.
هكذا نطقها بتحديد وتركيز ربما عمدًا لإثارة كمده وموجدته.. أو لرسم هالة من الغموض حوله تجعل القبطان يحترمه ويعمل لرأيه ألف حساب.. أو كأنه لا يطمع في أكثر من «فش» بالون العظمة الذي يتظاهر به.. وقد نجح صاحبنا في ذلك كثيرًا.. فالقبطان لم يعد يتحمل وسأل وهو يرغي ويزبد:

- من أنت حتى تخاطبني بتلك اللهجة؟! أنت جاسوس مدسوس.. إني أقبض عليك وأسجنك لنهاية الرحلة.

وفي تلك الآونة دلف مساعده الذي أوفده لعنبر الموتور يلهث وقد علت سحنته مسحة من الكآبة، وأعلن قائلا بعصبية وتوفز، ناسيًا أداء التحية على الوجه المرح المعهود فيه:

- سيدي.. هناك متاعب في غرفة الموتور.. الصوت الغريب.. صوت الحشرجة والأنين يخص الموتور.. وكأنه يحتضر ويلفظ أنفاسه.. وظهر له عارض ثان.. الشرر يتطاير منه وينذر باشتعاله.

- من فرط ما يحمل.. المسكين.. يبذل جهدًا خارقًا ليؤدي الشغل المطلوب منه.. لكن الأحمال ثقيلة وفوق قدرته.. أين أجهزة الإطفاء المائي؟!

- ماذا.. أتعرف هذه أيضًا؟! من أنت.. ومن أي مصيبة طلعت لي؟!

- سيدي القبطان كن عمليًا وتعامل مع الواقع.. دعك مني الآن.. هل جهاز الإطفاء المائي للموتور راكب في مكانه؟!

- رباه..

- أم تم خلعه لإفساح المكان لبراميل الزيت والسولار؟! آه.. معذرة أقصد لمنع التكدس في موسم الحج طبقًا للذريعة الرسمية المعلنة.. كالعادة.

- هذا الرجل يخنقني.

- سيدي القبطان.. قد وعدت زوجتي.. ووعد الحر دين.. أن أسالك بحق تلك المرأة زوجة المفتش التي تتحداك.

- يا خفي الألطاف.

- من أعفاك يا مبجل من تركيب جهاز الإطفاء المائي أو الذاتي لا أعرف من؟ ألا تلزمك اتفاقية سلامة الأرواح؟

وانعقد الكلام عقدة عسيرة على لسانه، إذ بدأ القبطان يفقد أعصابه تمامًا وبدا أنه ينهار وهو ينحط دفعة واحدة على كرسيه ويضع راحتي يديه

على جانبي رأسه ويصرخ:
- دماغي.. دماغي.. أخرجوا هذا الرجل المجنون من هنا.. إنه يعرف الكثير.. وأكثر مما يجب.. إنه خطير.. خطير.
- أعرف الكثير وهذه عقدة عذابي ومأساتي.
- أخرجوه فورًا وكمموا فمه.. ارموه في السجن وأوقفوا عشرة حراس على بابه.. لا تدعوه يتحدث إلى أحد.
وبغتة اهتزت العبارة على جانب من جوانبها هزة عنيفة، واستقرت على وضعها الذي أسلمتها إليه الهزة بضع لحظات بدت طويلة ورهيبة، وكأنها تواجه صعوبة ما في عودتها إلى وضعها الأول الطبيعي، ورفع حنفي قبضة يده في وجه القبطان وصاح مكشرًا عن أنيابه:
- أترى؟ أترى؟ أقسم إنها تحمل ٢٤٩ راكبا فوق الـ٢٧٩٠.. وهو العدد الذي سمح به أمس فقط وتتذرع به.. بينما العدد الذي حددته هيئة «رينا» هو ١١٦٨.
وانهار الربان الذي ارتاب صاحبنا في حقيقة أن اسمه «نوح» تمامًا، وبدا أنه على وشك أن يهوي تحت كرسيه، واتسعت أشداقه وسال منها اللعاب، آمرًا مساعديه الذين ملأوا عليه قمرته وتكالبوا عليه لخطورة ما يجري يسألونه الرأي والمشورة، التي لم يكن في حال يقدر عليها، بعد أن فعل به حنفي فعله وجعله يخور كالثور ويهذي بكلام وأوامر غير مفهومة تتناول صاحبنا بالتهديد والوعيد.. لا.. بل بالويل والثبور.. وعظائم الأمور.
في تلك الآونة.. اشتم الجميع رائحة دخان يزكم الأنوف.. وارتفعت أصوات في الخارج وساد هرج ومرج وأطل أحد البحارة برأسه من باب القمرة الذي كان مواربًا وصاح:
- حريق.. حريق.. الموتور يحترق.

***

- ٥ -

- بالله.. لا تنظر إلي تلك النظرة..
- أنا غير شامت.. هل أشمت في المصيبة وهو مصابي؟! أنا حزين..
- ولا تحزن..
- من لا يملك إقرار مصيره عليه أن يحزن.. فهو مكلف وبلغ سن الرشد.. إنكم لا تسمعون إلا صوت دماغكم وتلك هي المصيبة.. مع أنها حياتنا.. لكنكم لا تريدون أن تسمعوا رأينا فيها وكأن تخلفنا عقليًا أكثر منه حضاريًا.. من نحن؟ نعرف ولا تعرفون.. من أنتم؟ تعرفون ولا نعرف.. هذا هو السؤال وتلك هي عقدة المشكلة.
- هذا كلام غير حقيقي ويزيدك حزنًا.
- قلتها لك.. أنا أعرف أكثر مما ينبغي وأنتم لا تعرفون أنني ومن هم على شاكلتي من ركاب السفينة يعرفون.. وتلك هي مأساتنا.. ليس لنا ولا في إمكاننا أن نفعل شيئًا لنذيب جليد قلوبكم وجلاميد رءوسكم.
- صه.. هذا هو جنوني.
- لا تنظر أنت إلي نظرة عبد المأمور فأنت عبد الله.. اصح يا حضرة الربان.. اصح.. أنت الحاكم هنا، والحاكم راع أكثر منه آمر.. لا يليق بك أن تكون مأمورًا فكيف بعبد لمأمور؟!
- لا فائدة من حوارك معي.. أنا وأنت لا نسمع بعضنا.. اذهب قبل أن آمر بسجنك فعلا.

- قد ذهبت.. حياك الله.
قالها صاحبنا وهرول خارجًا قبل أن تفر الدموع من عينيه ويبدو ضعيفًا.. محبطًا.
وتردت أكثر حال الربان المنهار بعد الذي سمعه من حنفي والبحار فتناول الدومان (المقود) من الضابط المعاون، وتوجه هذا على رأس رهط من الفنيين والأعوان الذين تزودوا بطفايات الحريق إلى حيث الموتور، وسار في ركبهم بدافع من الفضول أو الخوف نفر من الركاب الذين رأوا كتل الدخان تتدفق من عنبر الماكينات، وهبطوا جميعًا السلم الذي لا يسع غير فرد واحد في اضطراب ونفاد صبر وهم يصبون جام غضبهم على من صممه. وفي لحظات كانوا وجها لوجه أمام الموتور (المَوتور) الذي اكتفى مشكورًا من الحريق الذي بداخله بإطلاق الأعيرة الشرارية التي كانت من التتابع والكثافة بحيث بدت نارًا نشبت خارجه.. وقد كانت كذلك فعلا في خزان الزيت الذي يقع أسفله.. حيث تساقطت كرات من اللهب على الأرض وأوشكت أن تمتد إلى الجراج المجاور وتمسك بالبراميل التي تصطف كعسكر تشريفة في جنازة بلا أرغن، وتنبه الضابط إلى الكارثة التي ستندلع، وأيقن أن الحيلولة دون ذلك أمر دونه الموت ولا يدري لم صاح مثل البحار المبشر:
- حريق..
لكن بصوت مبحوح من فرط وفداحة الشعور بالخطر الداهم، فطاشت سهام حاملي الطفايات وأطلقوا مادة الإطفاء دفعة واحدة وبغير حساب، حتى أغرقوا الموتور وأوشك أن يختنق مطلقًا أجراس التوقف، وفي ذات الوقت واصل الضابط المذعور صياحه قائلا:
- هناك.. هناك عند الممر المفضي إلى الجراج.. أسرعوا بالله عليكم..
ولم يكن ثمة حريق على هذا الممر.. فتبادل المطفئون نظرات تنم عن

الحيرة والتشكك وهم يتساءلون:
- أين.. أين.. أين النار.. أين النار؟!
وشعر الجميع أن العبارة تستدير، فانتبهوا إلى ما يعنيه ذلك الأمر الصعب لربان قرر العودة إلى ميناء ضبا استجابة لنبض وحس الشعب.. واندفع بعضهم وهو من ضيق النفس ينفخ إلى حواجز الأسطح، وأطلوا منها ورفع البعض عقيرته بالصياح معلنًا:
- المركب تعود لضبا - الله أكبر على العدا - إنها تعود فعلا - ربنا ستار أصلا - الريح تهب من الغرب – لا يأتي من الغرب ما يسر القلب..
واستولت على البعض الآخر حمية وشهامة فاندفعوا صوب مصدر الخطر المحدق وهم يستعرضون مواهبهم التي تدربوا عليها من طول ما عركوا الحياة في مسالك الغربة الوعرة، وادعى أحدهم أنه كان يعمل رئيسًا لفرقة إطفاء، وآخر ادعى أنه خبير موتورات، وثالث زعم أنه الأكثر علمًا فهو كهربائي وهذا الموتور يعاني عطبًا في الدوائر الكهربية المغذية.. فتنمر له رابع وزعق فيه قائلا بتباهٍ وحنق:
- أنا كنت أقوم ببناء سيارات نقل الركاب بورشة في الغربية من الألف للياء.
- الآن عرفنا سر نزيف الأسفلت في مصر.. ولماذا فزنا بالمركز الأول في حوادث الطرق على العالم!
- وفي استيراد القمح المسوس والمبيدات المحظورة عالميًا المسرطنة.
- والمركز الأول في تزوير الانتخابات.
- يا سلام.. ومياه نيل بمخلفات المجاري والمصانع ملوثة.. ولحوم مستوردة ميتة ومسركسة.. وقِرَب نقل دم إلى القلوب بالأمراض العصية مسيسة.
- الساحل الشمالي كله بما فيه ثلث الدلتا مهدد بالغرق والحكام ظرفاء يركبون ظهور العلماء ويعطون ظهورهم للعوالم.

- وشباب يركب البلاليص ينتحر بحثًا عن عمل في بلاد ما وراء بحر الغرق المتوسط.

- نواب مخدرات ونواب قروض مسروقة يهربون للخارج من باب التفتيش الحديدي.. وركاب يتزاحمون على قطار الصعيد ليحترقوا ليلة العيد.. وفي أعقابه رواد مسرح وليد.

- قولوا لي.. ما تعريف الأزمة أو النكبة أو الكارثة حتى تتحرك حكومة ياهوووه؟!

- معيار الأزمة لا أهمية له.. فالوطن كله مهدد بكوارث رهيبة من الجهات الأصلية الأربع لأسباب طبيعية وسياسية ومع ذلك لا يتحرك أحد.

- أهذا وقت مثل هذا الحديث؟!

- قد طال ما صنعنا مراكب وسفنًا.

- تقصد قوارب الريس حنفي.

- من فضلك أنا حنفي.. وعن تهمة الفساد عن نفسي أنفي.

- إذن فهي قوارب ريس اسمه على وزن اسمك طالما تعترض يا ريس حنفي..

- فعلوها قبله في سينما الأبيض والأسود وحياتك.. المسألة سهلة.. المهم أن يكون عندك إرادة وقلب أبيض..

- وما شأن بياض القلب؟!

- أضعنا الوقت في الكلام كعادتنا.. ولم نطفئ حريق قلب الثورة.. آه.. أعني مانجو قلب الثور!

- يا أخي الأعمال بالنيات.. وبالأبيض تنال رضا الله لا بعملك.. حتى إن كنت تقضي وقتك كله بالمساجد.. المهم أن يكون ما هنا أبيض.

وأشار إلى موضع قلبه، فقهقه أحدهم وغمغم:

- فقط.. أنا متأكد أن عبّارتنا تلك قام بتجميعها ميكانيكي خواجة على

شاسيه قديم.
- بل ميكانيكي مصري من ميت الغرقا.
- يا خوي خشيت أن أقول هذا.. وكلامك يفهم منه أننا طالما نحمل قلوبًا بيضاء فهذا يكفي لعبادة رب الأرض والسماء.

على هذا النحو تمكن حب الكلام والثرثرة من الركاب، وشغلهم عما أحدق بهم من خطر.. وكان ممكنًا أن يطول أكثر لولا أن الضابط الأول ظهر ووضع نهاية له.. وأبلغ الركاب الذين تكأكأوا عليه يسألونه الحال بلهفة أنه تمت السيطرة على الحريق.. وانقلب لحاله يعالج آثار ما تطاير من الشرر، على حين طفق أفراد الطاقم يطمئنون الجميع ودعم منطقهم أن السفينة، فيما شعروا، عادت تستدير لتأخذ مسارها الأول في اتجاه ميناء سفاجا، فغمرهم السرور.. وشعور بطاني غامض بالنصر.. على ماذا؟! لم يسل أحد نفسه.. وراحوا يصفقون للرجال الذين قاموا بهذا العمل الجلل، وتعالت هتافاتهم بحياة الربان ورجاله الشجعان.. وانخرطوا في ذلك وقتًا طويلا فلم يلحظوا أين قبع حنفي بعد خروجه منتصرًا من قمرة القبطان نوح الذي زايلته المشاعر المفقدة للثقة كافة، وأزاحت الهتافات بحياته كل الانفعالات المخزية، وأسكرته وملأته بنشوة التيه والفخار الطلية، وطافت به برنامج «ساعة لقلبك»، مع إشارة الساعة إلى التاسعة من مساء ليلة ٢ فبراير عام ٢٠٠٦، التي تعني أن العبارة قطعت شوطًا كبيرًا في مسيرها عبر البحر لا يقل مقداره عن ثمان وثلاثين عقدة في ساعتين.

وكان الركاب على درجة عالية من الحساسية والتنبه تصل إلى حد العصبية في ما يتعلق بإمكاناتها وقوة آلاتها وبنائها وتوافر احتياطات السلامة والأمان بها إذا ما تعرضوا للخطر، بعد أن هبت الكثير من الأقاويل بينهم هبة نار الزيت الذي يرش على سطحه ماء، مما جعلهم يكثرون من الحركة دونما هدف في أروقة وطرقات الباخرة، كأن كل منهم يبحث عن ضالة

مفقودة يتطلب العثور عليها اختراق أماكن عمل الطاقم والتزاحم بينهم، مما أعاق هؤلاء عن حسن الأداء، وحدا بالقبطان إلى إصدار نداءات عبر مكبرات الصوت المنتشرة في جميع جنبات العبارة.. راجيًا التزام الجميع الأماكن المخصصة لهم وكأنه لا يلم بالمعلومات عن سفينته بدرجة كافية.. فإن عثور كل راكب على مكانه (مع الزحام) كان ضالته المفقودة.

طلب ثان أضحك الكثير من العارفين ببواطن الأمور.. أن يجلس كل راكب مكانه ويكف عن الحركة التي تؤدي، فضلا عن تعطيل عمل البحارة.. كما في ملاعب الكرة، إلى كثرة عددية تثير مخاوف المتشككين في قدرات للعبارة وطاقهما وربانها تضمن خالص التمنيات برحلة سعيدة.

وتساءل حنفي:

- من هم المتشككون؟!

كان في طريقه (وابنه في يده) إلى حيث تجلس أو تقف دنيا مع ابنتيه فتقابل والمفتش البحري زوج السيدة مروجة الشائعات الذي أبدى سروره لمرآه على غير ما توقع، وانتحى به جانبًا وأسر في أذنه (ولا يدري لم تطوع لكشف سره) بأنه ليس في طريق العودة من رحلة الحج، وإنما هو مكلف من جهة عليا بمهمة سرية على العبارة، بعدما عمدت الشركة المالكة إلى تعطيل أعمال التفتيش الجيد بالتقصير في إعداد أماكن إعاشة ومبيت وانتقال المفتشين، وأنه بخصوص «بوكاشيو السلام ٩٨» بالذات فإن الحكومة البنمية التي ترفع العبارة علمها، لم تعطها تصريحًا بالإبحار إلا لمسافة حدها الأقصى عشرون ميلا عن الشاطئ.. ولكن أحد كبار المسئولين بهيئة النقل البحري المصرية منحها شهادة تعطيها الحق في الإبحار بأعالي البحار.. دون التقيد بهذا الشرط.

سأله حنفي بطريقة آلية من فرط الدهشة:

- لماذا؟

أجابه بنوع من التبسط كأنه يتحدث إلى أحد البُلْه:

- لأن صاحبها عضو مجلس شورى غير منتخب، وعضو بمجلس إدارة الهيئة.

- أية هيئة؟

- هيئة النقل البحري المصرية.. والمعنى وراء ذلك في بطن الشاعر.

صاح حنفي مقاطعًا وكأنه وجد الضالة التائهة:

- والشاعر بطنه ميدان تجري فيه قطعان البهائم والخرفان و..

- الخنازير البنمية..

- وكل خنازير العالم.. فهذه شركة دولية..

- لك ما قلت..

- ولكن ماذا لو غرقت البوكاشيو.. ألا تفكر في استحداث تعليمات تلزم الربابنة بتعليم الركاب كيفية فتح قوارب النجاة المطاطية وتعويمها على سطح الماء.. وكيفية فتح الجاكيتات وإحكام أربطتها حول الصدر.. وتعليمهم أن ضبط النفس ومغالبة مشاعر الهلع وانفلات الأعصاب من أهم عوامل النجاة.. ألن تفكر في لفت نظر الربان والمسئولين عن الأمان بالسفينة إلى أهمية ذلك؟ لا تفعل أكثر من الكلام أنت وزوجتك المصون.. أنت تتكفل بالرجال وهي تتكفل بالنساء.. ما المقصد.. وإلام تهدفان؟! أجب.. أتلك هي المهمة السرية؟!

وارتفع صوته كثيرًا في الكلمة الأخيرة.. لكنها ضاعت كالعادة - ولم يسمعها أحد - إذ بغتة أنشد عصف الريح وعلت أمواج البحر كما لو أن القاع يتحرك للصعود إلى السطح والاجتماع به كما تجمع الشمس والقمر يوم القيامة، مما تسبب في تناثر رخات كبيرة من المياه على رءوس الركاب وتطايرت الطواقي والطرح والشالات بل والجلاليب البيضاء والسود على حد سواء، ولم ينعقد عقال أو وشاح أو عباءة.. فالريح الصرصر أعلنت

عن نفسها.
وتدافع ركاب السطح نحو الأماكن المحمية من السفين.. فتضاعف تكاثرهم بالأروقة والطرقات بين الكبائن، أو بمعنى أدق «الكمائن»، التي تعالى شخير بعض النائمين بها.. وتعالت كذلك أصوات بكاء الأطفال وشهقات النساء جزعًا.. وحشرجات أنفاس البعض ممن اختلط التمييز عليهم بين بصاق المرض العضوي وبصاق الحقد والحسد على من ينام هانئًا مستورًا هو ومن معه في حيز خاص يرفل في الأحلام بين الوسائد والأغطية بنفوذه ونقوده.. ولو فوق أسرة معلقة على الجدران زيادة في التوسع والإسكان الرأسي.. ليكن.. طالما أعداد هؤلاء المحظوظين تقابلها أعداد مساوية من سترات النجاة من الغرق الصالحة للاستعمال.. التي لن يتسنى لهم (للأسى والأسف) استعمالها لأن عزلة تلك «الكمائن» غالبًا ما تغرقهم في الكرى العميق قبل أن يغرقوا في البحر.. وما الفارق؟ كله غرق. حدث صاحبنا نفسه وحمد ربه.. إذ رغم ما يعانيه وآله من البرد والأرق ومختلف الأفكار والمشاعر الغامضة بالصدر لضيق ذات اليد.. هذا الداء الذي يطارد الغالبية العظمى من ركاب البحر - وعلى ما يعتقد - ركاب البر أيضًا.. فإن صنف البشر من الركاب أوفر حظًا.. وتبسم حنفي لما يجول بخاطره من أفكار وقال لنفسه:
- هذا أفضل من أن يكونوا مركوبين.
وتواصلت أفكاره تداعيًا فالكل يسعى وراء رزق يعمر راحة يده ويوسع بسطتها لجلوس أطيار الخير.. ولو بعض الوقت.. ريثما يلتقطون أنفاسهم ويستجمعون شعث قواهم لمواصلة مسيرة السعي والكفاح اليومي.. ولكن هيهات.. فإن طيور الخير والبسطة في الرزق التي تجلس عليها حبلى بقلق يقطع أحبال الأمل.. ومهما ركبنا الصعب اضطرارًا.. سواء بحرًا أو برًا فإن بلوغ شطآن النجاة أو ذروة الجبل أمر صعب دونه التنازل..

وهذا التنازل قد يكون مبادئ نؤمن بها.. أو كرامة تحفظ أنفسنا لا نملك غيرها.. أو.. كما هي الحال في تلك البوكاشيو عبارة «السلام ٩٨».. إسلام روح.

- يا إلهي.. روحي وروح أبنائي يا هووه.

زعق حنفي مستجيرًا فلم يسمعه أحد، وأردف بنفس الصوت:

- خزائن رحمته لا تنفد.

ولم يسمعه أحد أيضًا.. فالجزع في ما يبدو استشرى بلا رحمة واستولى على الفرائص فاصطكت الركب والأسنان.

كرر:

- خزائن رحمة ربي لا تنفد.. فقط هو يبلونا ليعرف من الصادق ومن الكاذب.. يا قوم اذكروا الله.. وبشروا الصابرين.. نعم «الشاطر» والناجح الذي سيرفع يده شاكرًا ربه في يومنا هذا.. يوم القيامة.. قيامتنا.. من سيصبر من أولها قائلا إنا لله وإنا إليه راجعون.. أما من مجيب؟! تبكون وتضحكون.. أنظروا إلي.. أنا لا أبكي ولا أضحك.. يا رفاق وجودنا في تلك البوكاشيو مصيبة.. قلتها قبل أن نركب وقبل أن نبحر فلم يصدقني أحد.

وصمت هنيهة وزفر زفرة حارة من صدره واسترسل:

- نعم.. نعم.

وكان يحلم واصل:

- أرى الكثير من القطط السود تركب رءوس الموج.. في هذا الجو الذي انقلب فجأة رأسًا على عقب.. ولا أحد يطير في الفضاء الدامس الظلام المطبق على صدر البحر الهائج غير طيور بيضاء هي البوم.. معك الحق يا بحرًا ضاق صدره من جثوم الليل الموحش الطويل هنا أكثر من أي مكان آخر في الأرض.. وقد نام القمر مبكرًا.. أوى إلى فراشه على الناحية الأخرى منها.. معك الحق أن تثور معلنًا عن حاجتك الماسة لبعض النور.. لك

ولمخلوقات الله ترعى في باطنك.. ها هنا في تلك العبارة.. شمس.. قمر.. وهلال، أحبائي الأبرياء.. أعز الأحبة.. وأمهم بصيص نور يضيء حياتي.. تهفو أمواجك إليهم.. لا.. لن أستطيع آسفًا التنازل لك عنهم.. تتسابق أمواجك لتلطم الجوانب وتعلو رءوسنا طمعًا في خطف بقعة من نور شرفات العبارة.. الكثيرة.. التي تتحلق أربعة طوابق كاملة.. والتي قال عنها القبطان إنها ما كانت موجودة في المهد الإيطالي.. وهي بعد صغيرة.. فتية.. وماذا في ذلك الصغير يكبر ويصير مصريًا وكله ربح ومكسب.. ألا يشاركني أحد الفكر؟ أما من مهندس يحاورني؟

صراخ وعويل من لحظة بلوغها الحلقوم.. ليكن.. لأحاورن نفسي.

يا نفس.. يا عقل.. يا أبسط عقل.. يا مبادئ الهندسة قولي ماذا يحدث لبناء يرتفع وتزيد قمته وزنا دون أن يقابل ذلك زيادة في طول القاعدة وعرضها وعمقها؟

أتذكرون أهم ما نسيناه في الاحتفالات بالموالد والأعياد.. نسينا.. آه.. علي السكران.. أتذكرونه.. هذا المسخ الصغير الثقيل الرأس.. الذي كنا نلهو به أطفالا في المولد أو العيد.. ولا يسلني أحد أي مولد.. فجميع بلاد المصريين بها موالد لأولياء الله.. نعم.. ولكن دعوني أذكركم لماذا سميت تلك الدمية السكران، لأننا كنا ما نكاد نضعها على الأرض حتى تتطوح يمينًا وشمالا.. لأن رأسها أثقل من جسمها.. وهذا بالضبط ما يقع الآن، فـ«بوكاشيو السلام» هي علي السكران.. تخيلوا معي يا صناع شرق وغرب ووسط الدلتا.. وشمال وجنوب ووسط الصعيد.. نحن نركب عبارة علي السكران.. انظروا كيف تتقاذفها الريح والأمواج.. وعندما تميل على أحد الأجناب تمكث وقتًا طويلا تتردد فيه جدرانها وتهتز وتئز.. بل ترتج متشنجة حتى تعتدل.. وإذا ما اعتدلت لا يستغرق ذلك أكثر من ثوان تميل بعدها على الناحية الأخرى.. ويمر وقت مخيف تتسارع فيه ضربات قلوبكم وأنتم

تتوهمون أنها واقعة لا محالة على هذا الجانب إن لم تعتدل على وجه السرعة.. تنفسوا الصعداء يا رفاق.. علي السكران يعتدل.. آه.. وصموني بالجنون لأنني أعلم أكثر مما يجب.. أنا حزين وأرثي لهم.

* * *

- أسمعت؟ الارتفاع يجب أن يتوازن مع الاتساع في بناء السفن.. تلك أبسط القواعد الهندسية.
- للأسف لم تتحقق.. لأنه لم يكن نموًا طبيعيًا لأعلى في وقت الصبا والنمو.
- حتى تنمو الأجناب أيضًا.. قد جاء النمو متأخرًا في وقت بدأت فيه عوامل الذبول والانحسار والتهديد بما يصيب الخلايا الغضة من أمراض التوغل في الزمن.
- أبت صنوف الفن الهندسي وعمارة بناء السفن أن تجد حلولا بالتوسع في العرض والانغماس في العمق مع ضمان التوازن.
- فالجسم مع الزمن يفقد مرونة الألياف والدقائق وعروق المتانة والقوة اللازمة لإحداث التطوير الآمن الذي يجعل عروس الماء تعتدل بسرعة وفتوة وعندما تضرب الريح أعلى الرأس والموج أسفل البطن ضربات متلاحقة.. قاسية.
- المرونة تضمن اعتدالها في إصرار.. لا تردد ولا نخع.. وخلخلة.. كما نرى الآن.. شيء اسمه..
- سمعته يقول علي السكران.
- قال إنها لعبة ظهرت في موالد الأولياء في الزمن الجميل..
- واختفت في زماننا هذا، لأن لعب الأطفال أصبحت إلكترونية.. ولكن..
- ماذا؟
- اختفت اللعبة وبقيت الفكرة يستخدمها صفوة الملاك وأصحاب

الحواس والنفوذ في اللهو بالبسطاء والعامة، فيشترون من مقابر الخردة مركبات مثل «بوكاشيو السلام»، ومع شغل السمكرية يتم ترميم الهالك ولحام المسالك.. وتضخيم الرأس للتوسع الذي يحمل اسمها.. مع ثبات القواعد والأساس، لأن التوسع الأفقي صعب..

- فيظهر علي السكران ثانية..
- من قال عن هذا الرجل مجنونًا هو المجنون.
- معك حق.. لم يسمعه غيرنا بكل أسف..
- كأنه يؤذن في مالطا!
- أو في واحة الأخسرين أعمالا!

* * *

تنفس الركاب الصعداء، وفيهم آل حنفي، أكثر من مرة.. معلمة الرياضيات المصرية وأسرتها.. الشاب بائع الساعات في الغربة وزوجته الخفير.. المسكينة التي تعاني علة في النفس زادتها غضبة الطبيعة اعتلالا وصراخًا.. وأعداد غفيرة تبدي الندم على أنهم فيما استطاع أن يفهم صاحبنا قد تخلفوا من عمرة رمضان للحج.. كل أولئك يقفون أو يجلسون في الممرات والأماكن المغلقة من «السلام بوكاشيو».. أما سلامة وقرينته وأولاده.. والمحترمة زوجة المفتش السري عن السلامة.. وباقي ركاب حافلة الحجاج الذين حفظ وجوههم وملامحهم في مخيلته وذاكرته.. ففي الكمائن لا ريب يأكلون مع الملائكة الأرز باللبن..

ومن أيضًا؟ آه.. نعمة.. زوجة فارس حمزة المقاول.. أوشك أن ينساها وهي الأَولى بالتذكر.. هكذا حال الكرماء.. على مر الزمن.. أول من ينساهم الناس لأنهم أصحاب فضل يتطلب العرفان.. وما زال مقاول البناء الشهير بلا مؤسسة.. طريد الأخذ بالثأر.. ابن الصعيد الشهم الذي مد يد المعاونة

obeikandl.com

له.. ومد جسر الأمل الطويل ينتظر تأشيرة العودة للشقاء والمعاناة من أجل البقاء على أبواب السفارة، مجرد البقاء على قيد الحياة.. تلك التي لا تهب نفسها طواعية إلا لمن يفرط فيها.. طالبًا الموت.

ثم ماذا؟ ثم ما هذا؟ الدخان ثانية؟! بكثافة هذه المرة.. هذا الموتور مُصر على الانتحار وإطلاق روائح الاستهانة بالبشر.. من الطابق السفلي لـ«السلام» تتصاعد روائح تكتم الأنفاس.. ماذا أيضًا.. ماذا يسمع؟ البحارة ينادون بعضهم وهم يجرون في كل اتجاه.. يبحثون عن طفايات ممتلئة بالمادة الصالحة لإطفاء الحريق.. الذي غافلهم واندلع من جديد.. حالهم يدعو للبكاء.. الضحك المرير.. يتصادمون بالأعمدة بالأسيجة.. بالجدران.. بأجساد ركاب تزاحموا على السطح وتمسكوا به بعد أن قرأت أعينهم.. دون إعلان.. أن جميع الأماكن المحمية تم شغلها وتعاني زحامًا رهيبًا وروائح وأنفاسًا أشد فسادًا من تلك التي يتجشأها الموتور..

الكمائن والعنابر والطرقات تغص بالفزع وفرط الحاجة والانشغال بالبحث عن وسائل إطفاء مبتكرة تدعو الأجساد للتصادم والتهافت بحثًا عن دقة قلب آمن.. يلهم الطمأنينة والأمل في النجاة.. رباه.. إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا..

ويا عبارة «السلام بوكاشيو».. لم تحترقين؟! ما إصرار قلبك على التوقف وفي داخلك كل هذه القلوب الطيبة؟! ما ذنب الأطفال.. فلذات الأكباد.. البذور التي ستعمر الأرض لم تغرق في الماء ولا تنبت نبتًا صالحًا.. طيبًا؟ وكل هذه النسوة الصالحات.. اللاتي لا تثرثر ألسنتهن بغيبة أو نميمة قط.. الحافظات للدين وتماسك الأوطان وطهارة الفروج.. والشيوخ والعجائز.. حجاج بيت الله الحرام في آخر سنوات العمر.. قد أدوا ما في أعناقهم من أمانة.. أقاموا حدود الله وغرسوها في ضمائر الشباب.. شيوخ وعجائز المستقبل.. سوف يلبون نداء ربهم هم أيضًا.. فهكذا تنتقل الأمانة من

obeikandl.com

جيل إلى جيل.. شعلة يرفعها الجميع ما دام في العمر بقية لعطاء.. سن التقاعد؟ أكذوبة.. الحياة تبدأ بعد الستين.. منتهى التفاؤل.. فلماذا يبتئس هو وتستولي عليه أباطيل الأقاويل ويقف تحت مظلة التشاؤم السوداء.. لمجرد ما سمع عن نشوب الحريق مرة أخرى بالموتور وامتداد ألسنة النيران إلى الجراج؟

فرحة أنت يا براميل.. تتلقفين النار وتقدمين لها ملبن الشحم وعصير الزيت ومشروب السولار! أشهى وألذ ما تفضل تلك الألسن تذوقه.. والعام الهجري الجديد ملأ الكون منذ أيام قلائل بالأمل والبشرى..

ها أنا ذا صابر يا دنيا وأنت تتوارين عني بشمسك وقمرك وهلالك.. رباه.. ماذا أسمع؟ صياح رجال.. صراخ وعويل من فوق الأسطح.. أصوات زجاج يتكسر.. ماذا أنتظر هنا؟ قعيد أنا كالولايا لا أفعل غير الكلام أو الولولة؟ إن الرجال عليهم عمل ينهضون به.. وأنا؟ ألست رجلا؟ أم أن بي مس وجنون من عرف أكثر مما ينبغي لا يفعل شيئًا.. كما صنفني السفهاء والأنذال أصحاب الأذيال؟

كلا.. ليس بحر الحياة.. بل الموت.. ولديه أمواج غلاظ.. شداد.. عمالقة في الطول والعرض.. لا يعصونه أبدًا.. وعلي أنا واجب وقاية نفسي وأهلي.. من أفواهها المفتوحة على وسعها للالتهام.

يا ناس.. يا إخوة.. يا أصدقاء سترات النجاة.. إلينا بها.. قد توقعت هذا.. وقلب المؤمن دليله.. ودليلي احتار.. ماذا أفعل غير طلب سترات النجاة.. والرماثات، الاسم الفصيح المختصر لزوارق النجاة المطاطية؟!

نعم.. نعم إلى الرماثات لنخرج من فورنا.

وجاكيتات النجاة.. سترات النجاة لا الصوديوم يا من تصطدم بي كأنك أعمى.

لا ليس أعمى، فالركاب عن بكرة أبيهم يتدافعون على السطح السفلي

للبوكاشيو.. الشيوخ والنساء الرجال والأطفال في بحث يائس عن مستودعات حفظ أطواق وزوارق النجاة.. غير عابئين بعصف الريح وصفعها لأجسادهم الرهيفة.. الضعيفة.. ولا بصفعات أيدي الأمواج الطويلة.. لصوص وقراصنة البحر وملتهمي لحوم البشر.. التي أشبعت وجوههم الرقيقة ضربًا وصفعًا.

يا بحارة.. يا بحارة.. أين أنتم يا بحارة؟! سترات النجاة.. لماذا لا يصدر الربان أمره لكم لبدء عملية مغادرة «السلام» قبل أن يغرق ونغرق معه؟ أين هو أصلا؟ تتسابق أعيننا في الأماكن التي ألفنا رؤيتهم بقربها عند الساري.. والمدخنة وسلم عنبر الموتور وقمرة الربان.. نستجير بكم بعد ربكم أن تسرعوا بتوزيع جواكيت النجاة لينجو كل حي بحياته، ولو دفع لقاء ذلك جميع ما يملك.. اليوم ليس أغلى وأعز من الروح يوم الرعب وقيامة الأعين الجاحظة.. الحديد.. والأنفس التي تطيرت شعاعًا.. والأفئدة التي انخلعت وبارحت مكانها وسقطت بين الأقدام الحافية.. طاردة كل الأحبة.. من فزع لا مثيل له.. وكأن المثل المأثور منذ طوفان نوح حقيقة لا تقبل النقض والإبرام.. ولكن.. هيهات لا أثر لرجال الطاقم الذين يضيعون الوقت الثمين لإنقاذ الأنفس.. فلا هم لهم إلا إنقاذ «بوكاشيو السلام»، إنهم جميعًا هناك في محاولة محكوم عليها بالفشل لإطفاء النار التي تلتهم كل شيء بالجراج.. لأنهم بعد نفاد مادة الإطفاء بطفايات الحريق القليلة العدد يستخدمون الماء في الإطفاء.. آه الحمقى.. بل الجهلاء.. مشتقات البترول.. بالبراميل وغير البراميل.. فكل شيء بترول.. وكل شيء بلاستيكي.. والماء يزيد الزيت اشتعالا.. يا للعجب كيف لم يدركوا تلك الحقيقة البدهية؟ ألم يكن عقلهم الواعي في يقظة؟ أطلق الرعب العقل الباطن من عقاله وكأن ثورًا أسطوريًا من أزمنة سحيقة هاجمهم فوقفوا له بمناديل حمراء يدفعونه عنهم فما زادته المناديل إلا غضبًا وهجومًا..

obeikandi.com

قد أعوزهم العقل والوسيلة الناجعة للقضاء عليه.. ربما لعماء غريزة حب البقاء افتقدوها واستسلموا للغفلة التي أرخت سدولها على ألبابهم.. وربما لأن الربان عقلهم المفكر كان مشغولا بالمكافحة من خلال النظر إلى ما تنقله كاميرات الدائرة التلفازية بمكتبه يحسب مساحة الجراج.. وإلى أي ارتفاع يلزم أن يصل منسوب المياه في أرضيته حتى يدق جرس الخطر ويأمر رجاله بالتوقف عن استعمال المياه.. فعدمها أفضل.. بعد أن امتص الموتور المَوتور كل المادة الفعالة في الطفايات.. فضلا عن أن بعض الطفايات حرن وأبى أن يعمل ويلفظ تلك المادة السحرية التي لا وسيلة غيرها ولا بديل عنها يا دنيا.. يا شمس.. يا قمر.. هلال بيدي.

* * *

وأخيرًا وعي حنفي أن أفراد أسرته كانوا بقربه طوال الوقت.. لكنه لم يشعر بوجودهم لشدة وفداحة ما كان يجول بعقله وشعوره.. فاحتضنهم دفعة واحدة.. ورفع عقيرته بالصياح، كما لو كان يظن أن المعني بكلامه يسمعه:

- قلتها لك يا رجل.. لا بديل عن استعمال جهاز الإطفاء المائي للموتور.. الذي خلعته ليتسع المكان للبراميل حيث أسعارها بالسعودية أرخص! ولموسم الحج.. فلم يعجبك كلامي.. وظننت بي الظنون.. أما كان أولى بنا أن نتفاهم؟!

وتخيل حنفي أن الربان خرج من مكمنه ووقف بجوار باب قمرته وقال هو يستند بظهره عليه مسترخيًا بينما وجه بوز حذائه إلى الأرض وعقد ما بين ذراعيه في غير اكتراث وغليونه في فمه يسحب أنفاسًا عميقة ويطلق سحائب دخان في منافسة شديدة لسحب دخان الحريق:

- ما كان بوسعنا أن نتفاهم.. قلتها لك أنا.. وأنت خير من يعلم من أنا..

كل شيء إلا المساس بالشركة التي أسهم في تأسيسها رجال عظام.
وهز حنفي (الذي يبدو أنه قد أصابه الخبل فعلا) رأسه.. آسفًا.. كاسفًا..
وواصل ما تخيله وغمغم:
- فأجبتك كل شيء إلا المساس بالحياة والأرواح البريئة التي استأمنك الله عليها وجعلك راعيًا لها ووليًا عليها.. فوضعت أصابعك في أذنيك.. لا تريد أن تسمع غير شرف الشركة وكل ما يتعلق به.. طيب.. صبر جميل يا قبطان.. والله المستعان على ما تصفون.
وما تؤسسون وما تهدمون.. وما تضيعون من التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين.
- المرحمة.. المرحمة.
- أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.
- المغفرة.. المرحمة.
- سترات النجاة.. المرحمة..
صراخ وعويل الكبار والصغار في عملية الهلع واليأس وجنون الفوضى الناجمة عن الشعور بيد المنون تطبق قبضتها الباردة الحديدية على الأعناق في بهيمة ليل سرمدي أرخى سدولا قاسية على الأمل في النجاة.. وأمواج تتعالى كالسعالى والجبال تضرب بلا رحمة الحديد والخشب واللحم لم يمنع صعود الشهادتين واعترافات وتوسلات الرحمة.. ودعوات الاستغفار عن الكبائر والصغائر.. والتوبة وتمني النجاة حبًا في الحياة وإتاحة الفرصة للعمل الصالح في تلك البقعة الصغيرة من البحر الأحمر الرهيب.. الشديد سواد الظلمة.. وسواد القنوط واليأس من النجاة.. جذب انتباه حنفي لإصاخة السمع بعد أن كان لا يسمع سوى نفسه فساورته مختلف المشاعر المتعارضة.. فهو بين مشاركة الأمهات والأطفال في البكاء والتبسم بصفاء يغالب رغبة عارمة في التحدث إليهم ووجهه

عامر بالبشر.. فما زال يحلم.. يغمغم.. يتساءل:
- وتهتفون المرحمة.. آه.. متى وأين سمعت تلك الكلمة المباركة آخر مرة؟ تذكر هناك في أطهر أرض.. المرحمة هناك خوفًا من النار.. والمرحمة هنا خوفًا من الماء عدو النار.. سبحان الله في طبعكم.
وينقلب شعوره بغتة إلى النقيض ويسترسل:
- يا قوم.. يا قوم عاد وثمود.. اقنعوا بمرحمة واحدة.. لا تكونوا طماعين فالطمع هو العلة.
- المرحمة.. المرحمة.. يا قبطان.. المرحمة.
ويتحول بعينيه ناحية القمرة.. ويواصل حلمه:
- آه.. المرحمة يا قبطان نوح.. نوح المزيف.. ما.. ماذا تقول؟
يتضح له أنه لا يسمعه جيدًا.. يدنو منه ليسمعه، وبعد لحظة يهز رأسه علامة على الفهم ويتجه إلى المستجيرين والمستجيرات قائلا، على الرغم من أن القبطان لم يتفوه بكلمة:
- حسنًا.. يقول القبطان ادفعوا أولا فلكل حياة ثمن.. و..
ويتوقف كما لو كان يدير كلمة لا تعجبه في ذهنه معالجًا بكل صدق فهمها، على حين يصرخ هؤلاء في ضراعة ورجاء:
- ندفع.. ندفع.. سَلْه كم يريد ثمنًا لكل سترة نجاة؟ سَلْه بسرعة.. الوقت ذهب هباء.. المرحمة.. المرحمة.
ويلتفت حنفي مركزًا عينيه على القبطان (وما زال يتخيل في حلمه) أنه يقف مسترخيًا على باب القمرة مبديًا الإهمال وعدم الاكتراث والغليون في فمه يطلق سحائب دخان تنافس تلك المتصاعدة من عنبر الموتور والجراج.. يسأله:
- كم تريد يا ربان ثمنًا؟ ربان؟
يفكر..

- أعتقد أنك لا تستحق هذا الاسم الكريم.. حسنًا لا تغضب.. المثل يقول: «لاقيني ولا تغديني».. قلت لا تغضب.. المثل يقول أيضًا: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود».. حسنًا يا مبجل أعلم ما تفكر فيه.. تتحدث بوضوح وبجاحة.. فهمت.. فهمت.

ويدير رأسه ناحية المتضرعين البؤساء ويستتلي:

- أيها التعساء.. يا منكودي الحظ.. باختصار يقول الـ.. هذا الواقف هناك.. إنه تم احتساب ثمن تذكرة العبور بـ«السلام بوكاشيو»، وبها خطأ كبير.. نسي قاطع التذاكر احتساب رسم صيانة الرماثات وأطواق وسترات النجاة وباقي معدات السلامة.. وإن عليكم دفعها أولا.. هو لا يبغي غير نسبة الصيانة القانونية.. حلال ربنا.. وإياكم وإساءة فهمه.. أو الظن بذمته الظنون.. فهو رجل يتقي الله.. وعلى البر يصلي.. من البيت للعوامة.. آه.. أقصد المسجد.. وهنا في العبارة كما رأيتم هو إمام المصلين.. ولا فرق عنده بين بحار وضابط وأي راكب.. فهو مثل الاستقامة والتقوى.

- المرحمة.. المرحمة.

- الدفع أولا يا قصيري الذيول.. فلا دخان بغير نار.. وكذلك لا حلاوة.

obeikandl.com

- ٦ -

- يا له من حلم مزعج..
- كابوس.. كابوس.

في ذلك الحين كانت عبارة أخرى تابعة للشركة ذات الاسم المنشود تفتح أبوابها لاستقبال الذين وقفوا فرادى وجماعات على رصيف ميناء سفاجا على الناحية الأخرى من البحر انتظارا لدور كل منهم في الصعود.

كانت تبدو عليهم جميعًا أمارات من تدرب جيدًا على النظام المتبع؛ السيارات والبضائع في جانب.. والبشر وما يحملون خارجهم وداخلهم في جانب آخر.. دون أن يطغى أحد الجانبين على أخيه.. ودون أي نوع من التساؤلات التي تصدر عمن يركبون هذا الخط الملاحي لأول مرة بين سفاجا وضبا.

دون أي سؤال حتى عن الغاية من تسمية هذه العبارة بالذات بهذا الاسم الجليل، وأن يحمل قبطانها اسمًا حبيبًا على الأنفس، فهو يوم العيد الأسبوعي.. وإن كان الكثيرون لما سيأتي بعد من غريب سلوكه يرون أن اسم خميس به أحق.. أو على حد قولهم ما دام لكل جواد كبوة.. ولكل فولة كيال؛ فلكل خميس جمعة.

وكان موعد مغادرة «سانت كاترين» في الثانية والربع بعد منتصف الليل الفاصل بين الخميس والجمعة.. الجمعة الحزين ٢٠٠٦/٢/٣.. عين الموعد المفترض لوصول «بوكاشيو» «السلام ٩٨»، فقد كان مقدرًا لها (بأمر الله)

obeikandl.com

أن تصل.. فالخط الملاحي الذي تبحران فيه واحد.
وإن كان ثمة ضرورة (ولو فرضية جدلية) لبيان اختلاف يفصل بينهما.. فهو في وصف الرحلة.. فما يعتبر بالنسبة لأي منهما ذهابًا يعتبر بالنسبة للثانية في ذات الوقت إيابًا.. وبين هذا وذاك بون شاسع يجب المحافظة عليه لئلا تختلط الأنساب على الركاب فلا يعرف الواحد منهم على أي درب هو غلاب.. يحط رحاله على أي تراب يحفظ المسمى والأسباب.. ويعلي شأن الهوية والأنخاب.. فلا ينادي على قبطان «السلام ٩٨» بجمعة.. وعلى قبطان «سانت كاترين» بنوح.. ذلك العبد الشكور الذي فقد ابنه في الطوفان واقتنع بحكم ربه لأنه كان عبدًا شكورًا.. وكان ابنه عملا غير صالح يؤمن بعصمة الجبل.. وحين تكون عبدًا ونبيًا.. يهون عليك كل عزيز في سبيل مرضاة ربك.. فهل تقدر على دفع الثمن؟ سؤال نعرف جميعًا الإجابة عنه لأنها سهلة.. ويمكن لأي منا أن يستخدمها بيسر إذا ما وجه إليه أحد إصبع اتهام.. ولكن.. ألم يكن الأيسر الاستغناء عن ركوب البحر للعبور بين البلدين الشقيقين بإنشاء هذا الجسر على خليج العقبة عند أضيق اتساع له؟!
سأل حنفي هذا السؤال لنفسه واستدرك:
- قيل إن نشاط ميناء العقبة الأردني سيتأثر، وقد ينعدم.. وهناك لعبة على المدى الطويل يلعبها العدو لتحقيق حلمه (من النيل إلى الفرات) بضم المياه ما دام استحال تحقيقه بضم اليابسة بإيصال البحر الأبيض بالأحمر عن طريق الميت.. ومؤقتًا على المدى القريب إقامة تعاون مع دول المنابع وإنشاء سدود ومشاريع تتحكم في حركة المياه تؤثر في حصة السودان دولة المعبر.. ومصر دولة المصب.. وما دامت هذه الأخيرة ترفض توصيل مياه النيل إليها..
رباه نحن ضحايا لهو السمك الكبير بالسمك الصغير في الأنهار التي تم

ضمها لأعالي البحار.

الآن يدرك وهو يفكر هاربًا من الواقع الرهيب المؤلم والفناء المحقق مقدار الخسارة التي لحقت (وتلحق) بالعرب جميعًا من جراء زرع الدول الاستعمارية (عوضا عن اقتلاعها وجلائها) دولة عبرية تسعى لأن تكون يهودية صرفة وسلالة عرقية نقية صافية.

- رباه.. كابوس.. كابوس.

- منذ قليل كان حلمًا مزعجًا.

- حياة مريرة.. حياة تنتهي نهاية لا وصف لما فيها من عذاب.

- هذا تطهير لنا.. شهادة يتمناها كل مسلم حقيقي.. وموعدنا الجنة.. نحن لن نموت.. سننتقل فقط من الفانية إلى الباقية.

- من الدنيا أسفل سافلين إلى جنة الخلد في عليين.

- تمام يا أخي في الله.. فقط لا تحزن الآن.. تبسم واتق الله في نفسك.

- سأتبسم.. النبي تبسم.. ستكون آخر ابتسامة.

- حمدًا لله على الشهادة.. اشهد يا مسلم بدلا من الثرثرة معي أو مع نفسك.

- ومن أدراك أنني أثرثر مع نفسي.. رباه.. من أنت؟ آه.. أعرفك.. أعرفك.. طال ما رأيتك في أحلامي المخيفة.

- رباه.. ارحمه.

- أشهد أن لا إله إلا الله.

- أكمل الشهادة.

- وأن محمدًا رسول الله.. يا قوم اشهدوا جميعًا.. اشهدوا جميعًا..

- نشهد جميعًا.

- حاذروا.. ابتعدوا عن الأسوار.. الأمواج المفترسة تتخطف البشر.. ابتعدوا ولكن أين تبتعدون ولا موطئ لقدم؟! السفينة مكتظة باللحم.. وأسماك

القرش.. في الظلام الدامس.. تنتظر وليمة دسمة.
- رباه.. المرحمة.. المرحمة.
- وأفكر في منابع النيل.. في قناة السويس.. أمَّا والله.. كأنني جالس على منصة مجلس الشعب أتطلع إلى نواب الشعب.. حسنًا يا نواب الشعب اشهدوا.. وصلوا وامنعوني من الثرثرة.

* * *

ظن حنفي، أو توهم (من الحوار الذي دار في خياله بينه وبين نفسه، ثم مع الركاب المساكين البسطاء الذين صدقوا قوله عن طلب الربان سداد نسبة ١٠٪ مقابل رسم صيانة وسائل الإنقاذ والسلامة، التي نسي قاطع التذاكر إدراجها في قائمة حساب ثمن التذكرة كشرط لتسليم كل منهم سترة نجاة، أو حيز لجسمه في زورق إنقاذ) أنه أصبح بهذا في حكم النقيب عنهم على العبارة والمتحدث الرسمي باسمهم.. والمدير العام لشئون إنقاذهم.
وبناء عليه استدعى كلا من رجب البحراوي وعلي الصعيدي لمعاونته.. وبعد إقناعهما.. انخرط الثلاثة في الاندساس وسط الركاب التعساء الذين أضناهم البرد والجوع والعطش والرعب ولطم الأمواج لوجوههم وضرب سياطها لأجسادهم.. لجمع ما تيسر منهم (والثري يكب ماله على الفقير، وكذلك من على مروءة) وكانت حجتهم في الإقناع بسيطة وأعلنوها صريحة بألسنتهم:
- لا تستغرب.. ادفع لعبد المأمور ولا تخف.. فسيوصلها للمأمور الذي بدوره سيوصلها للآمر.. الذي باع القطاع الحكومي العام، من «شركة الحديد والصلب» إلى «عمر أفندي»، بأبخس الأثمان، ولا ندري لِمَ.. المثل يقول: «ابن البلد يفهمها وهي طايرة»، فكيف لا ندري؟

ولم تكن لديهم قاعدة حسابية محددة لضمان عدالة المشاركة في الدفع لصعوبة حصر الركاب على الطبيعة بما يطابق عدد التذاكر لأسباب عدة لا تخفى على أحد، من بينها طبعًا أن بعض الركاب كانوا من متخلفي عمرة رمضان إلى الحج.. وهؤلاء كانوا على غير وفاق مع أنفسهم، واستغل صاحبنا ورفيقاه تلك الثغرة لتصوير الأمور لهم بما يوافق هواهم:

- قد سمحتم لأنفسكم بقضاء فريضة سنها الله الكريم حسب الاستطاعة وجعلتموها أنتم بمخالفة لوائح ونظم أولي الأمر التي تهدف إلى الموازنة بين إمكانات الأرض المقدسة ومقدرتها على استيعاب الأعداد الغفيرة.. حتى لا تقع حوادث بسبب الزحام.. الأمر الذي وقع وكان من المستحيل تداركه بسببكم.. أنتم لا أثر لكم في سجلات المغادرة ولا في سجلات العبارة.. وإن غرقتم ليست لكم دية.. والآن فرصة ذهبية.. طريقكم إلى قاطع التذاكر مفتوح لقيد أسمائكم.. وإلى الله كذلك.. ادفعوا عن أنفسكم وعن بعض غير القادرين تكفرون عن ذنب ارتكبتموه برشوة قلة من البحارة أركبوكم العبارة.. ادفعوا.. «من غشنا فليس منا».. النجاة.. طوق نجاة.. زورق نجاة.

- النجاة.. النجاة.. الآن النقود لها قيمة الحياة.. والقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود.

وبهذا.. انتعشت أحوال الركاب البؤساء النفسية.. إذ انفتحت لهم على غير توقع طاقة نور في تلك الظلمة الموحشة وأسباب الموت المرعب تطل عليهم وتأخذ بخناقهم.. ولعل هذا الهدف السامي كان المحرك الدافع لحنفي وصاحبيه اللذين اقتنعا بسهولة لجمع المال.. إذ الحاجة ماسة لبصيص أمل يدرأ اليأس بقدر انتفاء الحاجة للمال بعد الغرق.

والغريب ألا يشعر القبطان وأعوانه بما يجري على الرغم من أن طاقم الباخرة لم يكن مشغولا كله بإطفاء الحريق اللامجدي بالماء.. وإنما كان

بعضهم يؤدي أعمالا أخرى هامة لخدمة المجهود اللازم لسير العبارة المترنحة.. بل المتأرجحة كعلي السكران.

وكان بعض هؤلاء أكثر قربًا من الركاب.. مما أفضى في نهاية الأمر إلى تنبههم لما يدور في العلن، فأسرع نفر منهم إلى القبطان ينهي إليه الخبر ويفتعل الغضب لضرر كبير يصيب سمعة الجميع وسمعة الشركة إن لم يراجع نفسه ويأمر فورًا بوقف تلك المهزلة.

فهب الربان من جلسته الطويلة مأخوذا وسأل عامله بتوفز:

- عم تتحدث؟ أنا لم آمر أي مخلوق بجمع مال ولا أفهم كلمة واحدة من هذا التخريف.

- معقول؟!

كلمة واحدة نطق بها مخبر القبطان وهو لا يكاد يصدق أن قائده بتلك الخسة وهذا الجبن.

فقد استبعد أن يكون من الغفلة بحيث يترك لهذا الراكب الذي بعقله «لُطف» الحبل على الغارب.. يناطحه ويقارعه كلما وجد إلى ذلك سبيلا ليدير شئون الركاب في أدق مهامه دون علمه.. وكأنه انقلاب على ربان البوكاشيو.. يقوم به راكب نكرة.

نكرة.. أيكون حقيقة أن انقلابًا حدث؟ أم أن هذا محض خيال روائي؟!

وماذا يمنع أن يطوف بخيال الركاب في بحثهم اليائس عن وسائل النجاة التي أبى الربان لسبب لا يعلمه غيره (سبحانه) ومن بعده مفتشو السلامة البحرية مثل هذا الطائف، ولو على سبيل إلهاء النفس وتزجية الوقت الضائع في ما يجدي؟ لا سيما أنه أمر «متفشٍ» ومألوف بين صغار الموظفين على البر.. كما يدعي السيد المسئول الأكبر للتنمية البشرية في الوزارة النظيفة.

إنهم بالطبع لديهم استعداد قهري لقبول أية فكرة ولو أكذوبة تنقذهم

فإنهم في موقف لا يسمح لهم أن يكونوا أولاد بلد «يفهمونها وهي طائرة».. وإنما عليهم أن يمتثلوا.. طائعين.. فلقد كلفتهم، وهي «طائرة هذه»، الكثير من التنازل عن مقومات الحياة، والآن عن البقاء على قيد الحياة.

وكل النهايات محتملة القبول.. إلا هذا البحر الجائع الذي يفغر فاه.

كل الأيادي لها راحات كبيرة للصفع واللطم.. إلا تلك الراحات.. أو بالأحرى الاستراحات والباحات التي لا أول لها ولا آخر لجبال الموج التي ترتفع لتهوي.. وتهوي لترتفع في ظلمة ليل القبر الكبير.. رباه.. أي حلم مزعج.. وأي كابوس مخيف.. غفرانك.. غفرانك.

* * *

وقف القبطان يتسمع لصراخ الأطفال وعويل النساء.. والرجال كذلك.. ويتطلع إلى ثورة البحر وهديره الذي يضاهي الصراخ والعويل كأنه في منافسة (غير متكافئة) عمن يغطي على الآخر ويقهره.. من خلال الزجاج الأمامي لقمرة القيادة.. تأمل طويلا وهو يدخن غليونه ومخبره واقف «يطرطق» أذنيه ترقبًا لأوامره.. أو ما يتم عليه رد فعله كقائد.. وحاكم.. حيال من ينازله ويحط من قدره.. وهو الحاكم الأوحد لدولة البوكاشيو في عرف القانون البحري.. فهو مدير التموين والأمن.. والقاضي والسجان.. والمأذون! (وكلاهما واقف على باب سجن) إن كان ثمة ضرورة قاهرة لا تحتمل تأجيل دخول سجن البحر بضع ساعات حتى يبلغ الزوجان مأذون البر.. وهو أمل حبيب مهما بعد.

أطال الربان وقفته وخمن البحار أنه يفكر ويدبر فقاوم عوامل السأم والتململ حتى استدار وألقى عليه هذا السؤال الهام:

- هل انتهيتم من إطفاء الحريق.. معذرة فالدائرة التليفزيونية تعطلت.

ورشقه البحار بنظرة استغراب، وبدا له أن الدائرة الإحساسية والحواسية لدى قائده هي ما تعطل.. وفكر في أن يطالبه باعتذار ثم تراجع لإدراكه أن حاسة مثل الشم أو النظر لا تتعطل لأسباب داخلية فحسب، وإنما لأسباب خارجية أيضًا بسبب الدخان المتعدد الألوان والروائح.. تبعًا لنوعية مادة الاحتراق التي كانت تتصاعد من كوات التهوية المستديرة بالجراج.. لأنها بمجرد عبورها لتلك الكوات يتم رؤيتها لمدى ثوان من انعكاس أضواء الباخرة عليها.. وما تكاد تدور حول نفسها نصف دورة بفعل الهواء السريع حولها، حتى تتوارى في الظلام الدامس المخيف الجاثم على صدر البحر الثائر، حاضن فزع كل الركاب من كل ما يحويه باطنه الغامض من أحياء غير إنسية وأحياء أساطير.. إلى آخره من مخلوقات غير مألوفة.. فضلا عن المألوف منها الذي يعتبر من قبيل الوحوش.. لأن البشرية لم تتعرف بعد على وسائل التقرب إليه.. مثل سمك القرش الأبيض الشهير بزعنفته الكبيرة على ظهره التي يمخر بها عباب الماء عندما يكون ساكنًا في ما يشبه دفة المركب الحاكمة لاتجاه السير.. الذي يكره الضجة وأي حركة في محيطه تثيره فيضرب «في الملآن».. وكم من غرقى لم يهتم بأمرهم لأنهم كانوا «شطارا» هادئين.

وبدوره طالت حملقة مخبره فيه.. غير مصدق أن يفكر في أمر آخر غير طعنة أصابته في الصميم.

ولكن الحريق أمر أكثر خطورة.. فلم العجب؟! وكرر القبطان السؤال لما لم يحر جوابًا:

- أقول هل انتهيتم من إطفاء الحريق؟

وقبل أن يتفوه الرجل بكلمة تمزق هدوء القمرة وانفتح بابها المغلق على الدوام، وبرز الريس حنفي ومن خلفه مساعداه يتجاذبان «قفة من أذنيها» مغطاة بمفرش مائدة من تلك المتراصة بقاعة السمر والطعام

obeikandi.com

والشراب.. لا.. لا.. هذا ليس وصفًا دقيقًا.. بل ملاءة «محلاوي» من الطبعة القديمة التي لم يعد لها وجود.. ولا يدري أحد (ولا هم) من أين أتوا بها.. فمن باطن هؤلاء الركاب المذعورين تظهر عجائب.. خطرت تلك الأفكار برأس القبطان وحدج زواره بفضول شديد وهم يضعون القفة أمامه، وفي ذات الوقت صاح حنفي:

- هاك ما نرى أنه لا يليق بك من بعض ما تيسر يا سعادة الأب.

غمغم البحار في ذهول بعد أن كشف الغطاء و«زغللت» الأعين بهجة منظر الأوراق المالية المكدسة:

- أب..

وكشر الربان عن نواجذه وسال لعابه وصر بأسنانه حتى كاد يحطم الغليون متسائلا:

- ما هذا.. فلوس؟!

وجاوبه البحار متظاهرًا بالسخط والتبرم:

- رشوة.

وتهته حنفي بنوع من التظرف غير مبرر، وإن كانت به نغمة مرارة:

- باقي.. ثمن.. مصنع الحديد والصلب.. ومتاجر عمر أفندي.. يدفعه الشعب للحاكم بأمره نيابة عن المشترين.. فعلت ما أوحيت به إلي يا سعادة القبطان.. أم أنك.. عفوًا.. قد نسيت؟!

صرخ سعادة القبطان:

- نسيت ماذا يا رجل يا مجنون؟! أوصلت بك البجاحة تلك الدرجة؟!

همهم البحار في شبه تأنيب وهو يحدق في النقود بشراهة وعيناه تبرقان:

- هذه نتيجة تبسطك وسعة صدرك وتواضعك معه يا سيدي القبطان.

وغمز حنفي بطرف عينه وهو يحث القبطان على الاعتدال ويتمتم في شبه احتجاج:

- سيدي عمر أفندي.. ألا تعرفه؟! عمر أفندي اللي صرف دم قلبه ودم أكثر من متين شركة ومصنع على محمد أفندي وجيشه لغاية ما عبر القناة وركب التل الحصين في أكتوبر تلاتة وسبعين ورفع عليه العلم.. بِعته وبعت عرق ودم الشعب كله رخيص.. هذا بقية الثمن.. خذه.

صرخ القبطان في ذهول وغضب شديدين وهو ينظر إلى تابعه البحار مستجيرًا:

- أبعدوا عني هذا الرجل المجنون.

وواصل حنفي غير عابئ به:

- عمر أفندي يا قبطان.. يا بطل العبور.. يا صاحب الضربة الجو.. لا.. فاتتني هذه.. أنت ضابط بحري.. ما علينا عمر أفندي يا رجل اللي كان بيبيع للفقرا والموظفين الغلابة هدوم الشتا بالقسط.. ألا تعرفه؟! عمر أفندي يا رجل..

ومال البحار على أذن قائده وغمغم بصوت خفيض:

- كل شيء بتمنه.. هيه.. اتفقنا.

ودون أن ينتظر رده تراقص وهو يمني نفسه بالنعمة وينظر إلى السماء شاكرًا مقبلا كف يده ظهرًا لبطن وهو يغطي القفة بالملاءة كأنما عزم على الاستحواذ عليها لنفسه ثم قفز وهو يزمجر ناحية حنفي ومن معه ودفعهم بذراعيه للخروج قسرًا وهو يقول:

- لا عمر أفندي ولا المصري أفندي.. سعادته مش وش ذلك.. ولا من هواة جمع الطوابع.. والعملات الأثرية النادرة..

- أ.. نا..

نطق بها القبطان الذي انعقد لسانه بصعوبة تحت وطأة مفاجأة النقود وزخم المعاني الكبرى العميقة التي فاه بها حنفي، فعجز عن إتمام جملة واحدة مفيدة.. وتوقف البحار عما هو سادر فيه، إذ انفتحت بغتة نوافذ

القمرة واندفع هواء شديد تطايرت له الأوراق جميعها من فوق المكتب.. وتطايرت الستائر والأهدام التي يرتديها «المهابيل الثلاثة» حتى بانت سراويلهم.. بل طارت القفة وما تحويه إلى وجه البحار وصدره وكأنها تلطمه وتضربه فأقعى ليحتويها بذراعيه وهو يردد فرحًا:

- تعالي يا حلوة.. يا جميلة.

بطريقة أثارت حفيظة الربان ولكزه بيده فوقع على ظهره وانفلتت حلوته الجميلة وتبعثرت محتوياتها وتطايرت في أرجاء المكان ولاحقها البحار واثبا بذراعيه ورجليه حتى كاد يطير.. وحملها تيار الهواء على أوفاضه حتى خرجت من النافذة وهو وراءها لا يقدر ولا يعي مدى الخطورة التي يواجهها، فليست المسافة الباقية على الحاجز الخارجي لسياج الباخرة ببعيدة عن الفراغ المظلم فوق البحر.. لكن ماذا يفعل.. صرخ في اللحظة الأخيرة مستغيثًا في رعب:

- أوقفوني.. أمسكوني.. عاجز عن منع نفسي يا ناس.. الفلوس ستخرج من عيني.. أمسكوني.. روحي يا هووه.. سأقع.. سأغرق.

وتلقفت الأمواج، التي ارتفعت لها أياد طويلة، النقود بشراهة، أما البحار فشاء حسن حظه أن تلفظه وتوقع به على ظهره خارج الحاجز كأنها انتقت ما له قيمة.. وفرح البحار بنجاته لدرجة أنه لم يصدق نفسه وقبض على عوارض الحاجز بيديه وهو يبكي، وظل على تلك الحال إلى أن أغمي عليه.. ونظر الحضور داخل وخارج القمرة إلى ما جرى في ذهول وصمت وكأن على رءوسهم - كما يقال – الطير، دون تحديد جنسه.. ولكنه في حالتنا هذه ولتوافر كل العوامل المواتية، لا سيما الظلام الحالك، يتحدد جنس الطير بالبوم.. والبوم الأبيض المشرع الأجنحة الطويلة التي تشبه قلوع المراكب والبحر هادئ، فما بالك وهو هائج.. وهذه ليست مغالاة في الوصف، ولكنه في ما يبدو خداع نظر.. فالبوم الأبيض لم يكن إلا

صفحات الأوراق التي طارت من القمرة ومن جميع فتحات الباخرة.. وقطع من قماش ستائر الباخرة التي تمزقت.. ومفارش مناضد وأسرة.. وأغطية الرءوس والجلاليب التي انسلخت عن أجساد بعض الركاب حتى انعقدت عند الآباط وأوشكت أن تحملهم على متن طيران الريح بما عبأته من قوى إلى حيث تلتقي بأذرع الأمواج آخذتهم بالأحضان إلى صدر سيدهم وملكهم البحر.. فاضطروا إلى التخلي عنها وقلعها للنجاة بجسومهم، وتصايحت أصوات:

- الموج يخطفنا - الرياح تواطأت مع الموج - الماء يمزقنا - سياط وراحات وقبضات تتدافع فوق وجوهنا - رحماك يا رب - حنانيك يا رحمن - لطفك عند القضاء يا رحيم - اللهم لا تأخذنا بما فعل السفهاء منا - ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا - ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به - واعف عنا وارحمنا - أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

- ومن هم القوم الكافرون؟!

- لا تخف.. هم قوم البحر.

- وهل في البحر قوم؟!

- طبعًا.. كما في البر والجو.

- ومن أدراك أنهم كافرون؟

- ألست معنا؟ ألا ترى ما يحدث لنا؟!

- أقسم لك أن ذلك من فعل أهل البر.

- كيف؟

- ألا تعرف الآية الكريمة التي تقول: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس»؟

- طبعًا أعرف..

- حسنًا.. اسكت ولا تتكلم.. يكفي ما نسمعه من صراخ ونواح وعويل.

- معك حق.. أعرف أيضًا قول الله تعالى: «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى»..

وما لبث أن اقتحم القمرة مقتحم آخر وهتف بأنفاس مبهورة والماء يقطر من وجهه وشعره وملابسه المبتلة ويبدو عليه الإجهاد الشديد:

- سيدي القبطان.. قد ارتفع منسوب المياه بالجراج.. بدرجة.. خطيرة.. والبلوعات.. سأله القبطان بنفاد صبر:

- ما لها؟

- مسدودة.

- يا عيني.. تنتظر مني الأوامر بتسليكها؟!

لم يكن سؤالا غبيًا يستحق عليه التأثيم.. لا سيما أنه خير العارفين بمغزى إلقاء الأسئلة البدهية على القادة.. فإن العيب عادة ما يكون إما فيهم وإما في القائمين بالعمل والتنفيذ عندما يجعلون من «الحبة قُبة» وفي الحال التي عرضها المبتل على الربان يبدو أنه تم بذل مجهود فائق دونما فائدة، فالمهمة البسيطة صارت عسيرة والبدهية أصبحت معضلة.. طأطأ الرجل رأسه علامة على الخذلان والعجز.. وأدرك القبطان محنته وتعاطف معه وسأله:

- محاولاتكم ذهبت هباء.. يمكنني أن أقر ذلك..

- عندما تصل أيدينا لما ينحشر في المواسير.. تخرج أشياء غريبة.

- كيف؟

- شنط.. ملابس صغيرة.. وملابس داخلية.

- فهمت.. فهمت.

وشغله سؤال رهيب فغرق في الفكر وتوجه بأنظاره صوب النافذة وهو يسحب من غليونه نفسًا عميقًا ويدير هذا السؤال في ذهنه:

- إذا كانت مساحة أرضية الجراج ٢٠٠٠ متر.. وكانت الحمولة المقررة

للعبارة ٢٠٠٠ طن فإلى أي منسوب ترتفع المياه فوق الأرضية لنستوفي السعة المقررة بالوزن للعبارة.. التي يصبح معها وزن أية موجودات أخرى من البشر والجمادات يعتبر وزنًا زائدًا؟!

وعلى حين غرة غمغم حنفي مستهجنًا:

- البالوعات مسدودة ونحن هنا.

وواصل وهو ينظر إلى رفيقيه ليتقوى:

- يا أولاد.. البالوعات مسدودة يا رجب.. يا علي..

قالها مستنجدًا بحق، لم يكن يهزل أو يرتجل ساخرًا ما يبعث على الضحك من شدة المرارة..

وتوًّا أخذ طريقه إلى الباب وفي أعقابه تابعاه قاصدًا سلم النزول إلى الجراج، وبعد جهد جهيد في مغالبة الأجساد المتلاحمة والانسلال من بين الفروق التي أحدثوها بها، الذي جعل النحيب والبكاء والصراخ منه مهمة غاية في الصعوبة، كان الثلاثة في مواجهة هواء ساخن هب عليهم من الجراج واندفعوا داخلين وهم يستعيذون بالله، وكانت عينا حنفي أسبق منه في عبور المسافات، ورأى النيران وقد أمسكت بسيارته تلتهم حمولتها الثمينة فدمعت عيناه وشعر بفداحة الخسارة، ثم تمالك نفسه عندما تذكر أن خسارة الأنفس أكبر وابترد تمامًا وهو يذكر الآيات الكريمة التي يحفظها كل مسلم عن صور ما يبتلي الرحمن به عباده من نقص حتى انتهى إلى: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون»، فحدث نفسه بأن حاله من حال غيره.. ولا بد أن الجميع يحمدون الله ويشكرونه على أنه يبتليهم ليعلم من الصادق ومن الكاذب.. وما العويل والصراخ إلا من الخوف والخشية، وكل ما يتوافق مع الإيمان ولا يعارضه.

وتحمس وتحفز وهو يرى جهاد الرجال ولا مبالاتهم بالنيران التي يعالجون

obeikandl.com

بفدائية إطفاءها، سأل بحارًا يمسك خرطومًا طويلا من منتصفه ليرفعه عن العوائق التي تعترضه، معاونًا زميلا له يمسكه عند الفوهة النحاسية التي تندفع منها المياه (نحو البراميل والبضائع والعربات) عن البالوعات فنظر إليه البحار شزرًا وردد بضيق ذرع:

- الكل، صغيرًا وكبيرًا، يعرف أين تكون البالوعات.

ولم يفهم صاحبنا المعنى وافترض أنه لم يسمعه.. وأراد أن يلفت نظره إلى شيء يخصه فصاح به راجيًا:

- السيارة الزرقاء.. رش السيارة الزرقاء.

كان يعني سيارته ولما تلكأ الممسك بزمام الخرطوم الثاني أردف صيحته بأن وثب عليه محاولا أن يختطفه منه ليطفئها بنفسه.. لكن رفيقاه أمسكا به من تلابيبه.. وقالا في صوت واحد:

- لا أمل في إنقاذها.. لقد احترقت عن آخرها.. عوضك على الله.

- وحمدًا لله.

نطق بها حنفي في خنوع شديد وحقيقي وهو يذرف دمعة خئون طفرت من عينه.. دمعة أحر من الماء الساخن الذي ارتفع منسوبه إلى ركبتيه.. وركب الجميع.

- أتطفئون النار.. بالنار؟!

صاح حنفي لكن أحدًا لم يسمعه.

- أين البلوعات؟!

- تاني؟!

هتف بها البحار الذي سأله لدى دخوله مستنكرًا فأسرع علي الصعيدي ورجب وسألا عين السؤال ليعضدًا موقفه.. فاستسلم البحار وأشار إلى أماكنها وإلى أن عددها أكثر من ثلاثين، وبأن قطر الواحدة منها عشرون سنتيمترًا بالتحديد.. واختتم كلامه بأن قال في بساطة:

obeikandl.com

- إنها كافية لو صدقت لإخراج كل المياه من الجراج.. تلك التي تتهددنا بالغرق إن لم نتخلص منها.

- إذن.. لماذا لا تكفون عن سكب المياه؟!

همهم حنفي في عجب.

- هل أنتم مجانين؟!

هتف علي ورجب.

وانتهز حنفي فرصة وقوفهما إلى جانبه فتمادى ورفع عقيرته صائحًا كما لو كان ينشد:

- أرى رءوس مجانين أينعت وحان قطافها.

ولم يدر أحد إن كان جادًا أو يمزح، فقد اعتاد الجميع الذين عرفوه مثل هذه الأقوال تطفر من بين شفتيه.. على حين اختطف على «سيخًا» حديديًا طويلا مما يستعمل في التسليك من فوق إحدى السيارات لم يكن دورها في الاشتعال قد جاء بعد، وكذلك فعل كل من رجب وحنفي، وانحنى ثلاثتهم على الأرضية الغارقة يجسونها بأيديهم بحثًا عن مواضع البالوعات المكتومة.. وفي صوت واحد تعالت أصواتهم قائلين:

- وجدتها.. وجدتها.. وجدت واحدة..

وكما لو كانت هذه حرفتهم طوال عمرهم، أدخل كل منهم بهمة ونشاط السيخ معالجًا تسليك البالوعة التي عثر عليها دفعًا وجذبًا في توالٍ وتعاقب.. واستشعر حنفي أن السيخ بين يديه قد ثقل وزنه فجأة فسحبه بسرعة كما لو كان قد اصطاد سمكة ورفعه في الفراغ لأعلى ورأى الجميع كمية لا بأس بها من الأكياس البلاستيكية جرت وراءها حقائب صغيرة وأوراقًا مقواة متهتكة وملفوفة على بعضها، وكأن أحد المجانين دسها.. وكذلك قطع متهالكة من ملابس نسائية.. فخلص فوهة البالوعة ومقدمة السيخ منها وتلفت حوله أين يلقيها حتى لا تعود للبالوعة ثانية، وأسعفه

فكره بإلقائها فوق كومة كبيرة من الصناديق التي خمن أنها تحوي قطع غيار أدوات منزلية.. ولم تكن به حاجة لتخيل السرعة التي احترقت بها.. لأنه لم يكد يراها.

ومع ذلك لم يلحظ أمارة واحدة على المياه من أعلى تشير إلى أن البالوعة قد تخصلت مما يعوق مرور المياه من خلالها.. وأدرك أن وجه الصعوبة في العملية حقيقي وأنه ما زال هناك المزيد.. وبدا له أن عين الشيء وقع لكل من رفيقيه فسألهما:

- ألم تهتز المياه في دوائر أمام أحدكما.. أو تتكون فقاعات ماء كبيرة؟!

أجابا معا في صوت معذب:

- لا.

- ماذا نفعل؟ بمن نستعين للمعاونة بعد الله؟ أننادي على الجن؟

أجابه أحدهما:

- استعذ بالله يا مؤمن.

- لا يأس مع الحياة.

- من قال هذه الجملة المأثورة؟

جاوبه الآخر:

- زعيم مصري.. عظيم.

صاح مغضبًا:

- شبعنا من كثرة المصريين العظماء.. وإنها لمأساة أن تكون حفيدًا لجد عظيم.

- مأساة بكل المعاني إن كنت على درجة أقل من العظمة.. أما إن كنت قزمًا أو ضعيفًا فأنت مداس جميع النعال.

- يا ساتر يا رب.

- إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.

- عند الله.. لا عند الناس.
- لنسلك البالوعات أفضل من الثرثرة.
وجاءهم للمعاونة عدد من الركاب.. ومضى وقت طويل آخر.. وأخفقت كل المحاولات سواء في إطفاء النار أو تسليك البالوعات.. وخرج بعض أفراد الطاقم من الجراج إلى السطح لينفث ما تراكم في صدره من «الهباب» والدخان.. وليلتمس القليل من الراحة بعد الجهد المضني الذي تم بذله بلا طائل، تاركين الفرصة للوافدين الجدد.. أو بمعنى أدق للركاب لإظهار مواهبهم.. وكان الركاب قد هدأوا فجأة وسكن طائرهم وساد صمت رهيب استثار جميع من بالجراج وبارحوا مواقعهم لاستطلاع الأمر. كانت دهشتهم بالغة، إذ كان السبب الذي فعل بالنفوس فعل السحر هو خروج القبطان إليهم أخيرًا.. وتحية الإسلام التي فاجأهم بها وكأنه من طول ما قبع بقمرته لم يكن على دينه.. ولكن مع هذا فإن الأمر لم يخلُ من مشاكس مثل حنفي يسأله عما يمنعه من إعلان الكارثة والبدء في عملية إنقاذ الركاب وتجنيد الطاقم كله في إخلاء «السلام» من الركاب.. وإنزال الرماثات وتوزيع سترات وأطواق النجاة، فإن هذا أهم من محاولات إخماد الحريق وإنقاذ المركب.. فأجابه وهو ينظف غليونه:
- لم يحن الوقت بعد.. وإنقاذ العبارة يعني إنقاذ الركاب.
وفي تلك الآونة هبت عليه ريح تحمل سحابة دخان من إحدى فتحات الجراج على مقاسه ومقاس من وقف بجواره من مساعديه، فغطتهم وخصتهم دون أن تمس أيًا من الركاب، فأجفل ومن معه وانسحب عائدًا إلى قمرته وهو يغمغم في خزي يدري سببه:
- لا حول ولا قوة إلا بالله..
وهلل راكب منتشيًا ومحاولا أن يشرك معه الركاب في الإيحاء بحكم ما دلت عليه تلك السحابة المباركة:

- الله أكبر.
وكان المغزى واضحًا جليًا فهلل الركاب في أثره:
- الله أكبر.
وصاح الرجل قبل أن يتوارى داخلا القمرة سائلا إياه في لهفة:
- لماذا لا ننزل نحن بعد أن ترسل إشارة استغاثة إلى جميع السفن ومراكز الإغاثة.. وتبقى أنت ورجالك في «السلام» لإنقاذه؟!
فأجابه باختصار وظهره إليه وإلى الجميع:
- سأفكر في ذلك.
- ليس لك أن تفكر في واجبك.. فالواجب شعور وضمير يأمر ويملي.
- معك حق.
سمعه والجميع يقول ذلك دون رؤيته ومن معه.. فقد حجبهم الدخان الكثيف كما حجب القمرة كلها وحدها من دون أجزاء البوكاشيو.. وكان هذا تأكيدًا للإيحاء الأول وعلامة تقول شيئًا يذهب عن الأفئدة والأنفس بعض الحزن.. ويخفف إلى حد ما الكثير من المخاوف والآلام.. وبشارة تزيد نصاعة بياض اليقين بأن الله معهم.. بأمر ملائكته بإعداد جنات تجري من تحتها الأنهار لهم.. التي سيرفلون فيها بإذن ربهم.
وساد الصمت، وبغتة دوى صوت انفجار من الجراج.. وخرج حنفي يهدئ من روع الركاب الذي شهقوا جميعًا شهقة الخوف الذي يخلع الأفئدة.. وعاودت النسوة الصراخ والأطفال البكاء وهم يلفون أذرعهم حول أمهاتهم ويتساءلون بهلع:
- سنموت.. سنموت يا ماما؟
- لا تخافوا.. لن نموت.. الشهداء في الجنة أحياء يرزقون.
- صدقت نحن قد خرجنا في سبيل الله.
- سمك القرش سيمزقنا إربا يا بابا.

- سيلفظنا.. كما لفظ الحوت سيدنا يونس.

ودوى انفجار آخر.. وتوالت الانفجارات فأسرع حنفي يوضح:

- لا أهمية لذلك.. إنها طفايات الحريق الصغيرة في بعض السيارات.

- ولماذا لم يتم استعمالها في الإطفاء وتركتموها تنفجر؟

- جلّ من لا يسهو.

- يا سلام.

- أجل والله.

obeikandl.com

- ٧ -

- هذا الولد يبكي منذ غادرنا ضبا.. يبدو أصغر من أن يدرك الفاجعة التي نحن فيها..
- إيش يبغي؟
- بوجي وطمطم..
- إيش.. إيش.. بوجي وطمطم؟
- إنه يا شيخ العرب برنامج أطفال في التليفزيون.
- سبحان الله.. له في خلقه شئون.. بقترح عليك حاجة.. إنك تغني له بوجي وطمطم حتى يكف عن البكاء الذي يوشك ينحره.

وغنت له أمه فعلا الغنوة التي يقدمون بها البرنامج ويختمونه والدموع تسح من عينيها، فسكت الصبي وراح يتسمع باهتمام وتلذذ ويوزع ابتساماته على كل من حوله، وكان لهذا بالغ الأثر في تخفيف حدة المخاوف والآلام.. غير أنه لم يدم طويلا.. وإذ بدا على الطفل أنه سيعاود البكاء وعلى بعض المحيطين به الشكوى والنواح بأقوال مثل يا للفظاعة.. ويا لتعاستنا.. وأي حظ منكود وأية ليلة سوداء.. بادرت الأم إلى احتضانه والغناء له ثانية فهجع وسكن وأسلم كل جوارحه لها وهي تبذل غاية الجهد كي تغني وتدندن الألحان له.. مع التعارض الذي لا يتاح له التعبير به عن حقيقة مشاعرها.. وانتقلت العدوى إلى بقية الأمهات اللائي راقت لهن في ما يبدو الفكرة فارتفعت أصواتهن بالغناء الرخيم

obeikandl.com

المنغم لأطفالهن.. ليكفوا عن البكاء والصراخ وتوالت استجابة الأمهات حتى ملأت أغاني الأطفال ربوع البوكاشيو.. وانقلب الحال من النقيض إلى النقيض.. وبدأ بعض الرجال يشاركون في الغناء على استحياء في أول الأمر.. ثم تشجعوا أكثر وغنوا بأصوات أكثر ارتفاعًا.

وجاء سراعًا وقت الغناء بطلاقة.. وكأن العبارة قد تحولت إلى مسرح غنائي ولعدم الاتفاق على أناشيد معينة (فكل يغني على ليلاه)، بدا الأمر وكأنه مجرد محاولات تدريب يجريها كل فرد ليختبر نفسه وكيف سيؤدي عندما ينفرج ستار المسرح ويواجه الجمهور.

ثم ما لبث أن ظهرت بعض المجموعات تشدو أنشودة واحدة.. لطغيان ضرب من ضروبها التي لا تؤدى إلا في جوقات، لا سيما تلك المعبرة عن المناسبات الشعبية الموالدية لأهل الصعيد التي جاوبهم فيها أهل بحري والعكس، فتناثرت هنا وهناك بدائع أهازيج الصباح التي تشد من أزر الزراع والصناع والطلاب، وروائع ألحان وطقاطيق المساء للأفراح والليالي الملاح.

وخرج الربان من قمرته والبوكاشيو تتأرجح ذات اليمين حتى تلقى في وهم الناظر أنها ستنقلب ويتكرر عين ما حدث ذات الشمال والقوم عنها لاهون بما هم فيه من قصف وعصف ومرح يتأرجحون معها وكأنهم سكارى.. وما هم بسكارى.. ولكن ما يشعرون به من خوف وعذاب وابتئاس (كل هذا المزيج) شديد.. وكانت أبرز أنشودة شعبية بحراوية تغنوا بها «ف إيديا المزامير وف قلبي المسامير» قابلها في الغناء الصعيدي «ضيعت مالي وأنا مالي» وغمغم الربان وهو ينقر بأضراسه الغليون الذي انزلق إلى جانب فمه:

- قد جن الركاب من فرط الذعر.

ومع أن أحدًا لم يسمع قوله فإنه بمجرد أن وقعت عليه الأبصار.. وتعلقت

به الأنفس وشخصت القلوب.. اندلعت وكأنها «حمى هذيان» أصوات أخرى مغايرة.. من عويل ونواح وصياح.. وعاد الركاب إلى سابق عهدهم من «الترح والقرح» فانقلب القبطان عائدًا وهم يجمجم:

- يعني أنا وش العكننة.. سبحان الله.

وصاح به صوت:

- يا سعادة القبطان.. هل فكرت في ما اقترحته عليك من إعلان الكارثة وتجنيد الطاقم لعمل واحد لإنقاذ الركاب؟!

ولأن مقالة القائل كانت طويلة وسيقان القبطان أطول.. فإنه لم يسمع على ما يبدو أو تظاهر بذلك وتوارى بين توسلات وضراعات ودعوات و.. لعنات.. والبوكاشيو تراقص الموج وتغني «أبوك السقا مات» و«الثعلب فات.. فات»!

* * *

ظل الأمل معقودا حتى بعد أن علت المياه في الجراج إلى ما بعد الرُكب. ولم يكن أحد يعلم الحكمة وراء الاستمرار في استعمال المياه مع عدم فاعليتها في إطفاء مثل هذا النوع من النيران التي تزداد بها اشتعالا ونهمًا لابتلاع كل ما يعترض سبيلها، التي تجد في المواد البترولية والبلاستيكية التي تدخل في تكوين كل شيء أو تنفرد في البراميل وخزانات وقود السيارات وليمة دسمة.

ولم يكن أحد يعلم أيضًا السر وراء تقاعس الربان عن إعلان الكارثة.. وإرسال إشارات الاستغاثة.. حيث في ما يبدو اكتفى بمحادثة مالك البوكاشيو ونائبه (ابنه) عن طريق الهاتف المحمول الذي حرص أيما حرص على أن يخفيه عن الأعين.. لسبب يصعب التفكير في غيره يتعلق بشدة حرصه على مشاعر أولياء نعمته في ليلة الجمعة المباركة.

فهو أقرب لأصحاب روح المزاح والدعابة من تصور أنه غباء استحكم من ثقة زائدة وتعلق بأوهام حسابات خاطئة لقوى ذاتية تلعب في منطقة الوقت المضاف الآمن بعد انتهاء الصلاحية.

ومن تصور العقلاء بأنه مجرد غفلة وسوء تقدير للموقف وعجز عن التفكير الصائب والتعلق بشماعة «ساعة القدر يعمى البصر»، كما يقول المثل الشائع؟

أم هو قرار بالانتحار اتخذه أصحاب العبارة لركابها البسطاء (الذين لا قيمة لهم) للتغطية على إهمال جسيم ارتكب عند إعدادها (لتلك الرحلة بالذات) إضافة إلى الإهمال الجسيم الأصلي الذي ارتكب عند إعدادها للإبحار.. وعند التفكير في أنها تصلح للإبحار أصلا.

من يدفع ثمن خطأ من؟

وما ذنب أرواح بريئة لأطفال وأناس بسطاء لم يكن لهم من هدف في الدنيا سوى كسب ما يقيم الأود ويحفظ البدن بعرق الجبين.. في الغربة.. ذاك الذي كان ينقلب، لوعورة المسالك، إلى دم.

لم يبق من تفسير منطقي لمماطلة الربان إلا عدم كفاية وصلاحية وسائل الإنقاذ.. أو عدم إمداد البوكاشيو بها أصلا.

ارتفع إذن منسوب المياه لدرجة لم يعد معها حنفي والقائمون بمحاولات تسليك البالوعات قادرين على دفع أداة التسليك لأنها بدائية ولأن أذرعهم ما عادت تطول فوهاتها، رغم استماتتهم في المحاولة بعزم وإصرار، فالمياه في ارتفاع مستمر، ولا أحد يجسر على إصدار أمر بالكف عن استخدامها.. وكأنها فريضة ذل على الجميع تذوقها.. ولو ارتفعت إلى الأعناق وما بعدها إلى الذقون ودخلت هويس الأفواه.

في ذلك الوقت كان الليل قد انتصف ولا وجود لمن ينصف الركاب الذين سمعوا الرعد لا يهبط عليهم من السماء بل يصعد إليهم من الموتور،

كما لو كان يعلن بنفسه ما عجز الربان عن إعلانه.. واستمرت زمجرته بضع دقائق انتاب طاقم البوكاشيو خلالها قلق واضطراب وتوتر شديد، وبدأ نفر منهم يجهز وسيلة ينجو بها بنفسه.. فليس مفروضًا على من لا جريرة له في ما وقع أن يؤثر إنقاذ الأبرياء والأطهار على نفسه وهو لا يقل عنهم براءة.. وليس على العرف والقوانين البحرية أن تلزمه بأن يكون آخر المغادرين.. ما دام هناك عطب في الذمم وانتقاص للحقوق وتجرد وانسلاخ من أبسط الواجبات وأقل الفروض.. التي يجب أن يتحلى بها الكبير موفرًا الأمن والأمان للصغير وغير القادر على حماية نفسه، ودفع من عرقه ودمه الثمن لمن عليه حمايته.

أتكون تلك أحد عيوب الرأسمالية، أم أنها ما يسمونها الرأسمالية المتوحشة؟!

وإذا كانت الاشتراكية بالتجربة المريرة ليست أقل عيوبًا.. فلماذا لا يجرب البشر «تعاونية النحل» حتى ينتجوا عسلا.. وفقط؟!

التعاون هو الحل.. والله جل قدره يحض عليه ويقول في محكم آياته: «وتعاونوا على البر والتقوى».

فكر حنفي في كل هذا.. وما أكثر ما كان يفكر.. ولعله بفكره الثاقب حدس ما ينتويه وما يفكر فيه طاقم البحارة ورجالات العمل بـ«السلام بوكاشيو».. الذين لم يكن يعوزهم إلا تحفيز قبطانهم لذلك ليكون في طليعتهم.. الذي لا يرخص له ولا يجوز أن يفكر (مجرد تفكير) في أمر إنقاذ نفسه ورجاله.. فالجميع رعاياه.. والركاب في أول مراتب الرعاية.. نعم هو واجبه أن يكون آخر فرد يغادر «السلام» الذي لا مندوحة من غرقها.. وليس له أن يفرط لمجرد أن من هم أعلى منه لم يوفروا له ولرعيته وسائل الإنقاذ والسلامة.. كما يجول بفكر رجاله الذين كانوا على أهبة الاستعداد لتنفيذ أمره هذا الذي كان – للإنصاف - في واد آخر يحسب

حسابات أخرى لا يعلم غير الله مستقرها ومرساها.

* * *

وفي الساعة الثانية عشرة تقريبًا.. اهتزت مصابيح الإضاءة اهتزازات شديدة ثم أظلمت لحظة.. ولما عادت للإضاءة.. شاهدت دنيا شعرة كبيرة ونافرة في حاجب شمس الأيمن.. وأمعنت النظر فيها هنيهة مما جعل ابنتها تتبادل مع شقيقتها قمر نظرة تساؤل وكأنها تستعين بها لتفسر لها معنى نظرة الأم.

بالطبع لم ترَ فيها غير الخوف والحنان الممزوج بالرهبة واليأس.. «تلك النظرة» من ابتلاء صعب وجد الجميع أنفسهم مكرهين على قبوله وفقط.. بل لم تخطئ عينها أن تلمح فيها معنى التأمل، وكأنها ترى في اتساق قسمات هذا الجانب من وجهها شيئًا غريبًا.. يتطلب الإصلاح من الجذور.

المشكلة في نظر الأم ليس في أن هذه الشعرة كانت نامية بقوة.. وفقط.. بل كانت بيضاء خشنة ونافرة.

وعجبت أن تظهر تلك الشعرة الشهباء وحبيبتها في أول الربيع وبينها وبين الشتاء صيف وخريف.

والأعجب أن يبدأ الشتاء بشعر الحاجب.. وهو، حسب خبرتها، آخر ما يتعرض لذلك الحريق سواء في المرأة أو الرجل.. وفي سن متأخرة جدًا.. حيث كثيرًا ما ترى العجائز والشيوخ قد ابيضت كل شعرة ظاهرة فيهم إلا شعرات الحواجب.. ربما لأنها تمثل تجميلا للعين التي نعبد بها الله دون أن نراه.. وهذا يستحق كل التقدير.

وأخيرًا حزمت الأم الحنون رأيها وفتحت دون تردد حقيبة يدها.. التي كانت إلى هذا الوقت معلقة بها وبرغمها، فقد اعتادت ذلك ولا دخل

للأحوال بها، إن كانت مواتية أو معاكسة، وأخرجت منها «ملقاطًا»، ثم اشرأبت بهامتها في جلستها ومالت على شمسها وأمسكت جانب وجهها باليد الأخرى.. وهي تقول حانية:

- لحظة.. يا شمس أرجوك.. لا تتحركي.. لحظة.

وفي سرعة ومهارة فائقتين غرست الملقاط واقتلعت الشعرة غير المرغوب فيها دون أن تمس الشعرات المجاورة المرغوبة.. تمامًا كما يفعل الفلاح الحاذق الذي ينقي محصوله من الحشائش الغريبة.. وخطر في ذهنها خاطر أمنية حياتها (وحياة كل أم) أن ترى ليلة عرس ابنتها فاغرورقت عيناها بالدموع، وحدثت نفسها بأنها تحب أن تكون ابنتها على الدوام جميلة.. طالما هي كذلك.. وفي سن الجمال.. وليس مسموحًا لمن كان جميلا أن يلاقي ربه الذي خلقه فسواه فعدله وبه ما يشوب جماله.

ولذلك لم تكتف بذلك..

بل وكأن الفكرة وجدت هوى في نفسها.. وبالطبع.. شمس لم ولن تمانع.. رغم الظروف.. أن تتفضل الأم الفنانة الخبيرة وتعالج بعض عيوب تافهة لا تذكر في انتظام باقي شعرات الحاجب.

وساقها ذلك إلى الحاجب الآخر.. وكأنها تعدها حقيقة للقاء ربها وهي جميلة، فأخرجت بقية أدوات التجميل والأقلام والفرشاة وأصابع اللون الأحمر المناسب للشفاه بدرجاته حتى الأسود، و«أحقاقًا» صغيرة للكريم ومحددات الظلال (الرميل) بجميع ألوانه.. وانشغلت إلى حد الإغراق (بمناسبة الغرق المتنمر) في تجميل شمسها الكبرى.

وما إن خالت أنها أنهت مهمتها على خير وجه.. وقد تم ذلك بسرعة على غير مألوف عادتها حتى أمكست بمرفقي ابنتها ورجعت برأسها للوراء تحدق فيها بعينيها الذهبيتين.. بتلك النظرة المتفرسة الفاتنة التي تقطر عسل الحنان الأبيض، ثم طبعت على وجنتيها قبلة.. تحولت بعدها إلى

شقيقتها الأصغر قمر، وتمتمت:

- قمر.. ما أبهاك يا قمر.. أراك عروسًا نضرة.. لكن ثمة رتوش بسيطة.

ومرة ثانية انشغلت إلى حد الإغراق في زيادة بهاء وفتنة ابنتها الثانية من الحواجب والجفون إلى الوجنتين والشفتين.. ولما فرغت وتطامنت إلى كمال ما تراه ماثلا.. فاجأتها إحدى الراكبات وكانت تجلس على مقربة منهن في طرقة فاصلة بين «الكمائن» وطلبت إليها بكل لطف ووداعة أن تجمل لها وجهها.. فقبلت بكل ترحاب، وما كادت تنتهي حتى جاءت امرأة ثانية وثالثة.. وسرت عدوى الغيرة إلى بقية النسوة في البوكاشيو وهن يتنافسن ويلقين بأنفسهن على دنيا أن تجمل وجوههن أولا.

بدا الأمر وكأنهن يلهين أنفسهن لتناسي ما هن فيه من رعب وابتئاس؛ مثل لعبة الغناء التي اشتد أوارها منذ قليل.. وأفاق الجميع من سطوتها على الواقع المرير.. وسرت همهمات ونهنهات.. وهمسات.. كلها إحساس وإعجاب وخدر من رائحة العطور والكريمات التي فاحت من حقائب الأيدي الناعمة.. واشتدت المنافسة وكأن الموقف قد تحول إلى مسابقة جمال في «بوكاشيو» عبارة «السلام».. تستعد فيها وتكرس كل امرأة أسباب الفوز بلقب ملكة البحر الأحمر.

ولم تقف المسألة عند حد هؤلاء النسوة بل (لأنها عدوى غيرة) انتقلت إلى الطرقات المجاورة والبعيدة على حد سواء.. وإلى حتى «الكمائن» المغلقة.. التي ما كان يفتحها إلا أمر مثل هذا.. وتنازعت دنيا أيد أطلت بالرءوس من فرجات الأبواب.. ومنهن السيدة نعمة التي كانت بالطبع في طليعة الفائزات باهتمام دنيا.. فدخلت بها «الكمين» هربًا من الأخريات.. وأطالت المكث والتجميل لها وابنتها.. ولم يكن ليخرجها من مهربها إلا سماعها صوت هلال (الذي كان قد فارق والده وانضم لأمه) ينتحب مستعطفًا بصورة أوجعت قلبها.. وواجهت مصيرها الذي استدرجتها

إليه الجميلات بتسليط هلال عليها لتخرج.. ولم تقوَ على إرضائهن.. وإن كانت قد بذلت قصارى جهدها.. لكن هيهات، فالعدد كبير.. وكل المخاطر باقية.. و«السلام» على حالها.. والرجال في الجراج يحاولون المستحيل برئاسة حنفي.

آه لو أن مواسير البالوعات قد نظفت مما انحشر بها وأغلقها آه.. لبزغ بصيص أمل.. ولحلم الجميع بملاقاة الفجر الباسم.. رغم أنف الرياح العاتية والأمواج العالية التي تتلاعب بالبوكاشيو تلاعب الأسود بالفريسة قبل الانقضاض عليها.. وها هو منسوب المياه يرتفع ويقطع دابر الأمل؛ ففرق التسليك لم تعد قادرة على مواصلة العمل إلا بالغطس تحت الماء. وجاءت لحظة فارقة مالت السفين إبانها على أحد جانبيها وانزلقت العربات التي احترقت عن آخرها وما عليها على هذا الجانب الذي طال أوان ميله ولم تعتدل.. أبت ألا تعتدل.. ثم أخيراً خارت قوى الموتور وتوقف وأظلمت مناطق عديدة من «السلام»، غير أن القليل من الأماكن.. ليس من بينها القمرة.. ظلت مضاءة.. لأن ماكينة واحدة من تلك القائمة بتوليد الكهرباء التي كانت تستمد العون من الموتور الذي توقف قلبه ما فتئت تعمل وتصر على القيام بواجبها.. من يديرها؟ من أين يأتيها المدد؟ لا أحد يعلم.. وتلك كانت أعجوبة.. ضاعفت جيشان الصدور وخفقان القلوب وفتحت أهوسة الأدمع في مجرى العيون.. وأطالت مط الألسن التي تدلت للنواح والصراخ.

- من ذا الذي يدير مولد الكهرباء الوحيد؟

- العفاريت.

- يا ماما.

- الله أعلم.

وهرول القبطان من قمرته.. وفقط الآن قرر أن يعلن الكارثة.. بعد فوات

الأوان.. وذهب الذي من ذهب.

إن البوكاشيو عبارة «السلام ٩٨» قد سلمت نفسها للبحر وأمرها لله.. الخالق.. البارئ.. وبدأ العد التنازلي لنزول الغاطس من «البسطة».. إلى أول درجات السلم المفضي إلى القاع.

واندفع الرجال من الجراج مذعورين للتطورات التي وقعت وتسارع إيقاعها، ولمح حنفي رهطًا كبيرًا من البحارة على السطح يدخلون مستودعًا في مقدمة «السلام» بالقرب من القمرة، وأدهشه أن يكون القبطان على رأسهم فشق طريقه إليه وسأله:

- ماذا تنوي أن تفعل يا ربان؟

فلم يجبه الرجل وتجاهله وراح ينافس بيديه وأكتافه رجاله للفوز بإحدى سترات النجاة.. ورآه حنفي يرتديها ويحكم أربطتها.. والبحارة الذين اكتملوا بضباطهم.. عن بكرة أبيهم يفعلون مثله.. ولم يكتفوا بهذا.. بل أخرجوا الرماثات التي يعرفون قطعًا أنها صالحة توطئة للفرار.. فجن جنونه إذ النقط وضعت على الحروف والمشهد أصبح واضحًا جليًا.. الربان ورجاله يهربون فمن ينظم شئون إنقاذ الركاب؟ من لهم بعد الله سبحانه؟

* * *

كانت الساعة تشير إلى الواحدة وسبع وثلاثين دقيقة في تلك الآونة، عندما تعطف الربان، قبل أن ينقطع النور من مولد الكهرباء الأخير، وأرسل رسالة استغاثة الغرق.. فتلقاها مركز الإغاثة في اسكتلندا.. ثم لم يره أحد بعد ذلك للظلام الذي أطبق على كل البوكاشيو.. وجن جنون حنفي أكثر عندما رأى البحارة يلقون بالرماثات إلى البحر، التي من الطبيعي أن تعوم حتى يأتي إليها من يفك أربطتها فتنفتح وتمتلئ بالهواء تلقائيًا وتتحول

إلى زوارق.. لكنه بدلا من ذلك رآها تغوص في الماء من بين أيدي البحارة الذين وثبوا جميعًا إليها، ومعهم الربان.. وبحنكة الخبرة أعادوها للطفو وعالجوا أمر فتحها بعصبية واضطراب أيد، فقد كانوا يسابقون الزمن ويستشعرون بشعور اللصوص وأصوات استنجاد واسترحام الركاب تصم آذانهم وتضع في أيدي وألسن بعضهم كل ما تيسر قذفه من جام الغضب واللعنات مثل:

- يا أنذال.. تتركوننا وتهربون أأنتم رجال؟ - أقسم لو نجوت لأبحث عنكم وألبسكم الطرح قبل أن أمزقكم بأسناني - والله أكبر على كل ظالم.. لنا الله يا قساة القلوب يا كفرة - وتهربون من الشهادة.. من الحياة في الجنة يا أبالسة - يا جبناء عودوا إلينا.. قوموا بواجبكم.. فينا الضعيف ومن لا يعرف العوم - الكلاب والقردة والخنازير يخجلون من خستكم وقذارتكم – الوحوش وسمك القرش أرحم منكم..

إلى آخر ما يمكن تخيله من ألفاظ مقذعة وسباب ولعنات غطت على الأنات والصرخات.. فلم يسمع كل زاعق إلا نفسه.

قد كان الربان ورجاله يسابقون الزمن إذن للنجاة بأنفسهم..

ومن شأن شدة الحرص والشعور بالاضطراب النابع من غبن الإخوة في الله والوطن والإنسانية، وبخاصة إن كانت غالبيتهم أطفالا ونساء وشيوخًا، أن تؤدي إلى العديد من الأخطاء فيغوص الزورق..

وأيضا من شأن الأعمال المتعارضة من شدة اللهفة فيفلت الحبل أو المشد من الأيدي.. فضلا عن أن بعض الرماثات كانت تتبارى في الغوص تحت الماء بمجرد اللمس.

وصرخ حنفي وهو يفكر في ذويه بهلع انخلع له فؤاده وانفطرت كبده:

- يا دنيا.. يا شمس.. يا قمر.. يا هلال الأهلة.

وتوسل إلى الربان للمرة التي لا يعرف عددها غير أنها يقينا الأخيرة، أن

يصعد وبعض رجاله لتوزيع سترات النجاة على الضعاف ما دامت لا تكفي الجميع، والإشراف على إخلاء «السلام» من الركاب، وله عليه أن ينكب والركاب على يديه ورجليه ليقبلوها، واستحلفه بأولاده عسى أن يرق فؤاده ويفيق مما يفعله بنفسه من سوء العاقبة في الآخرة والعار في الدنيا.. بيد أنه وسط الصراخ والعويل والتأوهات والأصوات المهموسة غير المفهومة التي كانت تصدر عن العباد والنيران وأمواج البحر وآلات وأضلع العبارة التي تتفكك وتتكسر بأصوات مدوية.. وهزيم الرعد.. ومكاء الريح.. تهيأ له أن الربان الهارب يتهكم عليه قائلا وهو يحث رجاله أن يسرعوا قبل أن يأتي لهم من الركاب من يفتك بهم:

- ماذا نفعل لكم والمخازن خاوية؟! هذه تراكمات سنين.. منذ توليت الحكم ورأيي فيكم أنكم لا تستحقون رعاية أي رئيس، لأنكم إن وجدتم فرصة لاغتياله لا تترددون، وأنكم تأكلون اللحم «هوبر»، وتسهرون بالليل تنجبون أطفالا، وفي النهار نوم ولا عمل، «تنتظرين المنحة يا فتحية؟».. لا منحة والاحتفال بعيد العمال سينقلب لرجال الأعمال من اليوم يا فتحية.. ها.. ها..

سأله في تلهف ويأس:

- من فتحية تلك؟ ولماذا تكره شعبك إلى هذا الحد يا عدو البشر؟!

أجاب بتباهٍ:

- أنا عنيد أحب العناد وحاصل على دكتوراه في الكِبر والعند بتقدير فرعون من جامعة صراع الحضارات.. وبكى حنفي:

- كان نفسنا تقول لنا ارفع راسك واشتغل انت مصري.. كان نفسنا تعبرنا لما نشتكي لك وتحبنا وتطبطب على ظهورنا وتهرشها.. كأب وحامي حمى وصاحب أوسمة ونجوم ونياشين في الوطنية وضربة جو.. آه نسيت مرة تانية فأنت بحري.. لا أنت جوي طيار تحب الطيران بعيدًا في الفضاء

لما شعبك على الأرض يحتاج.. والغريب إن ريسك لا يكف في جميع خطبه وتصريحاته.. عن ترديد شعار لا مساس بالفقرا ومحدودي الدخل.. وتاني يوم يملا المعتقلات ويرفع الأسعار ويفرض ضرائب ويجيب للمالية والمخازن أحرف نحاتي صخر القوانين واللصوص.. يا أخي كرهتنا أنت ورؤساؤك في حياتنا وفي كلمة مساس التي أصبحت غنوة على لسان كل بلطجي ولص من رجالكم.

ثم وقد انتابته نوبة اليتاث وهو يرى الركاب من الشباب يتواثبون إلى البحر من حوله يسترسل:

- المخازن خاوية والركاب يقفزون من المركب دون سترات نجاة إلى الهلاك والموت المؤكد.

أجابه الرجل برصانته المعهودة حتى وهو في هذا الموقف.. حسب ما تهيأ لحنفي أو توهم:

- بل معهم جواكيت نجاة والزوارق عائمة تنتظر.. الزوارق الـ«تويوتا» والـ«مرسيدس» وكافة أنواع السيارات.. أنت الوحيد المتقاعس في إنقاذ نفسك وأهلك لأنك تموت في التشهير بخلق الله الأمناء، في قنوات الرأي العام الفضائية والصحف المستقلة، وحرضت علينا وعلى الحكام، القضاء النزيه المستقل، ليصدر ضدنا أحكامًا بالتعويض لا تستطيع الخزانة العامة الوفاء بها عن مظالم ارتكبتها أنت والإرهابيون والإسلاميون والبلطجية والخارجون على القانون.

- ومن زوّر الانتخابات؟ من حرض جهاز أمن الدولة على التدخل في كل صغيرة وكبيرة ضمانًا لأمن ريسك الحاكم بأمر نفسه؟ من قتل الأبرياء في أقسام الشرطة العادية وهم يحقق معهم في اتهامات ملفقة؟ من كانت المنظمات الحكومية الأمنية الدولية ترسل إليه موقوفيها لموالاة مسلسل التحقيق معهم بتعذيبهم هربًا من نقد منظمات حقوق الإنسان؟ من لم

يحكم لحظة واحدة بغير قانون الطوارئ؟ إن بعض مقرات أمن الدولة التي تصدرت واجهة العمل العام في كل مكان كان حتى أخفتها، لها ساحات خلفية تستعمل كمقابر لمن تم إيقافه، ولا معلومات عنه لأهله منذ عشرات السنين.. من أهدر المال العام ومنح الأراضي الغالية التي حررناها بدم الشهداء والمحاكم الدولية لمن يتاجر في السوق السوداء بقوت الشعب وسكنه وعمله؟ من أوقف البنات والشباب على الأرصفة والنواصي بلا عمل أو زواج؟ من المتسبب في امتهان كرامة المصري وتدني أسعاره، دمًا وعرقًا، في كل بلدان العالم؟ من السبب في قهر الشباب على الانتحار في البحر المتوسط وهو يركب قاربًا ضعيفًا للهجرة غير الشرعية إلى أوروبا بحثًا عن عمل؟ من أفرغ مراكز البحث والجامعات، وحتى المدارس، من فرصة التعلم والارتقاء العلمي ودفع الكوادر العلمية النادرة للهجرة؟ من قزَّم ميزانية البحث والتعليم والصحة ورفع ميزانية الصرف على الأمن وتنفيذ قانون الطوارئ في السماء؟ ثم لا ملاعب في المدارس.. لا رياضة لا ثقافة حقيقية.. لا فن ولا مسرح حقيقي.. أنصاف الموهوبين اعتلوا القمة.. ولاعبو الكرة والراقصون والراقصات.. لا حدائق تتنفس فيها الرئات.. لا كلمة أحبك يا شعبي فيمنحك كل ما يملك من روحه وعقله ونفسه.. تتركنا للغرق أحياء.. أليس في قلبك ذرة رحمة؟! ألا تعرف قوانين البحر؟ تتخلى عن رعاياك.. عن واجبك.. ألم تقسم قسم الـ.. الـ..

- قسم شرف المهنة.. ها.. أي غباء.. أي غباء؟! اسمع إن تعويض شركات التأمين أفضل ألف مرة من الإنفاق عليكم للبقاء على قيد الحياة، تتحينون الفرص لاغتيال الرؤساء، وتأكلون اللحم «هوبر» وتسهرون الليل غصب عنكم تحتضنون النسمة وتغنون «زحمة يا دنيا زحمة زحمة وما عادش لحمة».. إن هي إلا عملية خف الزرع الزيادة زي ما بيحصل في الزراعة.. ألست من الفلاحين وتفهم أهمية الخف والتقليم؟ أصحاب السلام أثرياء

وسيدفعون ديتكم.. اطمئن قد اتصلت بهم تليفونيا.. هم قوم كرام.. أصحاب مروءة لا يخافون في الحق لومة لائم.. وافقوا من أجل خاطركم على دفع ديتكم.

- يا سلام..

نطقها حنفي وهو يحلم بأنه يهجم على رقبته ليخنقه.. وكاد توازنه يختل ويسقط، وليته سقط ولم يمسكه كل من علي الصعيدي ورجب البحراوي.. ثم إنه سمع أصواتًا حبيبة إلى نفسه تنادي عليه بهلع وجنون:

- حنفي.. حنفي تتركنا وحدنا.. تتركنا للموت؟

- بابا.. بابا.. الحقنا يا بابا.. سنموت يا بابا..

وتحول إليهم ليلقي نفسه عليهم ويحتويهم كلهم في أحضانه.. وكان هبوط الباخرة وميلها على درجة الغرق يتم رويدًا.. وإن كانت قد هبطت أول درجة لكنها توقفت بعض الوقت عن الهبوط إلى الدرجة التالية.. يقينا رحمة من الله بعبادة البؤساء حتى يتاح لهم بعض الوقت لتدبير أمورهم.. والنجاة بأرواحهم.. فهل يتاح لهم ما أتيح للقبطان وطاقم «السلام».. وبكى حنفي.. والجميع من حوله وهو يحتضن في عطف متناهٍ وشفقة لا حدود لها أفراد أسرته.. وسمع نهنهة ونحيب صاحبيه وهما يؤكدان له أن القبطان ورجاله هربوا بالجواكيت والرماثات التي يعرفون أنها صالحة، أما الباقي بالمخازن فقد تكسر معظمه بين أيدي الركاب؛ من طول سنين التخزين جف وتصلب.. فهي لم تكن أكثر من منظر هش لخداع الرائين، لا سيما مفتشي السلامة، وقد عمل هذا النقص المميت مع باقي النواقص (أو الزوائد التي يخشى أصحاب العبارة والعاملون عليها وجميع الرئاسات والهيئات البحرية من انكشافها وفضحها للشعب المصري والعالم) على تردد القبطان لإعلان الكارثة وإصدار الأوامر لرجاله لإنقاذ الركاب، بل وتخليه عنهم بنذالة لا مثيل لها في التاريخ.

obeikandl.com

وقد صدقت المرأة زوجة المفتش صدقت تمامًا.. لكن ماذا استفادت من صدقها وزوجها المفتش؟ وكذلك صدقت المرأة زوجة صاحبه سلامة.. آه.. ما أكثر المرشحين للغرق بالكبائن الكمائن؟ أين هو هذا الرجل وزوجته؟ هل يتأهبان للموت؟

طبعًا يموت.. أليس اسمه سلامة؟ الليلة يموت كل من يمت للسلامة بصلة، ولو غيظًا.. حتى البوكاشيو تموت لأنهم أسموها «السلام» نكاية في من يحبه.

وعندما يتذكر تزداد زوجته وفلذات أكباده التصاقًا به من الخوف، يجهش معهن بالبكاء جهشًا محزنًا ويغمغم:

- آه.. يا حبايبي.. الفراق صعب.

ويكمل له تصوير الصورة المأساوية صوت لا يعرف صاحبه على مقربة منهم وهو يسعل سعلة مخيفة من غصة في حلقه:

- وآلام الاختناق بإسفكسيا الغرق أو تمزيق وتقطيع اللحم بأنياب الفكوك المفترسة أصعب.

* * *

الظلام الرهيب.. والبرد.. وصفعات الموج الذي يرتفع كالسعالى وتركبه القطاط السود ذات الأعين التي تضيء وحدها، لأن بقية أعين الأحياء انطفأت من شدة جحوظها في محاجرها رعبًا، ولولا ذلك ما استطاعت أعين السعالى والجن منافسة النور المنبعث من عيني دنيا.. وأعين شمس وقمر وهلال الأهلة.. نور عين وحياة الأب الذي انطفأ بتفكك وتباعد لبنات جسده.. امتداد وجوده الذي لم يعد يعكس غير الهلع والضياع والفناء.. يا دنيا وزينتها شمس وقمر وهلال لن يدركوا هلال رمضان القادم، رمضان الكريم لن يعودوا لرؤيته، سيفنى من يصوم بحق وصدق

obeikandl.com

ولا يبقى غير من يصومون فقط عن الطعام والشراب مثل القبطان وطاقم أسنانه.. آه.. يقصد رجاله.. يصوم القتلة ولذا رمضان حزين لأنه لا يحب أن يغشه أحد.. فضلا عن أن القرآن نزل فيه.. وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.. والملائكة تنزل والروح فيها.. بإذن ربهم من كل أمر.. سلام هي آه.. يفنى ابن آدم ويبقى السلام، لكن لا تبقى «بوكاشيو السلام»، فـ«سلام البكش» لا يدوم أبدًا.. ولكن ما هذا؟ ماذا يرى؟ ماذا يرى يا جميع البؤساء الأفاضل؟ نور هائل يسطع تحت الماء؟ نور أبيض كهرماني فيروزي.. يصعد من قاع البحر القاسي؟! الرحمة تنبثق من القسوة؟! ولم لا؟! إن مع العسر يسرًا.. الأفق البعيد.. النور عنده.. خط الأفق يضيء كله.. اقترب يا نورا من بعض نور الله.. إن أول طلائع الخير عصافير الجنة تنتظر قدوم الشهداء.. أهذا هو الموت؟ ما أجمله ومرحى به.. مرحى بأول الغيث والرحمة.. من الجنة لشهداء عطشى.. جوعى.. غرقى.. أحياء لم يموتوا.

وهبطت المركب الدرجة الثالثة.. درجة الغرق.

كانت هذه آخر درجات السلم.. الدرجة الحاسمة التي أصبح الغاطس عندها كاملا.. لم تقف عنده لحظة واحدة تردد أنا «علي السكران» ما ألبث بعد أن وقعت على جانبي أن أعتدل كرة أخرى، لأنها هذه المرة لم تكن تلعب، وإنما وقعت وقعة الطائر الذبيح الذي نحره صاحبه ليأكله ويترزق من ورائه، ثم غارت في الأعماق.. ولم يظهر منها شيء يدل عليها ولا حتى الصاري.

مرة واحدة.. لحظة واحدة سكت الكلام وحلت حقيقة السلام.. وتكلم الصمت الرهيب.. الأخاذ.. المطبق.. تكلم وحده.. لا.. كانت معه أصوات اختنقت حناجر مطلقيها في بهيم الظلام الداكن الأسود الغطيس.. ارتفعت أصوات تنافس السكون القابض الذي ران على سطح الماء..

السكون الزاعق.. المرعب.. مرة واحدة.. لا صراخ.. لا عجيج.. لا آهات.. هناك بشر.. حقًا.. لكن لا صوت يعلو فوق صوت الأمواج.. الغاضبة.. وبعض الحيوانات البحرية التي يخشى الإنسان من ذكر اسمها، ولا يراها إلا في الكوابيس أو في سلسلة أفلام «الفك المفترس».

أما هؤلاء العائمين الذين يجارون المثل القائل: «أعطني عمرًا وارمني في البحر»، فقد كانوا بلا صوت.

أضغاث أحلام.. هؤلاء الحيوانات الإنسانية آكلة اللحم «هوبر».. كانوا بلا صوت.

النيران التي حاولوا إطفاءها والتي ثابر بعضهم عليها حتى لم يتمكنوا من الصعود إلى الأسطح العليا.. قبل الانغماس.. كانت تقرقع تحت الماء وتحيل ظلامه نورا في دعة وهدوء.. فالهدوء كرامة الحياة الآن ولا صوت يعلو عليه ولا صوت لهؤلاء الذين كانوا نائمين في الكبائن «الكمائن»، وكل الذي حدث أنهم واصلوا النوم بلا صوت.

ودون ذكر أسماء - لا صوت - والمياه تثب عليهم وتحاصرهم من الأركان الأربعة كافة.. ومن الركن الخامس والسادس.. هذا الذي في الأعلى.. وذاك الذي في الأسفل.. ليس محسوبًا بلا صوت.

كثيرون هم من غافلناهم أو نسيناهم.. هم الآن يختنقون لكن لا يموتون.. وقد لاحت البشرى عند الأفق ورآها الأحياء على مقربة منهم دون صوت.

القمر الفردوسي المضيء تحت البحر بنور الجنة الذي ينهل بقعة من نور الله سبحانه فهو من بعضه.. النور الغامر.. الشفيف.. العفيف.. الذي يزيده فيروز الفردوس تألقًا.. يراه هو.. ويراه الصحاب بالقرب منه دون صوت.

وكثيرون غيرهم على سطح المياه يصارعون أمواج البحر العاتية في رعب هائل من الغرق وبرودة تجمد الأطراف والجسد كله.. يرون ظلمة حالكة

ونورًا ساطعًا في ذات الوقت دون صوت.

رباه.. يا رب العالمين.. يا مجيب السائلين.. يا قريب.. أجب دعواتهم.. دعوات زوجته وابنته وابنه؛ شمس وقمر.. وهلال.. آه.. لا بد أنه على صدر أمه.. في أحب وأفضل مكان إلى قلبه يتنفس في صعوبة، أو فقد أنفاسه، ولكن.. دون صوت.. فأين هم جميعًا؟ لا يرى ممن يعرف غير رفيقيه في الغربة.. والشاب الشيخ وزوجته الخفير.. وقد أمسك كلاهما بيد الآخر وتقارب وجهاهما وكأنهما على وشك إتيان فعل تنتهي به الأفلام العربية، في تقليدها لأفلام أجنبية، دون صوت.

الركاب بالمئات على صدر الماء ولم يأت أحد لنجدتهم، يغالبون جبال الموج.. بعضهم يغرق بيد أنه لا يموت، يرون جنتهم بأعين شاخصة على النور.. كرة النور المتلألئة تحت سطح الماء في سكون الأبدية واللانهائية.. بلا أدنى صوت.

رباه بعضهم يتبادل كلمات جميلة.. رقيقة.. فبداخلهم جمال وكمال.. ما أبدع هذا.. إنه أريج عطر أيضًا.. يفغم الخياشيم.. يصب وصفه.. لا توجد كلمات مناسبة في أية لغة، ولا في اللغة العربية، تصف عبقه.. رباه.. ما هذا الصفاء؟! ما هذا النقاء الذي يراه.. في موج هذه المياه.. الكثيرة حقًا.. لكنها آمنة.. رقراقة هنا.. يرى فيها وجهه.. آه.. ها قد عرف العطر.. ريحان ريحان.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ لا.. إنه مسك.. كلا هو عنبر من كبد الحوت؛ فنحن بالبحر.. قد عرف الطالب والمطلوب دون صوت.

آه.. ماذا يسمع؟ هناك من تقول ضع يدك حول عنقي يا صغيري.. يا أحب يد يا أطهر أنامل.. انظر ماذا أرى.. أولادًا وبنات صغارًا يغردون كالعصافير يطيرون كالفراشات بأجنحة خضر تضيء فوقنا.. انظر.. مد يديك.. إنها تدنو منك.. أترى؟ إنها تحمل قناديل خضراء تبعث أضواء أشد اخضرارًا.. كأنها فوانيس رمضان.. مد يديك يا صغيري.. خذ فانوسًا منها يضيء

حياتك الباقية.. بحرك.. وإلا ظنوا أن من كان على شاكلتنا يعاني آلاما لا تخطر على بال بشر.. ليس في مقدوره أن يشعر وأن يبدي ويهدي غيره أحاسيس جميلة من فرط ما عُذب وتألم.. خذ.. خذ حظك ونصيبك.. آه يا قساة القلوب.. ها أنتم تأخذون بيدي.. يا بؤساء وتظنون أنني أموت.. هاكم يد تستحق أن تأخذوها.. بالله عليكم.. يد ابني الصغير.. يا من وفقكم الله في العثور على أحد الزوارق التي أسقطها القبطان ورجاله.. خذوا يدا أولى مني.. يد الضعيف الذي يوشك على الغرق.. الذي تيتم الآن فقط بعد فقد والده.. أنا أمه الشقية.. بالله عليكم.. أنقذوه.. كما أنقذتموني.. ارحموه.. إنه يغطس الآن.. يطفو ويغطس.. يطفو ثانية.. بالله عليكم.. ارحموا صغيرًا يرحم الله صغاركم.. ارحموه من آلام يتنفس بها بدل الهواء ماء مالحًا ثقيلا.. ارحموه من أفظع وأقسى آلام.. أنقذوا ابني الصغير وارحموني.. ارحموا دموعي وتصدع فؤادي حزنًا عليه.. يا للصغير المسكين.. غطس لآخر مرة.. لا والله ليس صحيحًا هذا المثل الذي يقول: «إن جاءك الطوفان فضع ابنك تحت رجليك» دون صوت.. لا أحد يقدر يطفئ النار التي تسري في أوصالي وخلايا جسدي وقلبي ولا حتى هذا البحر الغول.. وفي طرف قصي من المغرق شاب يزعق:

- آه يا راكب الزورق.. يابو عقال.. أنت مدين لي باعتذار لنعتك إياي أبو بيضة في مبدأ القصة، وأحيانا علي عوض.. أنا أخ مسلم مسكين جئت بلدك غريبًا أو عابر سبيل أبحث عن الرزق الطيب واللقمة الحلال، لم أفكر يومًا أن تكون هذه نهايتي.. وبدلا من أن أحمل لأولادي وزوجتي الهدايا أعود إليهم محمولا على نقالة.. بلا هدايا.. هذا.. إن عدت جثة.. فكل الهدايا والمشتريات الجميلة والنقود غرقت.. آه.. أنا أرى بعضها يطفو هناك.. أليست تلك حقيبتي.. لم لا أسبح إليها وأضمها إلى صدري وأجلعها تحملني اليوم فطوال عمري أحملها؟! آه.. تتبسم ضاحكًا..

حسنًا.. تقول إنها بسمتي الأخيرة لأدعك تصورها.. آه والله فكرة.. آخر صورة لزوجتي وأولادي يصورها هاتفك المحمول الذي، لحسن الحظ، لم يغرق، وأنا أبتسم.. صورة للشهرة في صفحة الحوادث قبل فقد آخر نفس.. وداعًا لابتسامة لم تؤهل صاحبها لأن يجد مكانًا للحياة بينكم.. وداعًا جميلا من جميل يرى الوجود جميلا يا شاعر فلسفة الحياة.. أقنعت الآن بالوداع دون صوت.

وبجوار مئات الأجساد الطافية يحتج رجل يهتف مستنكرًا:

- أنا لم أخرق السفينة.. قد خرقها هذا الرجل الطيب.. لينقذ أهلها من الحياة التي تغص بالكثير من الأوغاد.. نعم.. الموت ينتقي أطيب الناس، فهذه الحياة غير صالحة لهم.. أوه.. أحمد الله أنني أديت فريضة الحج.. صحيح ارتكبت مخالفة «الزوغان» بعيدًا عن أعين الشرطة السعودية بالاختباء عند قريب لي.. لكن هناك من أعرف أنه اختبأ عند بعض السعوديين الطيبين من أهل البادية.. وظهروا أيام الحج المعدودات فقط.. إنهم كانوا على السطح مثلي ولذلك لم يموتوا بعد.. يصارعون الموج.. وقد تكتب لي ولهم السلامة وتكون بشرى من الله لحج مبرور وذنب مغفور.. بما في ذلك ذنب مخالفة أولي الأمر دون صوت.

وغير بعيد عنه وعن العديد من الأجساد الطافية الحية يسمع هذا الأب يناشد زوجته قائلا:

- يا زوجتي العزيزة معنا سترة نجاة واحدة ونحن أربعة؛ أنا وأنت والرضيع الذي يتعلق بصدرك مربوطًا بحزام سروالي.. ورأسه يناطح رأسك إذا ما غمرتكما موجة عالية.. وابننا الثاني أكبر.. ست سنوات.. أحمله أنا يا زوجتي الحبيبة.. أنا وأنت نعرف العوم لأننا من أبناء الريف.. وقد نظل عالقين في الماء يضربنا الموج وينخر عظامنا البرد القارس في الماء حول أبداننا وفي الهواء حول رءوسنا.. وهذا الظلام الذي لم أرَ في حياتي

أشد سوادًا منه إلا لون شعرك.. إلى أن يأتي من ينفذنا.. إن الولد ثقيل علي وقد ينفلت.. ما رأيك لو أعطيناه سترة النجاة تلك الطافية فوق الماء وتقترب حثيثًا منا.. إنها عطية الله لإنقاذه.. ونحن وحظنا.. قد يأتي إلينا أحد وقد لا يأتي.. لا تبكِ يا بني الحبيب.. هذا أكثر ضمانًا لنجاتك يا أحب الناس.. دموعك هذه غالية.. خذ هذه سترة نجاة. لا تخف إنها جاكيت.. ارفع ذراعيك.. اصبر لحظة.. نعم هكذا أنت ولد بار.. ولد طيب.. لا تخف ليس معنى ذلك أن نتركك وحيدًا في الظلمة والبحر.. ستبقى معنا.. ولكنك الوحيد الذي يرتدي سترة نجاة.. نعم ستبقى معنا ولا تخف.. لن ينفرد بك وحش.. الله معنا يا بني.. فلا تخف ولا تحزن.. مد إلي يدك دون صوت.

وعلى بعد عدة أذرع منهم رجل يرفع رأسه إلى السماء شاكرًا.. ويتمتم قائلا:

- قد منَّ الله علي بلبس جاكيت نجاة.. تنازل عنه راكب طيب.. أسعده حظه أن يقع في يديه صدفه سترتان.. لكن اللهم يا رب العالمين قوِ أجسامنا على تحمل الجوع والعطش والتعب وزمهرير البرد.. وصفعات الموج والرفع والحط.. أبعد عنا الحيوانات البحرية المتوحشة.. وبالذات سمك القرش.. آه ما أصعب القرش في البر والبحر.. كنت في حياتي دائما أكره المدرسة في صغري وذل القرش في كبري.. «آه ياني».. ما هذا.. يا رب ارحمني هناك من يدغدغ أصابع قدمي.. يا رب.. كأن سمكة قرش تفكر أن تقضمني من أسفل.. ارحمني يا رب.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.. يا رب ارحمني.. «آه ياني».. ما هذا.. إنه مجرد ثوب أحد الغرقى تمزق عن بدنه التعس.. وهل القرش لعبة؟! إنه لا يدغدغ ولا يقضم.. إنه يبتلع دون صوت.

وقيل إنه أمكن تسجيل نماذج من مكالمات هاتفية بالصوت والصورة

obeikandi.com

بـ«المحاميل» التي كانت بأيدي سعداء الحظ ركاب زوارق النجاة لبعض الضحايا مع ذويهم على البر قبل الغرق.. وكذلك مما تبادله الأقارب في البحر الذين لا يعرفون السباحة أو خارت قواهم من فرط ما جاهدوا الموج للبقاء على قيد الحياة واستسلموا للغرق مثل:

- وداعًا زوجتي الحبيبة.. حياتنا الباقية في الجنة - وداعًا يا حبيب قلبي.. ولا تنظر إلى حور العين - وداعًا بابا.. ولا تترك ماما.. سنعيش معا جميعا أسرة واحدة في الجنة - وداعًا يا بني.. موعدنا الجنة - وداعا يا ست الحبايب.. سأفتقد أحضانك وقبلاتك حتى نلتقي في الجنة - وداعًا يا صاحبي.. آخر مرة تسمع صوتي.. أراك على خير في جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين - وداعًا يا جدي.. لم أكن أتصور أن نموت معا - إيش.. إيش.. الوداع.. إلا - وداعًا يا جدتي.. ادخري دموعك - وداعًا يا حبيبتي.. نتقابل في الجنة.. لم نكد نفرح بالزواج - وداعًا يا صغيري.. نحن لا نموت.. مجرد سفر للجنة.. نفترق على ابتسامة - وداعا يا خالة.. أي نعم مجرد سفر.. أي نعم ابتسامة.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٨ -

على الناحية الأخرى من البحر حيث المسافة أكبر قليلا من المسافة التي تفصل «بوكاشيو السلام» عن الميناء الذي أقلعت منه.. كانت عبارة «سانت كاترين» قد أقلعت في تمام الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة من صباح الجمعة الحزين.. بل الأكثر حزنا من بين جميع الجمعات على مر الدهور.. الثالث من فبراير عام ٢٠٠٦ تحمل ركابًا في طريقهم إلى السعودية بقيادة قبطان يعرف باسم جمعة هو الآخر.. وعلى الخط الملاحي ذاته الذي كانت السفينة المنكوبة «بوكاشيو السلام ٩٨» عليه قبل أن تغرق.

كان ذلك الربان يعلم أن الموعد المحدد لوصول «السلام» المنكوبة إلى ميناء سفاجا يتفق وموعد مغادرة سفينته لذلك الميناء؛ كما أسلفنا القول.. وأن سلطات الميناء ومكتب الشركة هناك حاولوا الاتصال بالبوكاشيو عدة مرات ولكنها لم تجب نداءاتهم، فطلبوا منه استطلاع أمر السفينة في أثناء سيره ومواصلة النداء عليها.

وعندما اقترب من مكان الحادث (المغرق) في نحو السادسة والدقيقة السابعة والخمسين من صباح الجمعة رد عليه ضابطها الثاني قائلا:

- أنا أتحدث إليك من فوق قارب نجاة.. «بوكاشيو السلام».. البقية في حياتك.. «غرقت وشبعت غرق».

سأله جزعًا ومأخوذًا:

- متى كان ذلك؟! لا حول ولا قوة إلا بالله.
أجاب برباطة جأش:
- الساعة الثانية صباحًا تقريبًا.
عاد لسؤاله بعين اللهجة:
- أين غرقت؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.
أجابه بنفس الثبات بلغة يفهمها كل منهما:
- في موقع ٢٧٠٨ شمالا.. ٣٤٥٤ شرقًا.. أنا على مقربة من الموقع.. ولكن في قارب يتلاعب به الموج أرجوك أن تأتي لانتشالي ومن معي من البحارة.. نحن زملاء ومن واجبك أن تنشط لإنقاذ زملائك.. ومن أمكنك من ركاب «السلام» عليها رحمة الله.
- آه.. سأفكر في الأمر.
- وهل هذا الأمر يحتمل التفكير.. تعال يا رجل بلا تفكير.. طمئنني ماذا أنت فاعل؟
- أخ.. سأقوم على الفور بإخطار مكتب الشركة بسفاجا والقاهرة بالحادث عن طريق التليفون.
- هذا حسن.
- كما سأخطر ميناء ضبا.. وأبعث إشارة استغاثة إلى جميع السفن الموجودة بالمنطقة على قناة ١٦ الخاصة بالسفن.. أنا أعلم أن جهاز الاستغاثة الآلي بالسفينة لا بد أنه عند غرقها قد انفصل عنها تلقائيًا وأطلق إشارة استغاثة تحمل رقمًا خاصا بالسفينة، لكني سأقوم بعمل هذا الإخطار على سبيل الاحتياط، فقد يكون ثمة شيء عطّل الجهاز عند الانفصال.
- على فكرة أعتقد أن مركز تلقي إشارات الاستغاثة بمقاطعة اسكتلندا بالمملكة المتحدة التقط الإشارة.. فقد هاتفني صديق لي يعمل هناك

وأخبرني.. أتصدق؟ متى حدث ذلك؟!
- أصدق.. قل.. خلصني.. لا تزد شوقي.
- قال إنه ذلك كان في تمام الساعة الحادية عشرة وسبعة وثلاثين دقيقة من مساء الخميس ٢٠٠٦/٢/٢ بتوقيت جرينتش العالمي، وكما تعلم هذه الساعة توافق الواحدة والدقيقة السابعة والثلاثين من صباح الجمعة ٢٠٠٦/٢/٣ بتوقيت القاهرة.. وقال إن مسئولي الاتصال استظهروا من الإشارة أن الاستغاثة صادرة عن جهاز «الايبرب» لسفينة بنمية الجنسية تحمل اسم «بوكاشيو السلام ٩٨».. فقام الجهاز بإرسال الإشارة ذاتها وبيان العبارة إلى مركز مراقبة المهمات الأمريكي بالولايات المتحدة الأمريكية الذي نقلها بدوره إلى هيئة الملاحة البحرية المدنية في دولة بنما.
- كان من واجب الهيئة البنمية أن تخطر الشركة التي تتبعها السفين المنكوبة بإشارة الاستغاثة.. فهل قامت؟ سألت صاحبك عن ذلك؟
- الثابت كما أكد لي أن جهاز تلقي إشارة الاستغاثة ببريطانيا تلقى إشارة أخرى من جهاز الاستغاثة الآلي للسفينة المنكوبة.. بعد تحديد مكان غرقها.. طبقًا لما هو متعارف عليه دوليًا من إحداثيات تلاقي خطوط الطول والعرض الجغرافية كما تعلم.. وأرسل ذلك الجهاز البريطاني إشارة إلى نظيره الفرنسي.. لأنه بان من إشارة جهاز الاستغاثة أن الحادث وقع في منطقة الشرق الأوسط وفي منطقة البحث والإنقاذ المصرية التي تختص دولة فرنسا بمراقبة شئون الإغاثة فيها.
- ونحن ماذا تلقينا؟ تلقينا الرعد في آذننا.
- أصبر علي.. قاربت أن أنتهي.
- قول خلصني في صباحك اللي زي وشك.
- متشكر.. قام الجهاز الفرنسي بدوره بنقل الإشارة إلى الجهاز المختص بالإغاثة في دولة الجزائر.

- كفاك.. يمكنني أن أعرف ما حدث بعد ذلك.. أرسل الجهاز الجزائري الإشارة ذاتها التي تفيد غرق السفينة إلى الجهاز المماثل في مركز البحث والإنقاذ المصري.

- نعم الساعة الثالثة وتسع دقائق من صباح اليوم الجمعة ٢٠٠٦/٢/٣، وشهد على ذلك سجل جهاز الشركة الوطنية المصرية للملاحة الجوية.. حيث سجل وصول أربع رسائل تالية للرسالة الأولى.. وصلت جميعها قبل الساعة السادسة وثلاث دقائق بتوقيت القاهرة.

- أنت جن مصور.. كيف توصلت إلى كل تلك المعلومات بكل تلك الدقة والسرعة؟!

- عملي.

- عملك أسود ومهبب.. ألك عين تتفاخر بعملك بعد أن أغرقت العبارة؟! سلام.

- سلام ولكن إلى حين مجيئك لانتشالي ومن معي.. وانتشال بعض الغرقى المساكين؟

* * *

أقلق صوت ارتطام «بوكاشيو السلام ٩٨» بقاع البحر وأصوات حشرجة أنفاس المئات من الركاب الذين حوصروا داخلها وهم يجودون بآخر هذه الأنفاس راحة ومنام سكانه.. الذين وُجدوا بمنطقة الغرق فتجمعت أعداد غفيرة منهم وجلسوا على ذيولهم فوق الماء ينظرون إلى الأرواح التي غادرت جثث أصحابها وطفت بأعداد كبيرة على سطح الماء الذي هدأت ثائرة أمواجه إلى حد كبير وراحت تعلو وتهبط بحنان ونعومة على من قضى نحبه، غير عابئة بالريح التي تغير حالها، فأصبحت هي الأخرى نسيمًا سجسجًا منعشًا لمن ينتظر وكأنها تعتذر عما بدر منها

لهؤلاء الذين صار الظلام الدامس لا يرهبهم.. ولا برودة الماء المثلج تؤثر في جلودهم.. خط الإحساس والدفاع الأول الذي خار وتهدم أو في سبيله.. ولا يعبأون بالفارق بين الحياة والموت، وغير مجد في عقولهم ووجدانهم البكاء والنواح أو الشدو والترنم.. ولا تلك المخلوقات البحرية التي تتطلع إليهم دون أن تجسر على الاقتراب منهم فقد كانت وليمة الطعام كبيرة على هذه المخلوقات لدرجة أصيبت معها - فيما يبدو - بالخوف من أن تكون هذه إحدى ألاعيب بني آدم لصيدهم بما يعرفون عنهم من الدهاء والمكر وابتداع الحيل المبتكرة للإيقاع بهم في شباكهم بكل سهولة.

ولذلك وجب عليها، حفاظًا على حياتها، أن تجلس على مسافة كافية منها تراقبها وتتبادل مع تلك الأرواح التي جلست فوق أجسامها الطافية بلا حراك قبالتها تتنمر بنظرات ليس مهما أن يكون لها معنى بقدر أهمية أن تتأكد أنها لن تنصب الفخاخ بهذا التظاهر الثعلبي الماكر بالموت.. وإلا إذا كان موتًا حقيقيًا فلماذا تتمسك بها؟ ولماذا لم تحلق في السماء بعيدًا عنها إلى حيث الحياة الأخرى في دار البقاء والخلد؟

ألم تكن تلك الأجساد معتقلا لها تحررت منه لتوها؟!

أليس من قبيل سوء التصرف بل الغباء ألا يبتعد السجين عن سجنه بكل ما أوتي من قوة توقيًا لأي احتمال يعيده ثانية إلى هذه الزنزانات التي من الطبيعي أن تنتشر الروائح غير الطيبة داخلها.. من بقايا سوء الهضم والصرف، ومن كثرة ما تراكم في الصدور والرئات من القطران وهباب الدخان، سواء من التدخين الإيجابي أو السلبي، أو من عادم شكمانات السيارات ومداخن المصانع والحرائق التي تنشب من فعل فاعل أو غير فاعل في البر والبحر.

ولكن.. إلام تتمسك تلك الأرواح بهذه الأجساد إلى هذا الحد.. ولم طالت عليها جلستها؟

أهي تنتظر تصريحًا بالسفر؟!

وعلام تلك الفرحة وهذا البِشر الذي يطفر من أعينها وهي تنظر إلينا.. علام؟!

لا بد أن في هذه الأجسام الساكنة بلا حراك ما يجذبها إليها.. فهي ليست جثثًا كما تبدو.. لم ينل البلل والماء أقوى مخلوقات الله من نظرتها ونضرتها ومتانة جلودها شيئًا.. إن خلاياها حية ورائحتها زكية.. هناك سر غامض وراءها.

وهذا الضوء الوهاج الذي بارحت كرته الفيروزية مكانها عند خط الأفق وطفق يدنو منها محيلا ظلام الليل الحالك إلى نهار باسم لا يماثله إلا نهار الجنة، لأقوى دليل على أن تلك الأجساد الطافية حية وأنها لن تلبث أن تعتدل جالسة وتجذب شباك الصيد إليها.

إن الرءوس السود والبيض التي تجلس فوق الماء تتطلع إلينا بهلع مصطنع بينما خبأت بقية جسومها في الماء لدليل قاطع على ذلك.

إنها تتظاهر بأنها فقدت النطق والقوة والعزم، وأنها على شفا الرحيل من انهيار بعد هذا المجهود الجبار الذي صارعت فيه ثيران الموج الناطحة طوال ساعات مضت دقائقها طويلة بطيئة لا تكاد تتحرك في أخريات الليل.. وراح هؤلاء التعساء يندبون حظهم ويدعون الله أن يمن عليهم بنعمة الموت فهي أرحم مما يلاقونه من عذاب الجوع والعطش والبرد والخوف مما يخبئه البحر من مخلوقات متوحشة (هي نحن) تعتبر لحم البشر طبق التورتة والحلوى والفاكهة.

أنحن مخلوقات متوحشة أم أنتم أيها الثعالب الماكرة التي تخدعنا بتلك الجثث الحية؟

إنا ها هنا جالسون ولن ندنو منكم حتى تفقدوا الأمل وتضيقون ذرعًا وتضطرون للظهور لنا بوجوهكم الحقيقية.

ثم إن بعضكم أسفر عن وجهه الحقيقي فعلا بركوب ظهور زواحف مطاطة منفوخة على صدر الماء وهم جالسون في صمت وذهول عما حولهم كأن على رءوسهم النورس!

إن هؤلاء بعض منكم لكنهم أكثر صراحة وسفورًا، ولا يختبئون لنا في الماء تغطس بعض رءوسهم فيه لتطل علينا بين لحظة وأخرى!

إن بعضكم أطال أمد غطس رأسه تحت الماء إلى حد أننا نشك في أن يكون ما زال حيًا!

لكننا لن تنطلي علينا تلك الحيلة وسنظل على حذرنا.. لن نقترب منكم أيتها المخلوقات التي تدعي الوداعة وركوب «فلايك» السلام وهي متنمرة لا تعرف معنى السلام!

تبعثون إلينا جثثا لشيوخ وعجائز أبلى الدهر أبدانهم.. ولنساء جميلات وفتيات أطهر وأطيب رائحة من ماء الورد.. وأطفال ورضع أزكى أريجًا من ماء الزهر.. حسنًا نحن نرتاب في أنهم موتى فأرواحهم تجلس عليهم تأبى أن تفارقهم هي لعبة فيها سر.. فعما قليل تلبس الأرواح جثثها وتنقض علينا.

عجائز ونساء وفتيات وأطفال ورضع.. ثمرات أفئدة هوت.. لكنهم من بني الإنسان الغرور الذي أصبح ينافس شياطين الجن.. وما هذا الضوء الأخضر الباهر إلا «بيوجاز فضلة خيرهم» ينطلق من غواصة على شكل قمر صناعي يعمل تحت الماء ويحول الليل السرمدي إلى نهار ربيعي كنهار الجنة.

أجل.. أجل لن تخدعنا تلك الأعين الزجاجية الصافية الأعمق من البحر المفتوحة في اتجاه ثابت لا تغيره صوب الكعبة بيت الله في أم القرى والمدن.. كلا ولا تلك الفكوك السفلى التي ارتخت شأن أعضاء الأجساد كافة.. سكوت القلوب.. توقف النبض.. وبرودة الأجسام وانحراف أرنبات

الأنوف ناحية القبلة لن تخدعنا.
وتلك السيقان التي تلتف إحداها على الأخرى كانت هوايتهم في المجالس المحلية.
وتلك البؤرة بين جمجمة الرأس وباقي الوجه.. في كل منهم.. لن تعمى أعيننا عن رؤية الحقيقة.. فهؤلاء أحياء.
أحياء (لكن بعيدًا عن هنا على غير ظننا) عند ربهم يرزقون.. فرحين بما آتاهم ربهم من خير الجنة الوفير ورزقها العميم.. أولئك الذين اغتربوا للحصول عليه وهم «أموات» في الدنيا.. ها هم لم تكتب لهم العودة إلى ذويهم بعد رحلة كفاح مريرة لكي يعيشوا معهم يقتسمون الثمرة الحلال لكفاحهم.. ها هم قد لاقوا (من وجهة نظر هؤلاء الأهل) مصيرهم المشئوم.. غرقى في أعماق مياه البحر.. طُعمًا لنا نحن الأسماك المتوحشة.. وإكرامًا من الخالق الذي أتاح لنا.. كبقية بني الحيوان.. رؤية ما لا يراه بني الإنسان.. فنحن نحفظ السر.

* * *

أنا حجر في قاع البحر.. أنا هنا منذ سنوات لا حصر لها ولا عد.. أنا أقدم مخلوقات الله سبحانه في هذا البحر الذي لم أعد أجد راحتي فيه.. فمن جاء بهذا المخلوق الكبير ليقطن القاع بجواري؟! لم يكن ينقصنا إلا سكان جدد داخل تابوت كبير تنجذب إليه مختلف طوائف الوحوش فيتخذونه وكرًا للفساد.. إنهم يأتون من حيث لا أدري ويدخلون يغيبون طويلا لدرجة أتوهم معها أنهم لن يخرجوا ثانية، وكأن بالداخل ما يغريهم بجنون لإطالة البقاء الذي يبلغ حد السكن.. هناك.
لم يكن ينقصني إلا الذين لا يكفون عن التهام كل ما يقابلهم من مخلوقات أضعف منهم.. هؤلاء الذين إذا لم يجدوا فرائسهم يتقاتلون إلى

أن يخر أحدهم تعبًا فينقضون عليه ويأكلونه.
يقلدون بعض أناس على الأرض..
يلتهم الكبير منهم الصغير بعد أن يضع الحجج والأعذار التي تبرر له ذلك.. بل التي تمنحه هذا الحق.. وإذا ضاقت به السبل يتشدق بالقول: «الضرورات تبيح المحظورات».
قد أرسلت رسالة لأخ لي في بلد جميل كله جبال معشوشبة وأزهار منها (من يتبع الشم) وشجيرات وقرود وغزلان وفيلة وزرافات.. وأهم من ذلك كله نهر يجري من الجنة فياضًا عذبًا بالمياه طوال السنة.. ولما تأخر علي في الرد بعثت له رسالة ثانية أستعجله مع قطرة من بخار الماء الذي يتصاعد من البحر ويتجمع في قوافل على هيئة سحب ليسافر بعيدًا حتى يجد أرضًا مناسبة ومستقرًا فيسقط عليها بأمر الله.. فلم يرد أيضًا، وساورتني وساوس قضت مضجعي.. خوفًا من أن يكون هذا الأخ فقد حريته حالما رآه أحد هؤلاء الذين يظنون أن الله لم يخلق للأرض غيرهم، فالتقطه كأنه لا أهل ولا صاحب له ودفنه حيًا بجوار جميع الأحجار التي رصها بجوار بعضها، ثم صنع منها صفوفًا، وبعد أن أهال عليها الرمل والزلط وهذا التراب اللاصق.. لم يكتفِ.. أخذ يغرس في أعينها وآذانها وجميع فتحاتها أسياخ الحديد.. آه هذا التراب الخائن الذي كان حجرًا في يوم ما.
ثم بعد البناء صرخ وقال:
- يا أرض انهدي ما عليكِ قدي.
نعم خشيت أن يكون قد اعتقل في هذا البناء الضخم الذي يناطح السحاب.
أنا شخصيًا أعلم ما يدور داخل السجون من إهدار لكرامة خلق الله.. لا في هذا العصر فقط، بل في كل العصور.
وأنا شخصيًا وقع لي يومًا مثل هذا الطالع السيئ.. منذ آلاف السنين..

obeikandl.com

كانوا ينقلون ذوي قرباي وأقراني داخل مخلوقات تماثل ذاك الذي حط بجواري، لكن أقل منه حجمًا، كنت أيامها أقطن منحدرًا على ضفاف نهر النيل أوصله أحد الفراعنة بقناة بهذا البحر، ووجدتني في النهاية أدفن مع بعض أقاربي في رأس مقبرة كبرى رباعية الأوجه المثلثة وفوجئنا بميت عظيم يدفن اسمه من الخوف، وأخذتنا الدهشة وتساءلنا: غرفة واحدة سرية في كل هذا البناء المليء بالأحاجي والأسرار من أجل سكن جثة؟! وزاد الطين بلة؛ فإن القوم لم يقنعوا، وشيدوا مقبرتين أخريين على نفس الشاكلة الرباعية المثلثة التي تتوغل في الفضاء، وأخفوا بإحداهما ميتًا واحدًا اسمه «خف.. رع»، وبالأخرى آخر اسمه «من.. قرع»، في غرفة وحيدة سرية يحتضنها البناء الذي كله مقبرة! وعشنا طويلا لا ندري إجابة لسؤال: «إذا كان اسم الأول والثاني من الخوف فلماذا الثالث من قرع؟!».
نعم لم ندرِ له إجابة.

ومرت الأيام والليالي طويلة وأنا أبكي حريتي مع أقاربي وأقراني..

وجاء يوم الحرية مع قدوم جيش أشقر مدجج بالسلاح من ناحية البحر الآخر، وقذفني أحد الجنود الشقر بكرة حارة جدًا تفتتت أشلاء صغيرة بمجرد أن لمستني وتبددت وكأنها ذابت في حبًا وإعجابًا لأنني قريب الشبه بحجر الأحجار الحكيم معلم أمهات اللغات القديمة الذي أسموه على اسم أول من رآه واكتشفه «شامبليون»، ولا ندري ما سر علاقة الحب الغامضة لليوم بين الشام وليون، التي استعصى عليهم فتحها بعد أن حاصروا عكا وقضى على أحلامهم جزار؟!

المهم سقطت بعد الضرب من علٍ.. وحملوني جريحًا قاصدين عبور البحر الآخر إلى بلادهم لأكون فرجة لمن يسوى ولمن لا يسوى هنالك..

لكن الله ستر.. وسقطت منهم في البحر الآخر الذي اسمه.. اسمه.. آه.. الأبيض. أما كيف وصلت إلى هذا المكان الذي عشت فيه طويلا أتمتع

obeikandl.com

بالحرية وأتبادل المنافع مع غيري من بني الحجر في البحر الأحمر؟ فهذه قصة طويلة سرها يكمن في ولع وعشق أهل بلد النهر بشق القنوات التي توصل البحار.. نعم.. نعم.. تدحرجت.. تحت دفع الرياح التي تحرك الأمواج التي تهب معظم الأيام من الغرب غير المستقر على الشرق المستقر عبر قناة جديدة زاوجت ما بين البحرين.. من عمري سنين إلى أن هرمت وصرت في أرذل العمر، فإذا بهم يأتون في نهاية سنوات خدمتي.. ويا لها من نهاية ومكافأة.. بتلك التهمة الكبيرة لإغاظتي وتضييق حرم مسكني بضخامتها وجاذبيتها التي.. آه.. تذكرت.. من فضلكم لا تتململوا.. دعوني أتم لكم حكاية أخي الذي طال أمد انتظاري لرده على رسالتي.

لكن دعوني قبل ذلك أؤكد لكم حقيقة أن الأرض ببحارها وجبالها وأنهارها ووديانها الخضراء وغاباتها وصحاريها الجرداء مع سكانها وكائناتها تشكل بديع صنع الله الخالق الذي ضمن لاستمرارها دفع في كل الاتجاهات وتعارض مصالح بين الكل في طبيعتها الأولية وفي توجهاتها وأشواقها، ولا يفرق بينها غير العقل الذي هو أكبر في هذا المخلوق الذي يسمى الإنسان.. فلماذا يحزن ما دام له عقل يفكر به ويرسم حاضره ومستقبله؟! حسنا.. قد جاءني الرد أخيرًا.. وليته ما جاء لأنني منذ مجيئه وأنا على الرغم مما قلته حزين ولا أملك للحزن دفعًا، فأخي لم يعد حرًا بالفعل.. والحرية تعني لنا الحياة نحن الأحجار على عكس ما يتصور البشر.. النهاية صار أخي مدقًا يدقون عليه الرءوس في رواندا.

أي والله.. والدم الزاهر يسيل عليه ويلونه في كل لحظة.. إنه في عجب لم كل هذا.. ويبكي يا إلهي ما هذا الدم الكثير؟!

سمع شيئًا لم يفهمه عن الهوتو والتوتسي.. ولم يفهم للآن.. لماذا يدق الهوتو رءوس أطفال التوتسي بهذه الوحشية التي لا تبقي ولا تذر؟

نعم.. نعم.. ويصفون من لا يفهم بأنه يحمل في رأسه حجرًا.. قولوا ما

تشاءون.. نحن لا نفهم.. ولا نريد أن نفهم يا أصحاب العقول والألباب إذا كنتم بهذا التوحش خلت قلوبكم من ذرة رحمة.. ثم أفظع من ذلك تصفون القلب الشديد القسوة بالحجر.

أواه يا قبائل الهوتو.. كيف ضاقت بكم الأرض بما رحبت وسبحان المالك الأوحد.. ماذا في أن تحيا قبائل التوتسي شركاء الوطن معكم يزرعون الأرض الطيبة ويشربون الماء القراح من النهر ويربون الماشية والدواجن والأبقار.. هو يرزقكم وإياهم.. ولا عيب في أنهم ليسوا من أصل البلد كما تزعمون.. هذا السعار الذي يجري في دم كل إنسان في الأرض وكأنه الذي خلقها ومن عليها ويدافع عنها دفاعًا دون الموت وينقله من جيل إلى جيل.

خذوني مثلا.. إن هذا الـ.. آه.. قد توقعت.. توقعت مجيء كل هذه الأعداد من أسماك القرش لدخول هذا المخلوق الذي أتى يزاحمني.. إنهم هذا الصنف من البشر.. أجل.. لكن.. أيكونون من التوتسي ألقى بهم الهوتو في هذا القاع السحيق؟!

ربما.. فالعالم يغص بأمثال هؤلاء وهؤلاء.

فحيثما ارتفع مد الطمع والجشع تجد هؤلاء ولا تجد هؤلاء.

أنا حجر في أعماق البحر حقًا.. لكني أفهم.. وأفهم أكثر مما يتصور هؤلاء.

أنا حزين.. الحزن كله.. وسأشكو الجميع لسيدي الحجر الأسود الذي يجلونه، فهو حجر أنزله الله من الجنة واضعًا به بذرة الخير والنماء في أرضه.. سأرسل إليه.. أجل مولاي وسيدي الحجر الأسود الكريم.. ليعيد على مسامع من لم يخلقهم إلا ليعبدونه ما يعنيه السؤال «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت».. أليرفعوا قيمة أنفسهم مع أن الله هو الرافع؟! فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم.. كفاكم يا بني آدم ظلمًا وجورًا.. وهؤلاء الصغار المساكين.. أي ذنب اقترفوا ليموتوا ميتة من لا كرامة لهم؟!

هل بلغ الظلم والجور حده الأقصى والحكم لمن يملك أكثر..
الحياة لمن معه وعلى قدر ما معه.. ومن ليس معه فليس من الأحياء وليمت!
سبحان من وهب الحياة لكل خلقه ونفخ في البشر من روحه.. وأعطى لكل خلق سمته ولغته التي يتفاهم بها ويسبح بحمده.
يجعل منا قساة القلوب أصنامًا يخلدون بها أنفسهم وفي ذات الوقت يضربون بنا المثل في الجمود والقدم العتيد ورفض النهوض وكل جديد.
وبالغباء وعدم الفهم مع أن بيننا أحجار كريمة يعلمون قيمتها ويعترفون بها لأنها قيمة مادية.. فهم لذلك أغبياء.. والدليل أراه أمامي شاهد في هؤلاء الذين تتكالب عليهم الأسماك المتوحشة.. أما كانت الحياة من حقهم ليتحابوا ويتناسلوا ويتنفسوا ويعمروا الأرض.. ويذكروا البارئ الذي خلقهم وحملهم الأمانة ليطوفوا حول سكن سيدي الحجر الأسود صاحب القيمة المعنوية التي لا نهاية لها إلا في السماء.. الذي كان.. على فكرة.. أبيض اللون.. وهذا ليس تمييزًا أو تزكية للأبيض، فقد اسود من شدة الحزن للآثام والذنوب التي يرتكبها القساة.. اسودَّ وهو كظيم.. وكذلك أنا حزين كل الحزن وسأبعث إليه رسالة أسأله أيضًا عن شعوره نحو هؤلاء الذين يطوفون ببيت الله وهو جزء منه.. ليظفروا من طوافهم بمغفرة الرحمن وهم لا يعرفون قيمة الأحجار العادية، وكلما مروا عليه رفعوا يدهم اليمنى بالتحية قائلين:
- الله أكبر..
أنا حجر في قاع البحر ولكني لا أفهم.

* * *

وأنا طائر في السماء.. أحوم فوق تلك الجثث الطافية فوق الماء التي

تتزايد أعدادها مع الوقت.. تأتي من بطن البحر ولا أدرى من ألقاها هنا كالنفايا في تلك البقعة حيث محل عشي في الجبل القريب.

أنا لا أحب أن أرى بشرًا ميتًا، فهم يزرعون الحبوب لي ولصغاري وإن كان لي قريب مولع بالنهش وبالذات اللحوم الميتة.. وقد تبرأت من قرابته وتنصلت من معرفته إلى يوم الدين يوم يبعث الزراع ونبعث معهم.

آه.. لو أنني فقط أعرف السبب الذي خرجت معه أرواحهم خروج الجمل من سم الخياط.. إذن لكنت قد أنذرتهم قبلها بزمن طويل.. ففي أزمنه سحيقة كان ابن عمي «الحمام» يقوم بعمل ساعي البريد ولم يشكره أحد.. وهو لم يكن ينتظر هذا الشكر، فقد كان يحمل الأخبار والرسائل على جناح السرعة وينقلها لوجه الله من مكان لمكان حتى يأخذ كل آدمي حذره من الموت جوعًا.. أو مرضًا.. أو الموت حبًا.. أو دفاعًا عن العرض والأرض.. وأطول هذه الحروب منذ فجر التاريخ وإلى اليوم دارت وتدور رحاها فوق تلك الأرض التي فيها هذا المسجد.

رباه.. يدركون أن الله غاضب عليهم ومع ذلك يقترفون من الآثام ما يزيده غضبًا.. ألا يخافون؟!

يزعمون أن الله وعدهم.. وهذه أرض الميعاد وأنهم الشعب الذي اختاره الله من دون سائر البشر لمحبته ورعايته.. ليقيموا هيكله هنا.. الهيكل الذي بناه سليمان.. تحت المسجد وتلك هي المشكلة.. فلا بد أن يقدموا الدليل على ذلك.. وهم يحفرون الأنفاق طولا وعرضًا حتى يوشك أن يتهدم المسجد ودون أن يعثروا على أثر يدلهم.. ومع ذلك لا يكفون عن الحفر، فلا بد أن يفي الله بوعده.

حسنًا.. من قال إنهم أهل الذكر وحدهم؟!

أليس القرآن خير الذكر نزل بلغة خير أمة أخرجت للناس؟ وأن الله لبالغ أمره ومحافظ عليه؟

مسكين إنسان عين محافظة البحر الأحمر.. ماذا يفعل وحده بكل هذا العدد من الجثث الذي يتزايد كلما تقدم الوقت ولم يهب أحد للنجاة.. وفيهم الرضيع والكبير.. فيهم الرجل والفتى.. فيهم المرأة والفتاة.. ولا يهم إن كانت جميلة؟

أجل ماذا يفعل وحده وكيف يرضي كل هؤلاء الأهالي الذين أتوا من كل أرجاء مصر مع شروق شمس يوم الجمعة الحزين وإلى أذان العصر.. للتعرف على أول جثة لم تخرج بعد من جثث ذوي قرباهم.

إن أعدادهم تتزايد مع مرور الوقت هم أيضًا وفوق ما يطيق احتمال المدينة الصغيرة والميناء المحدود السعة مما تحتم استدعاء مدد للأمن من فرق الجنود السود الثياب ذوي الهراوات والطاسات من محافظات الصعيد المتاخمة؛ لإقامة الحواجز وسد الطرق والمنافذ.. تحاشيًا لهياج وانفلات بسبب الغموض الذي اكتنف تعامل السلطات مع عواقب الحادثة.. وإهمال واجبات الإنقاذ أربع عشرة ساعة.

إن النهار يقترب حثيثًا من نهايته.. ولم يظهر من البحر أحياء.. ولا أحد يدلي بتصريح يبعث بارقة أمل.

ماذا يفعل وحده لهذه الآلاف عندما يجيء الليل.. إن لم تتعاون المنظمات الخيرية وأهل الفن؟ من أين يأتي لهم بالأغطية في هذا البرد القارس الذي يصبح زمهريرًا ليلا؟ أيبيتون على الأرصفة.. جوعى فليس في البلدة الصغيرة محلات طعام تكفي.. عطشى انتظارًا للجثث التي رأوا منها في آخر النهار (كما رأيت).. يا إلهي.. أعدادًا لا تكفيها ثلاجات المستشفيات بسفاجا والغردقة؟!

فقد الناس المعلومة الصادقة من كثرة العلماء.. الكل يعلم.. لا أحد يقول لا أعلم.. أعين الكل على صندوق أبيض يحمل الكثير من لفائف الجبن ومفروم الحمام بعيدًا عن أعين عسكر الأمن المركزي.

- ماذا أرى؟ ضرب؟ تضربون جثثًا لهفى على جثث ذويهم صرعى حفاظًا على الأمن وسيادته؟!

- أين كان هذا الأمن والسلام يغرق في المشرق؟!

- لمِ هجر العقول التي تمرق والآذان التي تلصق والأنوف التي لا تشم.. والأيدي التي تحرق وتسرق؟!

- لمَ لمْ يحذر من الأعين التي تترصد من الطعام أطايب اللحوم باستثناء اللحم العوام؟!

- لمِ لمِ يتزوج السلامة وينجب منها نجاة وعلامة وعوامة؟!

- لمِ غادر زوارق الأشواق؟ لمِ فارق الأعناق.. أطواق؟!

- لمِ لمِ يطلق صفارات الخطر في رأس كل ربان يدعي أنه ابن بطوطة.. وابن القبطان الذي سيرث المحروسة ومن عليها؟!

انهالت تساؤلات البؤساء وكانوا على أمل أن تأتيهم أخبار العبارة «سانت كاترين» ببشائر إنقاذ ربانها الهمام «جمعة» لأكبر عدد ممكن من الأحياء الذين حكم عليهم بالإعدام غرقًا.

كان مقدرًا أن يبلغ «المغرق» قبيل شروق الشمس بقليل، وعندما طالعت أعين المحكوم عليهم الذين توشك قواهم على الانهيار السفينة تغذ السير إليهم على البعد استبشروا خيرًا وتفاءلوا، وبخاصة عندما دنت منهم وأصبحت في متناول أيديهم وأذرعهم.. ولكنها.. رباه.. ماذا يرون؟ أهذه العبارة الأخت فيها إخوة لهم قلوب؟! إنها ومع عظيم الدهشة والحيرة والأسى والأسف.. واصلت مسيرها دون أن يفكر ربانها أو أي أحد من روادها أن يظهر على سطحها الخالي لينظر إليهم عسى أن يرق فؤاده وينزل إليهم سلمًا أو حبلا (ليكن) يصعدون عليه إليها منقذا إياهم.. وبعد ذلك ليواصل ربانها المسير حيث يشاء إلى ضبا.. ثانية بالنسبة لمن كتبت لهم النجاة.. فهم لا يمانعون أن يؤوب بهم من حيث أتوا.. وهم

لن يسببوا له أية مشكلة إبان انتشالهم.. فهم أبدان خائرة القوى لا حول لها.. لا يكاد المرء يعرف أنهم أحياء إلا بإمعان النظر إلى صدورهم التي كانت تعلو وتهبط إعياء لالتقاط أنفاس واهنة.. وانية.

وهذا هو كل ما كانوا سيبدونه من جهد وقوة.. أفي هذا ما كان يدعو ربانها إلى عدم القبول بإنقاذهم وكأنها مخاطرة غير محمودة العواقب؟ متعللا بينه وبين نفسه.. ولن يغفر له الرحمن أبدًا.. بالظروف الجوية السيئة.. ومخافة أن تنتاب ركاب سفينته حالة نفسية سيئة.

ولو علم هؤلاء الركاب بمأساة الغرقى وشعروا أنهم يعبرون الماء أمامهم بقلب جامد وأعين زجاجية لفتكوا بالربان ولألقى كل منهم نفسه من الـ«سانت كاترين» إلى البحر لينتشلوهم.

ولكن يبدو أن الربان الماكر أخفى خبرهم فلم يبح به لأحد، وساعده على ذلك أن السفينة انسلت في غبشة الصبح والكل ينام إلا هو لسبب مباشرة عمله ولسبب آخر يتعلق بحرصه على مشاهدة آثار الكارثة وما خلفته من بقايا الحياة.

لمجرد المشاهدة بأعين حجرية أو زجاجية (مع الاعتذار لكل أنواع الأحجار وكل لوح زجاج على وجه البسيطة).. خير منها عين الأعمى، فهو على الأقل له عذره في عدم الرؤية.. أما ذاك فقد سحب الله نوره من قلبه.. فلم يعد يرى بعينيه المفتوحتين على وسعهما.. وكأنه كان على اتفاق على هذا الموقف الغريب الذي لا يصدق.. مع صاحب الشركة ونائبه (ابنه) اللذين انتظرا.. فيما يبدو.. حتى طلع النهار وحتى انتهى الواحد منهما من شرب فنجان القهوة الصباحي على الطريقة الإيطالية.. ثم بدأ يزاول عمله اعتبار من الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة صباحًا.. فأجرى الاثنان اتصالا تليفونيًا بالربان رئيس هيئة موانى البحر الأحمر.. والربان نائب مدير ميناء سفاجا للإبلاغ عن فقد السفينة وانقطاع

obeikandi.com

الاتصال بها.. وطلب البحث عنها.. وكأنهما لا يعلمان أنها غرقت.. حتى تبدأ عمليات الإنقاذ على الفور.. وليس عن فقدها حتى لا تتعطل هذه الأعمال انتظارًا لنتيجة البحث عن السفينة المدعى فقدها.. الكلام لي ولأمثالي (من الهداهد والطيور الفاهمة) وأجدني أعاود طرح السؤال.. ماذا يفعل إنسان عين محافظة البحر الأحمر حقا؟!

وكيف يترك وحيدًا استنادًا إلى ما يمتلكه من حكمة ومفهومية؟!

وماذا يفعل عين السلام الاجتماعي المستشار الذي تم تكليفه بتعويضات الأهالي؟

أليس من الظلم أن ندعه يواجه الأهالي الغاضبين المطالبين بالثأر والتعويض؟

وماذا يفعل ومن أين يأتي بالتعويضات لكل هؤلاء الناس.. إن لم يكن من أهل كرام ملاك السلام؟!

وكيف يمكن أن يعوض الأم الثكلى والطفل اليتيم؟

أمن الممكن أن يكون حقًا لكل شيء ثمن؟

وثمن هذه الجثث التي أصبح من العسير التعرف على بعضها لطول غيبتها في الماء.. كم يكون؟

إن الرجل وإن كان مستشارًا وقاضيًا.. وما أكثر ما أمسك بطرف إصبعه زنبرك ميزان العدالة الحساس ليبقيه صالحًا للوزن بالقسط.. فإنه لن يجد «سنجة» يزن أمامها دمعة ذرفها هذا الطفل اليتيم على والديه.. اللذين افتدياه بحياتهما إبقاء على حياته.

وتلك الأخت التي أعماها البكاء على شقيقها الأصغر ووالديها.. ما التعويض المناسب لها؟

وكيف يقنعها المدعي أنه وزن بالقسط ولم يُخسر الميزان بعد أن فقدت نعمة البصرة حزنًا ومن كثرة ما بكت على ما فقدته من نفسها وذويها؟

وبعد ذلك تتشدقون بأن العدل أساس الملك.. ولا تخجلون يا أولي الأمر من تكرار القول المأثور لرسول كسرى ملك الفرس:

- «حكمت فعدلت فأمنت.. فنمت تحت الشجرة يا عمر».

أنا طائر في السماء لا فوق الشجرة أنقل لكم صورة.. وأعرف قيمة الإنسان الذي كرمه الرحمن ونعمه وقيمة أن يكون لهذا الإنسان مبدأ يدافع عنه كما وضح وراء التساؤلات السالفة التي نقلتها لكم عن الأهلين الذين غلبوا على أمرهم.. والتي حمل رسائلها على جناحه، كما قلت، حمام أبيض من أرض إلى أرض ليعاون من أحب إقامة العدل والأمن.

أنا من يعرف معنى الوفاء والحب وتبادل المنافع والمشاعر العليا لا تبادل الزوجات، قد قالها رسول أعرف أنه جاء في عهد لاحق للعهد الذي خدمت فيه النبي الملك سليمان: «ما معنى أن يكسب الإنسان العالم ويخسر نفسه؟!».

أنا طائر في السماء.. لكني ككل أبناء البلد «أفهمها وهي طائرة».. ومعذرة لتلك الاستطرادة في الحديث عن هؤلاء الذين وعدهم الله.. وعن هذا النبي الملك.. أظنكم عرفتم من أنا.

obeikandl.com

obeikandl.com

- ٩ -

- الله أكبر.. أخيرًا.. خرج من البحر أحياء!
- أحدهم خرج يبكي وهو يرتعد بردًا.. مسكين ثلاث عشرة ساعة في الماء دون أن تدركه نجدة.. يخيل إلي أنه في ذات الوقت كان يغني «ضيعت مالي وأنا مالي».. بصوت خافت.. متقطع.
- بل كان يغني.. بوجي وطمطم.. فيما يبدو لي.. بصوت مبهوت.. يموت.. له ملامح طفل.. خدوده كبيرة.
- ورم الغرق.. شدة الحزن.
- يبكي ويضحك بصوت لا يسمعه غيرنا لأننا على مقربة منه.. وغير الله فهو أكثر قربًا.. ذروة المأساة يفرك عينيه.. غير مصدق أنه نجا.. لا أحد غيره يبكي.. لا أحد من الناجين ينطق.. يرتعدون.. فقدوا القدرة على التعبير.. مصبورون.. من فرط الإجهاد.. والبهوت.. يبكون من الداخل.. فرط الصدمة.. رأوا الموت بأعينهم.. سرت برودته في أبدانهم.
- يا للفظاعة!
- ولدوا من جديد.. قبل الله دعوات أمهاتهم.. قلبي معهم.. أنا أشاركهم البكاء من الداخل.. والضحك من الخارج.. الضحك الذي ينبع من البلاء.. شر البلية ما يضحك.
- معك حق.
- مساكين.. تأخرت جهود إنقاذهم.. لم تتم أية محاولة لانتشال ناجين من

obeikandi.com

موقع الغرق إلا عصر اليوم.

- يا رجل كن منصفًا.. كانت هناك طائرة من طراز «هل» مؤجرة بواسطة وضمان شخصية بحرية كبيرة حلّقت من مطار الغردقة في الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين في اتجاه الموقع.. وبعد ذلك غادرت سفينة بحث وإنقاذ تابعة للقوات البحرية المصرية في نفس الاتجاه.. في الوقت الذي وصلت فيه الطائرة الموقع بعد ساعة وحلقت فوق الأجساد العائمة على الماء وألقت ٨ قوارب و٢٥ طوق نجاة بما يكفي إنقاذ ١٦١ غارقًا.

- ولكن لم تتم أي محاولة لانتشال الناجين من موقع الحادث إلا بعد عصر اليوم وبعد وقوع الحادث بنحو ثلاث عشرة ساعة.. بمعرفة القوات البحرية المصرية بالفرقاطة «شرم الشيخ».

- وبعد ذلك توالت أعمال الإنقاذ بالفرقاطة وسفن ولنشات أخرى سعودية وبلغارية وسودانية.. وكذلك بنمية تابعة لشركة «السلام» التي كانت تملك عبارتين سريعتين هما «إليانور» و«فارس السلام»، كانتا راسيتين بميناء الغردقة وكان يمكن لأي منهما الوصول إلى موقع الحادث في ساعتين.

- لقد خرجت السفينة «إليانور» بناء على طلب الربان رئيس هيئة مواني البحر الأحمر ونائبه الربان مدير ميناء سفاجا في الثالثة بعد الظهر وانتشلت ١٤٨ راكبًا من الأحياء من موقع الحادث، فكيف لو خرجت بمجرد طلبها في التاسعة صباحًا؟ كم كان عدد من يمكن إنقاذهم؟

- بل قل إن أول إشارة استغاثة تم التقاطها كانت في نحو منتصف الليل.. ولو تم إرسال «إليانور» أو «فارس السلام» أو كلتيهما معًا.. لكان ممكنًا أن تصلا لحظة أن بدأ الغرق في الثانية بعد المنتصف، ولما كانت الكارثة بهذا الحجم.

- بل ما كان للحادث حجم يصل إلى حد الكارثة أصلا.

- أنا حزين.
- أنا أكثر.

* * *

لفظه البحر من جوفه السحيق إلى أديم تلك الأرض البيضاء لا يدري أين هو في جزيرة نائية أم فوق سرير بيت أم مستشفى؟ ولا إلى أي وطن تنتمي تلك الأرض التي اكفهر بياضها من غمام أسود في سماء ذلك اليوم من أيام شهر فبراير، على ما يذكر، أو على ما لا يجب أن يتذكر.. فالذكرى جد مؤلمة.. بل هي موجعة تفتت نياط القلوب من شدتها وهولها.. ذكرى الأيدي الصغيرة تمتد طالبة النجدة والرحمة قبل أن يبتلعها البحر وتغور في أعماقه والأيادي الكبيرة أيضًا، مع فارق يبدو بسيطًا هو أن بعضها كان قذرًا رغم الماء الكثير الذي كانت تسيخ فيه، أو هكذا رأى.

رباه.. إنه شعوره هو بالقذارة.. شعوره الشخصي الأليم بأن البحر قد لفظه من فيه كالبصقة.. وما أشد إيلام هذا الشعور وما أوغره في نفسه.. ليخلع ثيابه المبتلة المهترئة إلى آخر قطعة.. نعم قد فقد كل شيء وما بقي له غير تلك القطعة الأخيرة فلم لا يخلعها وينتهي؟! يخلعها ويراه أحد؟ تساءل:

- أويوجد أحد؟

وامتد بصره إلى أبعد ما يستطيع الرؤية عله يرى أحدًا أو بناية تحمل العلم الأخضر بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.. بالسيفين والنخلة.. أو ذاك العلم الآخر بنسره الذهبي وألوانه الثلاثة على الترتيب الاتحاد الأحمر والنظام الأبيض والعمل الأسود.. وصفحة مياه البحر تنبسط أمامه هادئة رقراقة.. وعلى البعد عند آخر مدى «الشوف» تلتقي مع صفحة السماء في دعة وهدوء وتناغم.. يا الله.. أين كانت تلك الوداعة والهدوء

يا بحر عندما مالت السفينة على أحد جانبيها؟ وزرقتك الصافية تلك يا سماء.. أين كانت قبل أن تحتبس الأنفاس وأصوات العويل والصراخ قبل أن يسود الصمت المطبق الرهيب بغتة؟

قد راح في غيبوبة وهو طافٍ فوق سطح الماء لا يدرك أنه يحتضر وحول صدره وإبطيه، لحسن حظه، سترة نجاة.. ولعل الخوف الشديد أكثر من برودة الماء هو ما غيبه عن وعيه عندما توهم أنه لا محالة هالك بين أضراس أحد القروش الذي سيلتقمه حتمًا من رأسه إلى رجليه.. أو لعلها رهبة ما رأى من أحوال الركاب وهم يتبادلون نظرات لا وصف لها والموت يتربص بهم.. فهذه أسرة كاملة.. أب وأم وأطفال يتزودون بالنظرة الأخيرة ويشيعون أنفسهم في هلع غير مصدقين أن الذي يحدق بهم هو الموت الذي لن يفلتهم لا محالة.. نظرة أخيرة متداعية من أم على مقربة منها.. بسمة أخيرة مغتصبة لأب سرعان ما ابتلعه اليم الهائج من ضخامة الوليمة المكدسة باللحم البشري فوق الأمواج الهادرة.

وأمضته الذكرى وأدمعت عينيه وصوت في أعماقه يصرخ:

- رباه إن كان هذا عقابًا للكبار عفوًا فما ذنب الـ..؟

وعجم لسانه عن الكلام غير المباح، وألفى نفسه ينخرط في بكاء مر من جسامة ما حدث وهول الذكرى وهو يردد:

- اللهم لا اعتراض.. لا اعتراض.

وتلفت حواليه عله يرى أحدًا يجيبه فلم يرَ غير وحشة المكان الخالي التي لا تطمئن.. ورفع عينيه بخشوع إلى أعلى واستعرض السماء بنظرة شاملة ومركزة عله يرى علامة لإجابة ولو هينة سيقنع ويرضى ولو لم تكتحل عيناه بالإجابة الشافية، وفقط رأى السحب تتجمع وتدلهم ثانية وثمة طيور في أسراب.. طيور بيضاء تفر هاربة نحو الشرق أو الغرب لا يدري، ثم إنه لم يعد يخشى رؤية أحد له وهو يخلع آخر قطعة ويجري

obeikandl.com

باحثًا عن رفيق يشعره بذاته وبأنه الوحيد الذي - فيما يبدو - نجا دون معاونة من أحد.. حيث لم يكن ثمة أحد يمد يد العون.. الكل كان مشغولا بنفسه كأنه يوم القيامة.. ولا إجابة لأي سؤال.. وكأنها مكيدة أو فخ دبر لهؤلاء التعساء من أناس آخرين لا يعرفهم.. لماذا..؟ ليس له أي خيار آخر في العثور على الإجابة.. ويقسم بالله العظيم أن يجند حياته حيث كتب لها عمر جديد بنجاته لاستخلاص تلك الإجابة، ولو اضطر لمحاربة كل المسئولين عن الكارثة.. وكل من يمت إليهم بصلة ولو من غير المسئولين، وأنه بعون الله واجدها وخاطفها وإن كانت في فم الشيطان نفسه.. والتجريد خير سلاح.

- نعم.. نعم سأجردهم جميعًا مما يملكون ومما يعرشون حتى يرون أنفسهم على حقيقتهم وهم كما ولدتهم أمهاتهم لا يسترهم شيء.. هؤلاء القتلة الجناة مشيعو الفساد الذي ظهر في البر والبحر.. سأكشف خبيئتهم وأصل إلى كبد حقيقتهم ملتهما إياه.. إن حاولوا خداعي.. ومنعي..

يردد في لا وعي وهو يخبط الأرض بجمع يديه صارخًا:

- لماذا؟ أريد الحقيقة.. الحقيقة.. أين الحقيقة؟

إلى أن غاب عن الوعي.. ولكن هذه المرة على الأرض الصلبة التي لفظه البحر إليها كالبصقة من فرط شعوره المرضي بالقذارة الذي لا يكفي لغسيله من نفسه ماء البحر كله.. الذي ساخ الجميع فيه دونما ذنب أو جريرة، أو هكذا رأى.

وتخيل في ما يرى النائم، من شدة ما اكتنفه من شعور ولوثة، أن يدًا قوية وثقيلة انقضت عليه وأمسكته من قفاه وبرجل فحل الجرم لا يعرفه يزمجر في وجهه قائلا:

- أنت قبطان العبارة.. حذقتك.

فارتعدت فرائصه وهتف مسترحمًا:

obeikandi.com

- بالله عليكم.. أنا قبطان العِبارة بكسر العين لا العَبارة بفتح العين.. وإن كان لا بد لكم من قبطان وأن أكون أنا هو فلأكن قبطان «نورماندي تو».. في ذلك الفيلم الضاحك لذلك الرجل الذي لم تكن كلمته تنزل الأرض أبدًا في كل مرة إلا مراعاة لخاطر زوجته الأقوى منه.

- أتهزل؟! قلنا إنك القبطان.

- رباه.. قد تجردت من كل شيء واتخذت التجريد عقابًا واكتشافًا لكل الظالمين، فلماذا إصرار هؤلاء الإخوة على أن ألبس حلة القبطان؟

- لأن هذا منطق وسنة الحياة.. أن يكون هناك فاعل ومفعول به.. هيا البس حلة القبطان وكفى ثرثرة يا طويل الذيل.

وعبثا قال لهم متضرعًا:

- أقسم لكم أنني مواطن صالح و«أمشي جنب الحيط».. ولا أمثل أية خطورة على سمعة وأمن القبطان الحقيقي.. لأن القبطان الحقيقي يكون آخر من يغادر المركب ولذلك لا ينجو من الغرق.

ولأن القابض عليه كان معه ثلة من الرجال الأشداء الذين أجابوه في صوت واحد وكأنها مسرحية:

- ولكنك كنت نذلا.. نزلت أولا فنجوت واقتاد بك البحارة فنزلوا غير عابئين بواجبهم نحو إنقاذ الركاب، وهم أول الشاهدين على أنك خالفت القانون البحري.. وبناء عليه؛ وجبت محاكمتك أيها الجبان عديم الضمير.

- محاكمتي؟! أين أنا؟ أين أنا؟ أقسم بالله أنني قبطان كلام في كلام.. قبطان العِبارة لا العَبارة.. وإن كان ثمة ضرورة حتمية لأن أكون قبطانًا فلأكن قبطان «النورماندي تو».. حلم الصياد الصغير وقاربه.. ثم إنني أحب التجرد.

- اخرس يا طويل الذيل.. يا مجرم.. سنقبض عليك ونخفيك ونخفي أمثالك ممن يتساءلون عن الحقيقة.

دار حديث «الناجي» هكذا.. في الحلم.. مع هؤلاء الذين طلعوا عليه من جوف البحر أو تحت السرير لا يدري أيضًا.. قد كان يخاف أن يراه أحد فإذا به يتجمع أمامه وحوله الكثير من الآحاد يطلون عليه بوجوه وأعين أقل ما يقال عنها إنه لا سماحة فيها، متهمين إياه بأبشع اتهام يمكن أن يتهم به إنسان من أن يكون الراعي الذي هرب من مسئوليته.. فهل هو القبطان حقًا؟ وإذا كان هو فلماذا ينكر نفسه مدعيًا أنه مجرد صياد صغير لقارب لا يصلح إلا لحمل شخص أو شخصين في «جنابية» أو ترعة صغيرة؟! ثم من هؤلاء الذين يوجهون إليه إصبع الاتهام.. أهم شخوص حقيقية.. شخوص بشرية.. أم أوهام وأضغاث أحلام طلعت عليه طلوع الأرواح.. بل العفاريت من بطن البحر الواسع الفم إلى درجة يظن معها أنه يراه مسطحًا بلا فم؟!

نعم.. نعم قد أخطأ في صباه وفي أول شبابه أخطاء هينة، لكن هذا لا ينهض سببًا في حد ذاته لاتهامه هذا الاتهام الخطير.. أخطاء من نوع التخفي في حقول القصب بين أعواده النضرة المليئة بالعصير لامتصاص رحيقها، فقد كان مستواه أكبر من أن يحط على حقل من حقول البطاطا أو الذرة وكيزان العسل، وكان شباب البلدة يكرهونه أو ربما يحسدونه لأنه الوحيد من بينهم الذي امتلك من الشجاعة ما أعانه على السطو على حقول القصب التابعة للشركة العامة للسكر، متخطيًا الكثير من الأعين والحراس.. آه.. ما أمتع تلك الذكرى.. إن لها عين مذاق متعة التجرد.. نعم.. نعم إنهم هم، وليس صحيحًا أنهم جاءوا من تحت السرير، بل من بطن البحر أو البر اللذين ظهر فيهما الفساد وغطى منهما القطرات اللؤلؤية والحبات الصافية.. بل من بطنه هو العاري.. إنهم أقرانه القدامى أتوا يناقشونه الحساب العتيق.

فهل يمتثل لهم؟ كلا.. قد كان زعيمًا جسورًا وسيعرف كيف يناقشهم

هم الحساب القديم، وكيف يجردهم من أثواب الحكام والقضاة، ملبسًا إياهم حلل البحارة القباطنة.
- ولكن.. أين ذهبوا؟
تلفت حواليه باحثًا، ويا للعجب.. لم يعثر لهم على أثر.. فهل حدسوا ما يفكر فيه بعد أن اكتشف هويتهم فآثروا السلامة وعدم المواجهة وعادوا من حيث أتوا؟ أم على العكس من ذلك اختفوا عن ناظريه وراء ثنية من تلك الثنيات الكثيرة المنتشرة في الأرض خلف الروابي أو البحر خلف الأمواج ليتشاوروا في أمره وما عساهم يفعلون به قصاصًا وعقابًا مما جنت يداه؟
فكر في ذلك وفي أنه وجب عليه أن يأخذ حذره فالتمس مكانًا آمنًا يختبئ فيه وبحث حتى أعياه البحث ولم يجد غير البحر أمامه وغير الأرض أو أغطية السرير تلتف حوله التفاف طوق الحية التي تبغي تحطيم ضلوعه وامتصاص دمه.. وها هي إحداهن تسعى إليه وتزداد قربا منه.. رباه.. أين المفر؟ حتى أفكاره لا يكاد يقلبها في ذهنه حتى تنقلب حقيقة ويراها رأي العين.. ماذا يفعل.. ماذا يفعل؟ وأوغل في حلمه.. واسترجع ذكريات الأمس الأليمة كرة أخرى.
وهتف به هاتف بصوت فيه زجر وتثريب:
- أناديك يا إنسان.
تلفت حواليه فلم ير أثرًا لأحد.. اهتاج.. صرخ:
- كنت حجرًا في قاع البحر.. كنت طائرًا في السماء.. أنا الآن؟ آه.. أنا زهرة على الأرض.. ملقاة بإهمال في تلك الغياهب الطباشيرية البيضاء..
تراني في كل المناسبات.. حمراء.. زرقاء.. بيضاء.. صفراء.. وبنفسجية.
سريعة الرضا أنا.. سريعة النسيان.. سريعة الغضب حتى أوشك أن أسمى «أم سريع».. أحب العروة العليا، حيث مكاني في أعلى الجيب..

obeikandl.com

وأعلى الرأس وأحيانًا بأسفل الأرض عند أقدام الشهداء والموسيقى تعزف سلامهم.. وعسكر بملابس زرق وحمر على الصفين يضعون أنامل السيوف على أرانب الأنوف.

تحية عرفان وسلام لمن جاء يسلم عليهم.

فإلام لا يسود السلام؟ إلام يغرق؟ أين هي سفينة نوح؟

وعلام الإيثار والأنانية وجمود الأفهام ونحن من صلب إبراهيم عليه السلام؟!

يمدون أيدي الأخوة إليكم فشدوا عليها شد الكرام.

وخذوهم بالأحضان وأهدوني إليهم بتنسيق ونظام يضمن الحد الأدنى من الدفء والوئام.

ويعلم مبادئ العلم بالاتحاد والعمل والنظام.

نعم أهدوني.. اصنعوا بي حدائق توقظ النيام.

أنا زهرة يانعة يعشقني الجميع ويتبادلون معي الحب بالمعنى السماوي.. لا بالمعنى الأرضي الذي نراه في الأفلام.. عطاء وتسنيم وإسلام بالفعل لا بإطلاق الأسماء الحسنى على عباد الرحمن أبناء هيام وأحلام وإكرام.

قد حسب الناس أن عزة وكرامة وشرف الإنسان تقدر بالمال والقرش! فمن معه قرش فهو قرش! ومن ليس معه لا يساوي قرشًا! فماذا كانت النتائج؟ دموع ودماء في كل مكان حتى لا تكاد الورود والزهور تغطي حاجة الاعتذار وتواصل الأنهار.. وظهرت أسماك القرش في مياه لم تكن تظهر فيها أبدًا.. مياه.. كانت عذبة وتحولت بسوء الأخلاق وملوثات البيئة إلى عسرة ومالحة وقاتلة.

لا.. لن يحزن بعد اليوم على موت أحد.. فهناك من يقطع القفار والفيافي ويجوب مسالك الغربة الوعرة ويحرم آله وذويه من حبه وحنانه وطلعته البهية.. سنوات عمره كله.. من أجل القرش.. ثم يلتهمه القرش.

وهناك من يسرق.. من يقتل الأطفال.. من يغتصب الصغيرات من أجله.. ومن يهوى الحصول عليه دون تعب مستنزفًا عرق الآخرين.. ولو ذرف دمعة واحدة.. قطرة عرق واحدة.. نقطة دم واحدة.. وهو يطرق أو يحرث أو يكتب.. لعرف أن القيمة في التعب.. وفي أن تعود لبيتك وزوجك وبنيك مرهقا مكدودًا.. آخر النهار..

أنا زهرة ملقاة على الأرض.. لي رائحة كل أرض..

ازرعوني في كل الوديان يرحمكم الله..

كلا لن أحزن يا أبنائي شأنكم شأن أبناء كل الناس.. فالحياة الدنيا لا تليق بكم.. هي رحلة عذاب وكمد والزهور الطيبة لا توافقها.. ترحل «بدري» وأنا لن أحزن.

كرر الهاتف النداء بصوت مدوٍ يزلزل أعماقه من فرط الصدمة:

- أيها الإنسان.. من أنت؟ ما رقمك القومي؟ تم انتشال ٣٨٧ حيًا و٣٤١ جثة.. أرقام معلومة لرقم غير معلوم.

أجاب في غياب ذهن وعيناه تبرقان:

- وباقي الغرقى والمفقودين إما رقم مسجل.. أو أصفار على الشمال تركب ما لا نهاية.. أنا أيضًا رقم مع أن الخالق سبحانه أكرمني كإنسان وسخر لي كغيري كل المخلوقات.. ووفقني من العمرة إلى الحج.. وعندما عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال.. أبين أن يحملنها وأشفقن منها.. وحملتها أنا! ولذلك لن أسكت عن الذين قتلوا الناس جميعًا.. فلنا في القصاص حياة.. سأكون من أولي الألباب وأقاوم الحزن.

غمغم الصوت هادئًا بغتة:

- سألتك من أنت.. والآن أسألك ما رأيك لو تجلس مع الربان رئيس «السلام» ونائبه (نجله).. تحتسي القهوة الصباحية على الطريقة الإيطالية، ولا تهتم أو يساورك القلق مثلهما حتى تجري اتصالا مع ربان السفين

«سانت كاترين» أو بميناء ضبا للاستفسار، مجرد الاستفسار، عن سلام كان من المفترض أن يصل الثالثة صباحًا حتى تبدأ عمليات الإنقاذ التي تأخرت.

تمتم بسرور بالغ وعيناه تبرقان أكثر:

- حسنًا.. إنها تأخرت.. فهذا أفضل لهم.. هم الآن في جنات وعيون.. أحياء عند ربهم يرزقون.. كلا أنا لن أحزن.

وطبعًا كان يخادع صاحب الصوت الذي هو نفسه.. نفسه.. وأخفق في مكافحة أسباب الحزن والأسى والألم الذي اعتصر فؤاده وكل خلية في جسده حتى صار نحيلا (جلدًا على عظم) كما وصف المقربون إليه..

فمن هو؟

إنه أحد الناجين ويستوي أن يكون هذا أو ذاك.. فكلهم بؤساء.. وأتعس من هؤلاء الذين استراحوا ولم يتعرضوا لذلك النوع من الألم الذي يفرض على من يحسه أن يتقبل فكرة الفراق وأنه لن يعود يملأ عينيه ويشبع ظمأه برؤية الأحبة ثانية.. هو الذي لم يكن يطيق بعدهم عنه يوما.. فكيف طوال حياته؟!

دعا ربه:

- رباه.. قربني إليهم برحمتك.. خذني معهم ولا تطل عمري.. واحفظني من الذنوب حتى أكون جديرًا بلقائهم في جنات نعيمك التي تجري من تحتها الأنهار.

وإذ حكمت محكمة جنح سفاجا يوم الأحد ٢٠٠٨/٧/٢٧ ببراءة المسئولين بشركة «السلام» من تهمة القتل الخطأ.. واستأنفت النيابة العامة الحكم.

هتف كاظمًا غيظه:

- رباه.. من المجهول الذي أغرق «السلام».. أأدفع الذي بيني وبينه عداوة بالحسنى؟ أم أتحول كغيري ممن روعهم الحادث.. في كل المجالس

إلى خبير بحري وقانوني.. دولي ليس لي نظير.. كاظمًا غيظي.. كجميع الشرفاء الذين لم يبقَ لهم إلا جَلد أنفسهم واتهام ليلة الخميس/ الجمعة المفترجة.. وبكل دقة في منتصفها عندما يبدأ العد التنازلي للغرق في الحب يتوافق مع نظيره الغرق في البحر؟!

وتجاوبت أصداء أصوات الغاضبين معه في جميع الأرجاء وتندروا قائلين بمرارة:

- وأدهى من ذلك عادة الاستغراق كل إجازة في النوم إلى ضحى اليوم.. ولولا صلاة الجمعة ما صحونا!

- أصل الذين اختشوا ماتوا.

- قول مأثور يخلد ذكرى هؤلاء الذين آثروا الموت على الحياة بالفرار.. وهم عراة من حريق شب بأحد الحمامات العامة التي كانت منتشرة في الزمن السابق للزمن الجميل.

- ويا له من فارق يا آل هذا الزمان!

في ذياك الزمان كانت هناك سفن.. لكن كان هناك طريق بري.. يغني عنها.. أتعرفون لماذا استولوا على تلك القرية وأقاموا هذا الميناء.. بين العقبة ونويبع؟!

- لماذا؟ ألفصم العروة الوثقى حتى لا يقوم بين الأشقاء تعاون أو هوية؟

- الله سيدافع عنها وعن الذين آمنوا، فهو سبحانه وصفها بأنه لا انفصام لها.

- بل لتشغيل العبارات يا غبي.. ألم تسمع عمن يحارب إنشاء جسر يربط السعودية بمصر؟

- ولا تقل لي إنه هو نفسه من يهدد بربط البحر الأحمر بالبحر الميت.. ومن ثم الأبيض صانعًا قناة.

ومضت أشهر ثم عادت الأصوات الغاضبة في كل مكان للتنذر بعين المرارة:

- أمس الخميس ٢٠٠٩/٣/١٢ أصدرت محكمة جنح سفاجا مستأنف الحكم بحبس رئيس شركة «السلام» ٧ سنوات مع الشغل والنفاذ.
- وهو في لندن.. الشغل والنفاذ في لندن؟!
- أجل.. وثلاث سنوات لكل من مدير الأسطول البحري ومدير فرع الشركة بسفاجا.
وهذان مع الشغل والنفاذ في لندن أيضًا!
- وبراءة نائبه.. نجله.. ومسئول آخر ثبت أنه أبلغه بالحادث في حينه.
- أبلغ من؟ رئيس الشركة؟
- إياه أعني.. عضو مجلس الشورى بالتعيين.. وعضو مجلس إدارة هيئة موانى البحر الأحمر.
- أما ربان العبارة «سانت كاترين» فتأييد الحكم المستأنف بالحبس ستة أشهر.
- يا سلام.. فقط.. هذا وحده يستحق الشنق في ميدان عام، لكن المشكلة في الأصل أن الجريمة قيدت جنحة.
- أي والله.. دنيا غرورة تلهينا عن رؤية الحقيقة الثابتة.. حقيقة أننا في النهاية نرحل وليس معنا من متاعها غير العمل الذي بعضنا فرح به مشرق الوجه وبعضنا مكفهرة يتحسر على نفسه وينوح في الظلام وهو يعض على النواجذ يا ليتني عملت صالحًا.. ويا ليت الأيام تعود بي القهقرى كي أعمل صالحًا.
أما الناجي المعذب فكان منتهى أمله أن تعود به الأيام القهقرى فيرتوي قلبه من أحبائه ويجلس إليهم ولو ساعة واحدة يموت بعدها ويستريح من التأوه والتوجع في الليل الطويل الذي لا نهاية له وهو يردد:
- آه يا أحبائي.. كم ينفطر الفؤاد لوعة لفراقكم.. كم يعصف بي شوق لرؤياكم.. الحياة الدنيا رحلة عذاب حقًا.. ودار ابتلاء.. هذا ما يجب أن

ننتبه إليه.. والبشرى لمن يصبر ويجيب مع كل ابتلاء ولأول وهلة عندما يبتلى قائلا:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

ويظل على القول بجد حتى يدركه من ولد معه في المهد.. داعيًا الله أن تكون هذه آخر ليلة يتوفى فيها ثم يصحو، وبأن يمن عليه بالرحمة ويسلمه لهذا الذي يدنو رويدًا.. أو فجأة.. فاغرًا فاهًا.. ذاك الذي يوشك أحد جنوده أن يمتد ويبتلع الأخضر واليابس ويغرق البلاد والعباد في برزخه السحيق القديم قدم الحياة.. فهذه إحدى أشهر السنن على مر الدهور، وليس ظهور الفساد في البر والبحر إلا أحد الأسباب وإن سمي بعضه «ظاهرة الاحتباس الحراري» في أيامنا.

- سأبدأ من حيث انتهيت.. سأكفل يتامى.. سأعلمهم عمارة النجاة.. البحار.. الأنفس.. سأجعلهم قباطنة أنفس ولن أحزن.

وشع بداخله نور وخيِّل إليه أنه يرى وسط النور أطياف الأعين الدامعة والأيدي الصغيرة تستغيث به وتناديه ملوّحة من وراء زجاج، فأسرع موضحًا كأنما لنفسه قبل أن يضعف وينخرط في البكاء:

- كلا لن أحزن حتى الموت.. أو أكونن من المصابين بعداوة البشر ومحبة ما عداهم.. آه.. يا أعز الأحبة.. فكري يحلق في السموات.. ليتني أحلق بجسدي وأنفلت من الجاذبية فأطير إليكم.. أفضل من الجلوس على رمال الشاطئ الساعات الطوال.. على أمل خروج أحد منكم من البحر.. ذلك الغول أو المجهول والقبر الكبير الذي لا يمكننا أبدًا أن نضع عليه شاهدًا يحدد هوية ووطن المقبورين فيه.

ولا نستطيع رؤيتهم أو زيارتهم إلا في قلوبنا.. وأحلامنا.

لكن يمكن أن نتلو آي الذكر الحكيم.. أن نقرأ «الفاتحة».. أو ننثر الزهور.. أو نصلي صلاة الغائب ترحمًا عليهم في كل البحار، فهم جميعًا إخوة

منفتحين على بعضهم.. وأن نتواصل بهم ونحيي ذكراهم بالرحمة والنور.. وتقوى الله في كل ما نقوم به من عمل.. فهي المخرج من غياهب الحزن.. وهي الرزق الذي لا نحتسبه ونسمع على شطآنه لحن الوفاء.. مع مشرق شمس الوعي وشدو الطيور نشيد الأمل في سماء مياه الحياة.

وألفى نفسه يبكي باحتراق ثم أمسك لما سمع صوتًا رخيمًا يردد من بعيد:

- الربيع.. الربيع الطلق أتانا يختال ضاحكًا يا عرب.. حي على كلمة سواء.. حي على الاتحاد.. على العدالة.. على الحرية..

فأحس بدماء حارة تعود للانبثاق من فؤاده لتجري في عروقه وانتفض واقفًا ينفض عن نفسه كل استخذاء وضعف وبكاء، وراح يقوي نفسه بتلاوة آيات قصيرة من ربيع القلوب وجلاء النفوس ويعد العدة والعزم لشق عصا الطاعة على من عصى ربه وسقط في امتحانه.. وانضم لصاحب الصوت يؤازره ويهتف معه، ثم ما لبث أن انضم آخرون وأصبحت مظاهرة كبيرة مليونية بميدان التحرير وكل ميادين التحرير بربوع المحروسة تطالب بالتغيير والحرية ومحاكمة القتلة واللصوص الذين أغرقوها وحولوها من «كنانة الله في أرضه» إلى «كنانة لأعداء الله»، وخيل إليه أنه لمح بين الجموع طفلا لا يزيد عمره على تسع سنوات محمولا فوق الأعناق يرفع العلم ويصيح بأعلى صوت والجميع يرددون خلفه:

- «الشعب يريد تغيير النظام».

فهتف بفرحة طاغية وهو لا يكاد يصدق ما تراه عيناه:

- هلال!

وأحس من بجواره بانفعاله وذهوله وغياب صوته فسأله:

- مالك.. هلال من؟!

أجابه بغياب ذهن:

- الثورة.

وأولاه ظهره وشق طريقه إليه بشق الأنفس، ولما بلغه تأكد أنه هلال فعلا ابن أحد معارفه كتبت له النجاة بأعجوبة وكبر بعد ما يربو على خمس سنوات، وتحين فرصة حانت من الطفل التفاتة عفوية إليه وهو يقتنص بسمة وتنهيدة ويحاول أن يريح صوته الذي بح وتوشك أوتاره على التمزق وسأله:

- ما اسمك يا بطل؟

- ليس مهما اسمي.

- من أي قرية أو مدينة؟

- ليس مهما اسم قريتي أو مدينتي.

- ما المهم إذن؟

- تاريخ ميلادي.

- وهو؟

- ٢٥ يناير.

- ومن هذا الذي يحملك على كتفيه ويشبه والدك؟

- عمي.

تمت

obeikandi.com

محمد بهاء الدين فودة

كاتب وروائي مصري ، مهموم دائما بقضايا وطنه .
نشر العديد من الأعمال الأدبية والسياسية والقصصية والشعرية في عدد من المنتديات المصرية مثل منتدى الألوكة وكانت تشهد هذه الأعمال اقبال كبير من القراء لما فيها من لغة قوية واحداث مشوقة وقدرة علي التعبير والرسم بالكلمات حيث أعطته مهنته نوعا من التأمل والقدرة علي الابتكار والتعبير حيث كان يعمل كمهندس زراعي

صدر للكاتب :

الرصاص المسكوب في القلوب - رواية -
دار الحلم للنشر والتوزيع ٢٠١٣

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com